الأدب العربي الحديث

الدكتور

محمد عبد المنعم خفاجي

مدارس ومذاهب ونظريات وأعلام

الجزء الثالث

الناشر

مكتبة الكليات الأزهرية

حسين محمد إمبابي وأخوه محمد

٩ ش الصنادقية - الأزهر - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

هذا هو الجزء الثالث من كتابى « الأدب العربى الحديث » ، يصدر متمما للجزءين السابقين ، وكان الجزء الأول عن مدرسة البعث بريادة البارودى ثم شوقى ، ومدرسة الديوان بريادة شكرى والعقاد والمازنى ، وقد حملوا راية التجديد ، ودعوا الى الرومانسية ، فى قوة .

أما الجزء الثانى فكان عن مدرسة أبولو وشعرائها ، وهى المدرسة الثانية من مدارس التجديد فى الشعر الحديث .

ويشتمل هذا الجزء على شعراء آخرين من أبولو ، وعلى مدرسة شعراء المهجر ، ومدرسة شعراء الشعر الجديد ، كما يشتمل على دراسات فى النثر الفنى وألوانه وأعلامه ومدارسه ونظرياته وحركات التجديد فيه .

ولا أجد ما أقوله الا أن أقدم هذه الدراسات الى القارىء ليعيش معها ، ولتعيش معه ، فى أخوة فكرية صادقة ...

المؤلف

عامر محمد بحيري — شاعر من أبوللو

— ١ —

شاعر عرفناه فى دواوينه العديدة الخمسة عشر ، وفى مسرحياته الشعرية الثلاث . وفى ملاحمه الشعرية الست ، وفى مسرحيات شكسبير العشر التى ترجمها البحيرى شعرا ، وفى غير ذلك من أعماله الشعرية والأدبية .

شاعر عاش مع الشعر ثمانيـة وخمسين عاما (١٩٢٧ — ١٩٨٥) ، يحافظ على عمود الشعر محافظته على الأصالة .. أما المعاصرة فتتمثل عنده فى المعانى والأفكار والأخيلة كما يقول هو فى المقدمة القصيرة التى كتبها لديوانه « ديوان عامر » ، وقد بدأ رحلته مع الشعر متأثرا بتجديد شوقى رائد مدرسة البعث ، وتجديد العقاد رائد مدرسة الديوان ، وتجديد أبى شادى وشعراء أبوللو . ونظم الشعر الوطنى والاسلامى والاجتماعى والذاتى والإنسانى والملحمى والتمثيلى .

وأخـذ ينظم الشعر العاطفى الرومانسى ، ويلتقى بالشعراء المجددين فى رحاب جماعة أبوللو ، وكانت معظم مطالعاته آنذاك فى الثلاثينات فى الأدب العربى والانجليزى ، ولا سيما فى الشعر ، وتلاقت نفسه مع طلائـع المدرسة الحديثـة ، فى أبوللو ، وصدر ديوانه « اليخت الذهبى » عام ١٩٣٦ ، مواكبا لتلك الحركة الرومانسية ، التى جمعت بين القديم والجديد[1] ، وبين الأصالة والمعاصرة ، وبين المحافظة والتجديد .

---

(١) الأهرام ١٩٧٦/٨/١٣ — د . مختار الوكيل .

وفى عام ١٩٧٢ ، فى ذكرى قيام أبوللو تقف الشاعر فى رابطة الأدب الحديث ينشد قصيدته فى هذه المناسبة ، بعد أربعين عاما ، ويقول[١] :

أبوللو عز وجهك يا أبوللو	ولن يغشى جبين الشمس ظل
يمر الدهر جيلا بعد جيل	ونجمك فى الذرى يعلو ويعلو
وأنت الدار تجمع كل حر	إذا ماغاب ليث قام شبل
نزلت الروض فى فجر الأمانى	وغريد الخمائل يستهل
فألفيت الطيور لها غناء	تميل له القلوب ولا تمل
على منوالها حاولت نسجا	ومالى بالدمقس الحر شغل
أبو شادى تحمله جهاداً	له فى جيله سبق وفضل

وتقوم الدعوة لإحياء أبوللو ، وإصدار مجلتها من جديد ، ويحمل الدكتور مختار الوكيل عبء هذه الدعوة لقيام أبوللو الجديدة ، فيكتب الشاعر قصيدته « مناجاة أبوللو »[٢] ، ويقول فيها :

ولواء فى سماء الشعر علوى النشيد
إنه لحن أبوللو فى سنى الفجر الجديد
يجعل الدنيا من الحسن كفردوس الخلود

ولا يقف تجويد عامر بحيرى على المسرحية الشعرية والملحمة الشعرية فحسب ، بل إنه يبتكر وزنا فى البحر الخماسى من الشعر الجديد فى بحر الرمل ، ويكتب عليه قصيدته « مناجاة »[٣] التى يقول فى مطلعها :

أين أنت الآن . . يا من سكبت خمر غرامى . . أين أنت ؟

---

(١) ٣٥٠ و ٣٥١ ديوان عامر — الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٢
(٢) ٤٢٩ المرجع نفسه .
(٣) ٢٤٦ ديوان عامر .

ولا يقتصر تجديد أبوللو وعامر بحيرى على ذلك فحسب ، بل تراه فى شعره يحافظ على الأصالة والفطرة الشعرية ، والعاطفة الصادقة والطلاقة الفنية ، والبعد عن الافتعال مع التناول الفني السليم للفكرة والمعني والموضوع ، والانسجام الموسيقى ، واستعمال اللفظ الموحى .

وكذلك يحرص الشاعر على البساطة فى التعبير ، لفظا ومعنى وخيالا ، مع تركيز الأسلوب ، والرجوع إلى النفس والذات ، وإيثار الشعر الغنائى العاطفى والركون إلى التأمل الصوفى ، والغناء بالطبيعة الجميلة ، والمحافظة على الوحدة العضوية فى القصيدة ، مع التجربة الشعرية العميقة ، والعناية بالصورة الشعرية ، وبالأخيلة الهائمة .

إن ذلك كله هو لحن أبوللو وموسيقاها وصورها ، إنه النزوع إلى الروح الرومانسية وجوهرها . إنه العذاب الروحى والشعور الدائم بالألم والعذاب النفسى .

إن صوت الطبيعة فى شعر عامر صوت واضح مسموع . لا يمل ، وإن شعر العاطفة والوجدان والذات عنده يتمثل فى قصائده لحنا وفكرا وتجربة .

ولا يقف عامر وأبوللو عند ذلك فحسب ، بل إنه يدخل شخصيات ميثولوجية كثيرة فى شعره ، كما فعل شعراء أبوللو ، كأبى شادى والشابى وعلى محمود طه وسواهم ، فلقد ساد هذا الاتجاه فى شعر مدرسة أبوللو ، وبخاصة أبو شادى ، وتابعهم فيه الشابى .

وشاعرنا ينظم ديوانا كاملا ، ويسميه « إيزيس وأوزيريس » . (عام ١٩٦٠) ، إلى رائع قصائد الكنز الذهبى التى نظمها ، وإلى الشخصيات الأسطورية التى حفلت بها ترجمته لمسرحيات شكسبير .

إنها الشاعرية المتألقة الموهوبة ..

إنه الثراء الفني الذى يرفع منزلة الشعر والشاعر .

وفى محاولة للتجديد ، يكتب الشاعر قصيدتيه : «افريقيون وعرب»(1) (١٩٦١) ، وفى « قريتى »(2) يجمع فيهما بين خصائص القصيدة العمودية وموسيقاها وبين حرية الشاعر فى التنقل بين التفاعيل فى أبيات القصيدة ، وهى محاولة جريئة .

إن شاعرنا يذكر مسيرته مع الشعر فى قصائد كثيرة ، ومن بينها :

أنا فى الدنيا ولكنى عن الدنيا رحلت

كان بالله بقائى وإلى الله انتقلت

كان لى سر مع الله وبالسر احتفلت

كلما ثبت أقدامى على صخر زلت

يا دموعى إنك النهر الذى فيه اغتسلت

كنت نجما فى شباب العمر ، لكن أفلت

ونجاحى قاب قوسين ولكنى فشلت

وهى قصيدة حافلة بالألم الرومانتيكي وبالحزن النفسى ، وبالقلق والشعور بالغربة ، وهى سمات الشاعر والشعر الأبوللى الرومانسى .

والقصيدة الثانية مثل الأولى قلقا وألما وحزنا وشعورا بالوحدة والضياع ، وعنوانها « شاطىء »(3) . وفيها يقول الشاعر :

---

(1) ٢٤٠ ديوان عاصر .

(2) ٢٤٣ المرجع .

(3) ٢٢٩ الديوان .

بعد موتى سيعرف الناس قــدرى
وسيتلون فى المحــافل شعرى
وسيسعى من كان يرفض لقيــاى
حثيث الخطى لإحيــاء ذكرى
وترانى بعثت بالشعر حيــا
وكأنى نشأت أول دهــرى
ليت شعرى ألم يكن ذاك أولى
فى حياتى . . من وقفة عنـد قبرى

وهذه هى مشاعر الشاعر الأبوللى المغرق فى رومانتيكيته .

إن عامر بحيرى فصل طويل فى سفر شعراء مدرسة أبوللو ، وقصة خالدة من قصص مسيرة شعرنا المعاصر ، بل شعرنا العربى الحديث كله .

وحين يحدثنا الشاعر بشعره ، وبدموع الذكرى ، وبلغة الشاعر الرومانسى العائد إلى فردوسه المخضوضر الفينان ، نقول له :

أيها الشاعر الخالد :

هــذه مصر ونيلها ، والعروبة وتاريخها ، والاسلام وانتصاراته ، تذكرك ، وستظل طول الأبد تذكرك ، فقد غنيت لها طول عمرك أحلى الأغنيات ، وغنيت للبائس والمحروم والمكدود أجمل الألحان ، وغنيت لكل جميل ونبيل وشريف ، ولكل حق وخير وعدل وصدق ، ولكل المثل العليا ، والقيم الرفيعة فى الحياة .

— ٢ —

وفى حفل تكريم رابطة الأدب الحديث للشاعر عامر بحيرى قال عن نفسه :

الصبر ، والوفاء ، والتسامح . . ثلاث خصال أحسها فى نفسى ، ولا ضير على أن أكون صريحاً فى عرض كل واحدة منها عرضاً موجزاً .

الأولى عزيمة الصبر . . فمنذ الطفولة أحسست ان عدوانا يقوم على عقوق أحيانا دون مبرر ، مع أن المعتدى لا يصيبه منى أذى سابق ، ولا يمكن أن أجزيه عليه بأى أذى لاحق . . وآمنت أن هناك يوماً عند الله سمى يوم الحساب . . . فيه تحصى الأعمال ، وتقدر الدرجات ، وترد الحقوق إلى أصحابها . . . فصبرت ، إذ لم أجد سبباً معقولا يمنعنى من الانتظار ليوم الحساب !

بالصبر يحظى بنيل المجد نائله وبالثبات ثنى عنه عواذله
وباجتهاد وتهذيب ، وتضحية يقام معوجة منه ، ومائله

وهى من أبيات قلتها وأنا دون السادسة عشرة ، عند حصولى على شهادة الكفاءة عام ١٩٢٨

والثانية : عزيمة الوفاء فبعد أن تخرجت فى المدرسة السعيدية عام ١٩٣٠ ظللت وفياً لهذه الدار التى قضيت فيها أجل أيام الشباب فلم أتخلف عن حضور ندواتها الشعرية ، وأعياد الخريجين بها . . . حتى احتفلت بعيدها الماسى عام ١٩٨١ . . فكان مطلع قصيدتى فى تلك المناسبة :

ما زال أحبابنا فى السير ماضينا نقف قليلا نجدد ذكر ماضينا

وقد حصلت على لقبي « شاعر الوفاء والانتماء » من المدرسة من أجل ذلك.

والثالثة : عزيمة التسامح .. وقد تحدثت عنها ضمناً في حديثي عن الصبر..
ومما قلت في ذلك :

إن أنس لا أنسى الشباب وعهده ... في نورتي ، وتطلعي ، وهيامي
وصلاة روحي في محاريب الهدى ... وعن الرذيلة والضلال صيامي
من شعلة الصفح الغفور ضراوتي ... ومن التسامح غضبتي ، وصدامي !

كما قلت في قصيدة نبوية ، بعد الحرب العالمية الثانية ، والحديث موجه فيها لصاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام :

يابانياً أسس الهداية والرضى ... بالعدل من أخلاقك العصماء
أنى اتجهت فمن هداك هدايتي ... نعم الرضى يرضى به خاطائي
لي كون للحق المبين ونصره ... غضبي ، وللحق المبين رضائي
الصفح أول ما أقدم من يد ... والصدق مني لم يشب برياء
هذى يميني في حماك ، تشوقت ... من صفحها .. لو صافحت أعدائي !

هذا عن نفسي ، وأما عن شعري.. فليس من حقي أيضاً أن أتحدث عنه .
ولكن هناك كلمات تطن في أذني ، بعضها مكتوب ، وبعضها مسموع لكبار قادة الفكر ، ممن آزروني في رحلة الشعر منذ الصغر . .

قال الدكتور زكي مبارك في صحيفة البلاغ عام ٣٦ : « عامر بحيري شخصية رزينة تمد بالخير الجزيل وإن صحت فراستي فيكون هذا الفتى من أعلام البيان » .

وقال العقاد عن قصيدتي (برج الساعة) التي نظمتها في نهاية فترة حياتي الجامعية : إنها تفوق شعر ابن الرومي في مقدرته على تحليل المواقف وتوليد المعاني .

وقال عزيز أباظه عن قصيدتى التى قلتها فى تكريمه . عقد حصوله على جائزة الدولةالتقديرية ومطلعها :

من جمال الربيـــع أو أزهاره صغتها باقة ليـــوم انتصاره

إنها تذكره بقصيدة شوقى فى مهرجان تكريمه عام ١٩٢٧ ، ومطلعها :

مرحباً بالربيـــع فى ريعانه وبأنواره ، وطيب زمانه

وقال حافظ محمود،شيخ الصحفيين ، فى تقديم ملحمة (مصر المنتصرة) التى نظمتها بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ونشرت فىصحيفة الجمهورية : إنهذه الملحمة من ملاحم الشعر العربى المصرى ، صفعة للذين كانوا يدعون كذباً أن الشعر العربى لم يعالج ما عالجه الشعر الأوربى من قضايا » .

وقال الدكتور أحمد كال زكى فى كتاب « محمد فى الأدب المعاصر » : إن شعراء الملاحم النبوية المعاصرون . ثلاثة البارودى فى كشف الغمة بمدح سيد الأمة،وأحمد محرم فىالالياذة الإسلامية ،،عامر بحيرى فى أمير الأنبياء .

ونشر الأستاذ حلمى محمد القاعود ، الأستاذ بجامعة طنطا ، فى الأهرام فى الشهر الماضى ، مقالاعدد فيه شعراء المدائح النبوية ، بدأهم بكعب ، وحسان والفرزدق .وختمهم—وهم نحو عشرين — بشوقى ، وعزيز أباظه ، وعامر بحيرى ، ونازك الملائكة .

— ٣ —

وآخر قصيدة نظمها الشاعر هى قصيدته « نسمات الشرق » وقد ألقاها فى حفل تكريم رابطة الأدب الحديث له عام ١٩٨٥ ، وهى :

نسمات الشرق من جنة عدن روحت أنفاسها فى الشعر عنى

كم طويت العمر أسرى موهنا وهى لاتبرح تختال لعينى

من ورود تترامى بالشذى وطيور بالأناشـــيد تغنى

يالها من روضـــة مسحورة حسنها الفائق يعلو كل حسن

تختفى عنى إذا حققتها وأراها كلما أغمض جفنى!
حدثتنى النفس من فجر الصبى أن لى كوناً بعيداً .. غير كونى
كله نور ، وحب ، ورضى لا بعين الكره فيه ، والتجنى
أهله أهلى على بعد المدى جمعت بينهم القربى ، وبينى
من قلوب تؤثر الغير على حقها ، راضية من غير من
وصدور نزعت أحقادها فى عفاف يبهر الدنيا ، وصون
أى كون ذاك فى علياته ليس فيه لفظة تخدش أذنى
غير موسيقى سرت أنغامها مع سرب الطير من غصن لغصن !
هذه الدنيا .. وقد عايشتها تجمع الأضداد من صدق ومين
يتلاقى الخير والشر بها ويضيع الحق بين الأخوين
لا يدوم الوصل إلا ساعة ويطول الهجر بين العاشقين
بين ميلاد وموت شعلة أوقدتها الحرب من ضرب وطعن
إن ألانت ذات يوم قلبت لبنيها فى غد .. ظهر المجن
أين منها لحكمة من عالى تشرح الصدر وتجلو كل حزن
فخذ الدنيا .. على علاتها واقرأ التاريخ .. من قرن لقرن !
أين لقمان .. ليلقى لابنه عظة الأيام .. من شيخ مسن ؟
أنكر الشرك عليه ، ودعا لو رعى المولود حق الوالدين
هل درى الجيل المرجى لغد أن للاباء ديناً أى دين
ليس كل الشعر وصفاً ساحراً لجمال الوجه ، أو حسن التثني
فجمال الفكر أعلى رتبة ومن الحكمة مايغنى ، ويقنى
وجمال الرأى فى إبدائه صائباً بعد التروى والتأنى
وجمال الحب .. فى حب الحمى إنه أشرف حب مستكن

وجمال الشعر .. فى قافيـــة أصبحت بين القوافى ذات شأن !
مرحباً بالشعر .. حراً ثائراً يطلق العصفور من قيد ، وسجن
عبقرى اللحن يشـجى طرباً عالى الفـكر ، ذا قدر ، ووزن
يوغل الشاعر فى رحلتـه بين شطآن ، وأمواج ، وسفن
سرت . فى موكبه منذ الصبى منشـداً فى مسمع الأيام لحني
بعد (شوقى) و (أبى شادى) له عصبة ترفـع أهراماً وتبني
أودعـــــ وإميثاقهم رابطة تسلم الراية فطناً بعد فطن
نادت الفصحى فشدوا أزرها ودعا النشء فكانوا خير عون
امتداد الفـكر فى ناديهـم لاذ منهم طالب الحق بركن
(الخفاجى) أمين بعـــدهم يؤثر الحق ، ويبدى حسن ظن
فى رفاق عبروا الجسر معى بين صدق الحب أو صدق التمنى
شحذوا قـــوس أبولو ورموا غرض الإلهام ، بالسهم المرن
وشـــباب صادق ، ملتزم دائب السـير ، بخطو مطمئن
ينتقى الجوهر من معـــدنه عقدياقـــــوت وماس ولجين
لا أبالى جددوا أم قـلدوا إنما أدعو إلى شعر ، وفن !
طوقت جيـــدى من الله يد وعلى ضعفى ، وعجزى .. كرمتنى
يالها من رفقـــــة صالحة فى نوادى الشعر (بالشيخ) دعتني
لقب خوطبت بالأمس به ماالذى يعنيه إلا ذكر سنى !
رب من تصغر عن ســنه وهو فى أشعاره .. أكبر منى !
هـــذه الدار التى نحن بها دار أفذاذ من الكتاب لسن
قادة الرأى ، سلاف كأسهم لو يشح الغيث كانوا صوب مزن
بلغوا فى الشعر والنثر المدى قصة العقاد ، أو طه حسين

الصحافيون لحمـــــاً ودماً　　يلعقى فرسانهم خدناً لخدن

أطلعوا فى كل أفق كوكباً　　خاطف اللمحة يفرى كل ذهن

هم ضمير الشعب مهما اختلفوا　　آثروا الحق ، فحلوا دار أمن

من يمين أو يســار . . ضجة　　تتعالى . بين شيعى ، وسنى

بيد أن الحق لا ترهبـــــه　　نار شارون ، ولاسيف الجهنى !

وطنى مصر . . فداها مهجتى　　هى ماعشت ملاذى ، وهى حصنى

فى غمار الهول . . غنيت لها　　والحمى يصلى بنار الثورتين

وسأشـــــدو ماتبقى رمق　　بأغانى النصر ، فى خير و يمن

جددت مصر بحسنى مجدها　　بارك الله لمصر . وللحسني !

وهى قصيدة تحمل كل خصائص شاعرية البحيرى وفنه وشعره . .

الشاعر مصطفى عبد الرحمن

وديوانه أغنيات قلب

هـــذا الديوان « أغنيات قلب » هو خامس ديوان للشاعر المصرى المعروف مصطفى عبـد الرحمن ، الذى عرف بأنه « شاعر الأغنيـة المصرية » . وقد صدر للشاعر من قبل دواوين أربعة لحن الخلود (١٩٣٣)- ليالى الشاطىء (١٩٣٦) - من أغانى الحياة (١٩٣٩) - ربيع (١٩٥٥) ، وقد أسهم الشاعر فى الحركة الشعرية المعاصرة منذ زمن طويل ، وأخلص لفنه ولقضية الموسيقى فى الشعر إخلاصا شديداً .

ومصطفى عبد الرحمن من شعراء مدرسة الرقة العاطفية ، هذه المدرسة التى كانت غالبة على الأدباء والشعراء فى النصف الأول من القرن العشرين ، ومنهم : المنفلوطى (١٨٧٦ - ١٩٢٤) ، وإسماعيل صبرى (-١٩٢٣) ، وإبراهيم ناجى (١٨٩٦ - ١٩٥٣) ، وصالح جودت (١٩١٢ - ١٩٧٦) ، والشاعر مصطفى عبد الرحمن الذى يتميز بصـــدق التعبير عن تلك الرقة العاطفية ، كما يتميز شعر تلك المدرسة عموماً بالتجديد والانطلاق والتحرر، مع الأصالة وسلامة البنية اللغوية والفنية فى القصيدة، ومع التألق فى الموسيقى، والحرقة فى الحب الصادق الدائم الشجن .

وديوانه «أغنيات قلب» يشتمل على ست وستين قصيدة من الشعر العاطفى والوطنى والقومى ، وهى من عيون الشعر الرومانسى الجميل الحالم : وتتميز بأصالة الشاعرية وعمق التجربة وصدقها ، وجمال الموسيقى وحلاوتها ، وبالوحدة العضوية الكاملة .

وتدور قصائد الديوان فى مجموعها حول الحب الرومانسى فى عذرية

رقيقة هامسة ، وحول تصوير عظمة الوطن وبطولة الشعب وتضحياته من أجل الحرية ، وأناشيد المجد التي تتغنى بها الأمة العربية فى نضالها الدائم ضد الاستعمار ، وفى زحفها إلى الحرية والتقدم والحضارة .

ويشيع فى قصائد الديوان روح الغناء ، فالكثير منها قد نظم ليغنى ، والشاعر يقدم الموسيقى على الصورة ، وألفاظه وجمله ذات رنين موسيقى أخاذ . وهو من هذا الجانب يكاد يكون صورة للشعراء العرب العذريين والصوفيين ، وامتداداً لطبيعة الشعر العربى الذى خلق للغناء .

ومن أجمل قصائد الديوان القصيدة الرابعة عشرة « يا قطعة السكر »

يا قطعة السكر يا مسك يا عنبر
يا بسمة الدنيا يا عيدها الأكبر
من السنا أبهى من المنى أنضر
يا خير من سوى ربى ومن صور

وهى من الأوزان الجديدة « مستفعلن فعلن — مرتين » ، ومثلها قصيدته السابعة والثلاثون « ضفاف النور » :

يا شاطىء الأحلام فى نورك السحرى
مرت بنا الأوهام مرت بنا تجرى

والوزن هنا فى الشطر الأول والثالث « مستفعلن فعلان » وفى الثانى والرابع « مستفعلن فعلن » .

ومن القصائد الجديدة فى موسيقاها الشعرية قصيدته الخامسة عشرة « افرحى يا عيون » ، والتى يقول فيها :

كل ما حولنا من جمال لنا

فشـــاع الـدنـــا   با لهـوى مسنــا
فاسقنـا واسقنـا   من رحيــق المنى
وجمـــال الـدنى   وليـــالى الهنـا

* * *

نام عنـا الزمـــان   فعشقنـــا السهـر
وسقـــانا الحنـــان   فى كؤوس الزهـر
وأخـــذنا الأمـــان   من عيـون القدر

ولو قال « من صروف القدر » لكان أولى ولكن العيون عنده هى المصرفة لكل شىء . ووزن الفقرة الأولى من القصيدة « فاعلاتن فعل مرتين » ، والفقرة الثانية منها وزنها « فاعلاتن فعول فاعلاتن فعل » — وتستمر القصيدة على هذا المنوال . . ومثلها فى الوزن الشعرى القصيدة الثانية والعشرون « فى ظلال النخيل » .

وهذا الوزن جديد ، وقد نظم منه بعض المعاصرين ، ومنهم : الشابى فى قصيدته « الصباح الجديد » ، التى مطلعها :

اسكنى يا جراح   اسكنى يا شجون

ومنها : الـــوداع الوداع   يا جبال الهمـــوم

وكذلك فعل الشاعر إبراهيم ناجى فى قصيدة « عاصفة روح » :

أين شط الرجاء ؟   يا عباب الهمـــوم
ليـــلتى أنـــواء   ونهارى غيـــوم

و « فعول » فى آخر الشطر الأول قد استحالت إلى « مفعول » فى آخر الشطر الثالث. ويرى الشاعر الدكتور أحمد زكى أبو شادى (١٨٩٢ـ

١٩٥٥) أن الشاعرين : إبراهيم ناجى وأبا القاسم الشابى قد اقتبسا هـذا الوزن من قصيدته « بعد الصيف » ومطلعها :

اضحكى يا رمـــال   من هدير الميـــاه

ومن قصيدته الأخرى « الوداع » ، التى يقول فى مطلعها :

انتهب يا شعـــاع   نبض قلب الحـــزين

وكان الشابى وناجى من شعراء مدرسة ابولو ، كما كانا معجبين بقصيدتى أبى شادى ، وبجدة وزنها . وقد نظم ميشيل عفلق قصيدة عنوانها « عاصفة » على هذه الموسيقى الشعرية ، وتجاوب فيها مع روح أبى شادى و ناجى والشابى وموسيقاهم وخيالهم الشعرى ، ومنها :

اعصفى يا ريـــاح   واهـــزئى يا سماء

من يكن ذا جناح   هل يهاب الفضاء ؟

ومن القصائد التى نظمت على هذه الموسيقى الشعرية أيضاً قصيدة ميخائيل نعيمة « الطمأنينة » ، وهى إحـــدى قصائد ديوان « همس الجفون » ، ومطلعها :

سقف بيتى حـــديد   ركن بيتى حجـــر

فاعصفى يا ريـــاح   وانتحب يا شجـــر

ولأمجد الطرابلسى من هذه الموسيقى قصيدة عنوانها « احترق ، احترق » .

ويتميز هذا الديوان بموسيقيته العالية ، ومن صورها قصيدته الثالثة والعشرون « إليها » :

إلى القلب الذى طاف   مع الفجـــر وحيانى

وألهمنى أغاريـــدى   وفجر نبع أشجانى .

ونضر عش أحلامى بظل منه فينــان

ولحن من أغانيــه رقيق ســاحر حانى

وهى من مجزوء « الوافر » .

وتبلغ القصائد العاطفية فى الديوان نحو الخمسين قصيدة ، تمثل أروع صور الشعـــر وموسيقاه الجميلة ، وتكاد تبعث لنا الشاعر العاطفى الخالد إبراهيم ناجى من جديد .

ومن قصائد الديوان الروحية قصيدته « إلى الكعبة » وهى القصيدة الخمسون . ومن القصائد الوطنية قصيدته « مصر » ، ومن القصائد القومية قصيدته السابعة والخمسون « أخى فى الجنوب » ، وقصيدته الثانية والخمسون « أمة الأمجاد » التى أمر الرئيس السودانى بأن تكون النشيد القومى للسودان الشقيق ، وفيها يقول الشاعر مصطفى عبد الرحمن :

أمتى يا أمــة الأمجــاد والماضى العــريق

يا نشيداً فى دمى يحيــا ويجرى فى عروق

أذن الفجــر الذى شق الدياجى بالشروق

وطريق النصر قد لاح فسـيرى فى الطريق

وبعد ، فهذا الديوان ، كما تتميز قصائده بالغناء والموسيقى ، تعبر عن أحلام الجيل المعاصر ، بروح مصرية أصيلة ، تتدثر بحضارة فكرية عريقة، وثقافة إنسانية واسعة ، هذه الثقافة التى نجد صداها فى مؤلفات الشاعر : القبلة — أناشيد لها تاريخ — أغنية الكفاح — فنون — رمضان — حق المؤلف — الربيع فى الأدب والفن والحياة — وطنى .

وكل تلك الخصائص والسمات الغالبة على الديوان ، مما يعلى من قدره ، ويرفع من منزلة الشاعر فى النهضة الشعرية المعاصرة ..

مدرسة شعــــراء المهجر

مدرسة شعراء المهجر

— ١ —

« مدرسة شعراء المهجر » إحدى المدارس الشعرية فى حركة الشعر فى العصر الحديث ، وهى مدرسة لها سماتها وخصائصها المميزة ، ولها مذهبها فى فهم الشعر وخطوات التجديد فيه ، وقد سبقتها فى الظهور مدرسة البارودى وشوقى وحافظ والزهاوى والرصافى ، ثم ظهرت مدرسة شعراء الديوان : شكرى والعقاد والمازنى ، التى حملت راية التجديد ودعت إليه بقوة وحرارة ، كما دعا إليه من قبل مطران فى هدوء وسلام ، وجاء كتاب الديوان (١٩٢١م) ثورة عاصفة على مدرسة المحافظين فى الشعر وفى الأدب ، من مثل شوقى وحافظ والمنفلوطى ، ومن حيث كان المذهب الكلاسيكى الاتباعى هو السائد عند المحافظين (أو ما نسميهم شعراء البعث) ، كان المذهب الرومانسى الابتداعى هو السائد فى شعر شعراء مدرسة الديوان ، ومنذ ذلك الحين اشتهرت مدرسة شعراء المهجر ، وذاع شعرها ، وصيت شعرائها ، فى كل مكان ، وكان بدؤها فى أوائل العقد الثانى من القرن العشرين ، ولكن صوتها آنذاك كان خافتاً ضئيلا لا يحس به أحد ، ومنذ أوائل العقد الثالث طارت شهرتها ، وذاع صيتها فى أنحاء العالم الجديد ، وفى كل مكان من الوطن العربى الكبير ، وخاصة بعد قيام الرابطة القلمية فى نيويورك فى إبريل / نيسان عام ١٩٢٠م . وصدر « الغربال » لميخائيل نعيمة أحد أعمدة الرابطة القلمية عام ١٩٢٣ م ، وكتب العقاد مقدمته ، منوهاً فيها بالكتاب ومؤلفه وبالرابطة القلمية ودعوتها التجديدية فى الشعر العربى الحديث ، التى تتلاقى مع دعوة مدرسة شعراء الديوان إلى حد كبير ، وفى مقدمة العقاد للغربال يقول : «لو لم يكتب قلم النعيمى هذه الآراء ، لوجب أن أكتبها أنا » ، وهو تأييد كبير لخطى التجديد المشتركة بين مدرستى الديوان والمهجر .

وتلا هذه المدرسة ، وبعد فترة قصيرة ، مدرسة شعراء أبولو التى قامت فى سبتمبر / أيلول عام ١٩٣٢ م ، حيث أعلن الدكتور أبو شادى قيامها ، وظهور مجلتها المشهورة ، « مجلة أبولو » .

وهكذا شهد الثلث الأول من القرن العشرين قيام مدارس أدبية عديدة ، لكل مدرسة اتجاهها وخصائصها ، وكانت مدرسة شعراء المهجر من المدارس البارزة بين هذه المدارس المختلفة .

ويرجع قيام هذه المدرسة الشعرية المهجرية إلى هجرة أفواج كبيرة من أبناء البلاد العربية ، وبخاصة من سورية ولبنان ، إلى العالم الجديد ، فى أواخر القرن التاسع عشر ، وفى القرن العشرين ، حيث نزلوا فى كندا والولايات المتحدة وفى دول أميريكا الجنوبية ، وبخاصة . البرازيل والأرجنتين وشيلى وفنزويلا والمكسيك : ونقلوا اللغة العربية والأدب العربى إلى تلك المهاجر البعيدة ، وكان من بين المهاجرين أدباء وشعراء ، فأنشأ المهاجرون فى تلك الديار النائية أدباً ، يعبرون به عن مشاعرهم ، وكتبوا شعراً يصورون فيه عواطفهم ومختلف أحاسيسهم وتجاربهم ويتحدثون فيه عن غربتهم وحنينهم إلى الوطن ، ويصفون فيه حياتهم وما تعرضوا له من عناء وشقاء وتجارب مريرة مثيرة ، وكان أدبهم هذا هو أدب مدرسة المهجر ، وشعرهم هو الشعر المهجرى الذى أصبح مدرسة شعرية من مدارس الشعر الجديث ، وعنى به الأدباء والنقاد عناية كبيرة . وقد ولد هذا الأدب والشعر مع القرن العشرين ، ثم نشأ ونما وترعرع وازدهر ، حتى بلغ ما بلغ فى الثلاثينات وما بعدها .

وتشبه هجرة الشعر العربى إلى أمريكا الشمالية والجنوبية . هجرة الشعر كذلك إلى بلاد الأندلس . فى أوائل القرن الثانى الهجرى (أوائل السابع الميلادى) ، فالشعر المهجرى صنو الشعر الأندلسى ، كلاهما عاش فى بيئة

جديدة ، وأحدث أثراً كبيراً ودوياً ضخماً فى الشعر العربى كله ، وكان مدرسة تجديدية كبرى عملت شتى مقومات الشعر وعناصره وأصوله ، وإن اختلفت الهجرتان : فالهجرة إلى الأندلس كانت فى ظلال دولة عربية قوية قامت هناك ، والهجرة إلى العالم الجديد كانت فى ظلال حياة المهاجرين الغرباء الضعفاء الذين لا يملكون شيئا من أمور المجتمع الذى يعيشون فيه فى أرض العالم الجديد ، وإن كانت قيمة الشعر المهجرى تكاد تعادل قيمة الشعر الأندلسى : ثراء وشمولا وتجديداً .

ومن أوائل الشعراء الذين هاجروا إلى أمريكا الشاعر ندرة حداد (١٨٨١ — ١٩٥٠ م) وقد وصل إلى نيويورك عام ١٨٨٧ م ، وكان من أعلام شعراء الرابطة القلمية فيما بعد ، وكان يعد عميد شعراء العربية فى أمريكا[1] .

وتبعه رشيد أيوب الذى هاجر إلى نيويورك عام ١٨٩٨ م ، ويكثر فى شعره من شكوى الزمان ، حتى لقد لقب « شاعر الدموع » ، و « الشاعر الباكى » ، وديوانه « أغانى الدرويش » مشهور ، ولقب بالدرويش بديوانه .

ثم هاجر نسيب عريضة عام ١٩٠٥ م إلى نيويورك وتوفى فيها عام ١٩٤٦ ، وديوانه « الأرواح الحائرة » معروف ، وقد أصدر عام ١٩١٣ م فى نيويورك مجلته « الفنون » .

---

(١) يمتاز شعره بنزعة إنسانية ، وتعددت موضوعاته : فنظم فى الاجتماعات والاخوانيات والوجدانيات والطبيعة والتأملات ، وله شعر قصصى . ومن أجمل شعره التأملى قصيدته : الله ، ومن شعره الانسانى قصيدتاه : سر معى ، أنا إن مت ، ومن شعره الاجتماعى « طابع البريد » .

وتوالت هجرة الشعراء والأدباء إلى المهجر الأمريكي ، وفيه عاش أمين الريحاني (١٨٧٦ — ١٩٤٠م) الذي عرف بصلاته الوثيقة بجلالة المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود رحمه الله ، وكتابه « ملوك العرب » وكتابه الآخر « تاريخ نجد وملحقاته » مشهوران ، وقد شهر بأسلوبه . وهذا الإبداع في الكتابة ، وتحرى الحقائق فيه ، مما لا يستغرب من الأستاذ الريحاني الذي ينظر إلى الأمور بروحه وعقله وقلبه[١] .

وكذلك جبران خليل جبران (١٨٨٣ — إبريل نيسان ١٩٣١ م) الذي صار عميد الرابطة القلمية في نيويورك ، ثم عبد المسيح حداد شقيق ندرة حداد (١٨٩٠ — ١٩٦٣م) ، الذي هاجر إلى نيويورك عام ١٩٠٧م ، وأنشأ فيها جريدة السائح عام ١٩١٢ ، واستمر صدورها حتى أغلقت عام ١٩٥٩ ، وكان من أوائل من فكروا في إنشاء الرابطة القلمية ١٩٢٠ م ، في نيويورك . . ثم ميخائيل نعيمة (١٨٨٩ م — ٠٠٠) مستشار الرابطة القلمية ، وصاحب ديوان « همس الجفون » . ثم أبو ماضي (١٨٩٠ —١٩٥٧ م) ، ثم نعمة الله الحاج (١٨٨٩ م ، وهاجر إلى أرض المهجر عام ١٩٠٤ م) وقد قدم إيليا أبو ماضي ديوانه الأول .

ومن الشعراء الذي هاجرو إلى المكسيك محبوب الخوري الشرتوني (١٨٨٥ - ١٩٣١ م)[٢] .

---

(١) كما يقول عبد العزيز آل سعود من رسالة له ، وصدرت هذه الرسالة من نجد عام ١٩٢٨ م (راجع مقدمات كتاب تاريخ نجد وملحقاته) لأمين الريحاني — الصادر عن مؤسسة دار الريحاني ببيروت .

(٢) راجع في ترجمته ص ٦٨٦ — ٦٨٩ من كتاب أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأميريكية للشاعر صيدح — طبعة ثالثة — بيروت .

ومن المهجريين فى البرازيل الشاعر القروى رشيد سليم الخورى الذى يعيش اليوم فى لبنان ، وهو من مواليد عام ١٨٨٧ م ، وهاجر إلى البرازيل عام ١٩١٣ م ، وعاد عام ١٩٥٩ م من المهجر ، وأقام فى قرية « بربارا » فى لبنان . . وكذلك قيصر سليم الخورى شقيق الشاعر القروى (١٨٩١ م) ، وشكر الله الجر الذى هاجر عام ١٩١٩ م ثم عاد عام ١٩٦٢ م إلى وطنه لبنان، وأخوه فضل الله الجر (١٨٨٥-١٩٤٥م)، وإلياس فرحات (١٨٩٣-١٩٧٧م) وقد هاجر إلى البرازيل عام ١٩١٠ م ، وأقام فى سان باولو ، وكذلك شفيق المعلوف ، ورياض المعلوف ، وجميل المعلوف ، وفوزى المعلوف ، وسواهم.

ومن الشعراء المهجريين فى الأرجنتين جورج صيدح (توفى فى ١٠ أكتوبر / تشرين الأول ١٩٧٨ م) ، وزكى قنصل ، وإلياس قنصل ، وسواهم . ومن أعلام الأدباء والشعراء فى كندا محمد مسعود[1] .

— ٢ —

وقد أنشأ شعراء المهجر الشمالى فى نيويورك رابطة أدبية لهم باسم «الرابطة القلمية » ، وذلك فى ٢٠ من أبريل / نيسان ١٩٢٠ م ، وكان الذى حمل عبء الدعوة إلى تأسيسها هو عبد المسيح حداد (١٨٩٠-١٩٦٣م) ،مؤلف كتاب حكايات المهجر» . . . وكان من الداعين كذلك إليها جبران ، وكان من أعلامها: ميخائيل نعيمة، ونسيب عريضة، ونعمة الحاج ، وإيليا أبو ماضى ، ورشيد أيوب ، وندرة حداد ، ونعمة أيوب ، وسواهم .

وتولى جبران رياسة الرابطة القلمية ، وكان ميخائيل نعيمة مستشارها، وسجل نعيمة فى صدر قانون الرابطة أن « هذه الروح الجديدة التي ترى الخروج بآدابنا من دور الجمود والتقليد إلى دور الابتكار فى جميل الأساليب

---

(١) المرجع السابق ٧١٢ - ٧١٤

والمعانى حرية فى نظرنا بكل تنشيط ومؤازرة ، فهى أمل اليوم ، وركن الغد » .

وأصدرت الرابطة مجموعة أدبية دورية باسمها ، أسهم فى تحريرها رشيد إيوب[1] ، وقد طبعت مجموعة الرابطة القلمية فى نيويورك ، ثم فى بيروت .

وقد وحدت الرابطة مسعى أدباء المهجر الشمالى وشعرائه فى سبيل اللغة العربية وآدابها[2] ، والأدب عندهم يستمد غذاءه من تربة الحياة ونورها وهوائها ، والأديب هو الذى خص برقة الحس ، ودقة الفكر ، وبمقدرة البيان عما تحدثه الحياة فى نفسه من التأثير[3] .

وبعد قيام الرابطة صارت جريدة السائح لسانها الناطق، وصدرت أعداد ممتازة منها عن الحركة الأدبية فى المهجر، وعن الرابطة ونشاط أعضائها ويمثل كتاب «الغربال» لميخائيل نعيمة ، الذى ظهر عام ١٩٢٣ م ، وقدم له العقاد ، أفكار الربطة تمام التمثيل ، من الدعوة إلى التجديد ، وتوجيه النقد إلى مقاييس نقدية جديدة ، منبعثة من حاجات نفسية ثابتة ، أجملها نعيمة فيما يلى :

١ — حاجتنا إلى الإفصاح عن كل ما ينتابنا من العوامل النفسية ، من رجاء ويأس ، وفــوز وفشل ، وحب وكره ، ولذة وألم ، وفرح وحزن ، وطمأنينة وخوف .

٢ — حاجتنا إلى نور نهتدى به فى الحياة ، وليس من نور نهتدى به غير الحقيقة .

---

(٥) ص ٢٤١ شعر من المهجر — محمد قرة على .

(٦) ٤٨ الشعر العربى فى المهجر — محمد عبد الغنى حسن .

(٣) ٤٨ المرجع نفسه نقلا عن كتاب «جبران خليل جبران» لميخائيل نعيمة .

٣ — حاجتنا إلى الجميل فى كل شئ .

٤ — حاجتنا إلى الموسيقى .

وقد وجه جبران الرابطة وشعراءها نحو الرومانسية المجنحة ، وامتد تأثيره إلى الشرق العربى ، بشعره الموزون ، وبشعره المنثور ، وبالشعر المهموس أو شعر المناجاة الذى أوجده فى شعرنا الحديث كما يقولون ، وإن كان الشعر الصوفى هو الذى سبق به . . . وعيب جبران فى ثورته على القواعد والتقاليد اللغوية ، وكان يقول للمحافظين على اللغة : « لكم منها ماقاله سيبويه وأبو الأسود الدولى وابن عقيل ، ومن جاء قبلهم وبعدهم ، ولى منها ما تقوله الأم لطفلها ، والمتيم لسكينة ليله[1] » .

ومثلت الرابطة نزعات التجديد فى الأدب والشعر ، ومن ثم كانت مثاراً لحركة نقد شديدة فى كل مكان ، حتى من كثير من المهجريين ، وخاصة من شعراء العصبة الأندلسية فى المهجر الجنوبى[2] . وكانت الرابطة أقرب إلى الرومانسية شكلا ، ولكن طول التأمل وعمق التجربة رفع أدبها وشعرها إلى مستوى عال يطل منه على مستويات العلم والفكر العالمى ، وقال نعيمة فى مقدمة دستور الرابطة : « ليس كل ما سطر بمداد على قرطاس أدباً ، ولا كل من حرر مقالا أو نظم قصيدة موزونة بالأديب ، فالأدب هو الذى يستمد غذاءه من تربة الحياة ونورها وهوائها .. الخ » .

ويقول صيدح : فى شعر الرابطيين على العموم معان حنون ، لم تلد المحبة الإنسانية أرق منها .

---

(١) ٥٣ بلاغة العرب فى القرن العشرين — لمحيى رضا .

(٢) راجع ٥٨ — ٦٩ أدب المغتربين — إلياس قنصل - دمشق ١٩٦٣ م ، والرابطة القلمية لنادرة سراج .

- ٣ -

وكذلك أنشأ قيصر المعلوف فى البرازيل فى أوائل القرن العشرين ندوة أدبية سماها رواق المعرى .

وفى سان باولو فى البرازيل من أرض المهجر الأميريكى الجنوبى أسس الشاعر المهجرى ميشال معلوف جمعية أدبية جديدة سماها «العصبة الأندلسية»، وتولى رياستها ، وكان قيامها فى كانون الثانى / يناير عام ١٩٣٢ م(١) ، ثم خلفه الشاعر القروى، ثم رأسها من بعده شفيق معلوف ابن أخت ميشال(٢)، وهو صاحب ديوان « لكل زهرة عبير » ، و « ملحمة عبقر » ، و « نداء المجاديف» ، و «الأحلام» وهى قصة خيالية اجتماعية ، ومن أسرتهم الشاعر

---

(١) ذكر محمد قرة على فى كتابه أن قيامها كان عام ١٩٢٣ م (١٨٥ شعر من المهجر) ، ويبدو أن الرقم خطأ مطبعى ، وأنه مقلوب ٣٢ ، وذكر الأستاذ محمد عبد الغنى حسن فى ص ٥٠ من كتابه « الشعر العربى فى المهجر » أن قيامها عام ١٩٣٥ م ، وذكر جورج حسون المعلوف أن مجلة العصبة ظهرت عام ١٩٣٥ م (مجلة العصبة عدد كانون الأول / ديسمبر ١٩٥٣ م) ، ومن هنا كان اللبس فى جعل قيام الجماعة نفسها عام ١٩٣٥ م ، وذكر جورج صيدح أن العصبة أسست عام ١٩٣٢ م ، وأن مجلتها ظهرت فى العام التالى أى عام ١٩٣٣م ، وذكر الدكتور عيسى الناعورى أنها أسست فى كانون الثانى / يناير عام ١٩٣٣ م ، وذكر إلياس قنصل فى كتابه أدب المغتربين (ص ٣٨ وما بعدها) أن العصبة ظهرت عام ١٩٣٣ م ، واتخذت مجلة الأندلس الجديدة لشكر الله الجر لساناً لها ، وفى عام ١٩٣٤ م ظهرت مجلة العصبة التى استمرت عشرين عاماً ، وكذلك ذكر توفيق ضعون فى كتابه ذكرى الهجرة (ص ١٩٣ — ١٩٦) أنها قامت عام ١٩٣٢ م ، وذكر الشاعر المهجرى رياض معلوف فى مجلته التى كانت تصدر بباريس أن قيام العصبة عام ١٩٣٣ م ، والتاريخ الصحيح هو ما ذكرناه .

(٢) مجلة العصبة عدد كانون الأول / ديسمبر ٨,٧ عام ١٩٥٣ م .

فوزى المعلوف (١٨٩٩ — ٧ يناير / كانون الثانى ١٩٣١ م) صاحب ملحمة « بساط الريح » التى قدم لها الشاعر الإسبانى « فيجا سباسا » ، وكذلك رياض المعلوف ، وجورج حسون المعلوف ، الذى قدم بعض دواوين إلياس فرحات وقد مات عام ١٩٦٥ م .

وقد اتسمت حركة العصبة الأندلسية الأدبية بالهدوء والاتزان ، ويشير اسم « العصبة الأندلسية » إلى مدى تأثر المهجريين بالأدب والشعر الأندلسى ، وبخاصة الروح الغنائى والموسيقى والعذوبة الفنية فى الموشحات ، التى بلغت نهاية الترف والجمال ، وقد تولى رياسة تحرير مجلة العصبة الأديب المهجرى حبيب مسعود ، الذى كان يلقب بابن مقلة العصر ، وكان أحد أركانها الشاعر القروى ، وفى عام ١٩٤٢م حظر فى البرازيل صدور صحف بغير اللغة البرازيلية فتوقفت « العصبة » ، ثم عادت عام ١٩٤٧ م للصدور ، وظلت تصدر حتى عام ١٩٥٣ م ، وبعد توقفها عمل رئيس تحريرها حبيب مسعود رئيس تحرير لجريدة « المراحل » التى كانت تصدر فى سان باولو فى البرازيل .

ويقول شفيق المعلوف يخاطب إخوانه فى « العصبة الأندلسية » من قصيدته « الخرساء » :

لك الله فى أصقاع (كولمب) عصبة ... تناضل عن حوض البيان المهدد
لنا اللغة المثلى متى انهار سورها ... بصرح دعمناه بصرح ممرد

وفى قصيدته التى أهداها إلى إخوانه فى « الرابطة القلمية » يقول :

أناشيدنا تلك التى تكبرونها ... بدأتم بها أنتم بأروع مطلع
وإن لواء نحن قمنا نهزه ... خفوقاً على حصن البيان الممتع
لواء ظفرتم أنتم باكتسابه ... ونحن ركزناه بأرفع موضع

وقد فسر حبيب مسعود معنى تسمية جماعتهم هـذه بالعصبة الأندلسية فقال : « إنه التيمن بالتراث الغالى الذى تركه العرب فى الأندلس ، والإشارة إلى الابتعاد عن التطرف الذى اتسمت به « الرابطة القلمية » [1] .

وقد حدد الأعضاء مبادىء العصبة بتعزيز الأدب العربى ، وتآخى الأدباء ورفع مستوى اللغة العربية ، ومكافحة التعصب[2] ، وكان نظير زيتون ، أمين سر العصبة .

وكتب شفيق معلوف معرفاً بالعصبة وغاياتها فقال : « إن أركانها أجمعوا على النضال فى سبيل الأدب من حيث هو فن وجمال ، دون ما نظر إلى إطار أو مصدر ، فلا اعتراف من معين ينبوع منشود ، ولا تمسك بفرع من فروع الشعر محدد ، ومن أميز ما اتسم به أدب العصبة وشعر شعرائها أنهم ترسموا أساليب الفصحى ، وتقيدوا بأحكامها ، ما وجدوا إلى ذلك سبيلا ، كما أنهم جالوا فى مضمار التجديد صامدين بأدبهم دون فوضى التجديد » ، وفى عدد مجلة العرفان الصادر عام ١٩٦٤ م ص ١١٢٣ يذكر حبيب مسعود نقلا عن كتاب «المغتربون» لعبد اللطيف اليونس من المهجريين فى الأرجنتين ظروف قيام العصبة بالتفصيل[3] ، وكان من أعضائها آل معلوف . والشاعر القروى ، وحبيب مسعود ، ونظير زيتون ، والشاعر القروى ، وشقيقه قيصر الملقب بالشاعر المدنى ، وإلياس فرحات ، وسواهم .

---

(١) ٣٨٢ أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الامير يكية .

(٢) ٣٨٤ المرجع السابق .

(٣) ومن أوفى ما كتب عن قيام العصبة الأندلسية مقال بقلم عمر الدقاق نشر فى مجلة المعرفة السورية (عدد أكتوبر / تشرين الأول ١٩٦٨ م) ، وكذلك كتب العقاد عن العصبة فى مجلة قافلة الزيت مقالا نشر فيها عام ١٩٦٤ م.

وفى مجال الموازنة بين أدباء العصبة وأدباء الرابطة نجد أدباء العصبة ، أكثر تمسكا بالديباجة المصقولة ، والعبارة الجيلة والجرس القوى ، أما أدباء الشمال ، أدباء الرابطة فلم يظهروا اهتمامهم باللغة .

— ٤ —

ولما هاجر الدكتور أبوشادى إلى نيويورك فى أبريل/نيسان عام ١٩٤٦م ، واستقر به المقام فيها أنشأ عام ١٩٤٨ م ، رابطة أدبية سماها « رابطة منيرفا » كما قامت عام ١٩٤٩ م فى عاصمة الأرجنتين رابطة باسم « الرابطة الأدبية » ولكنها اختفت بعد عامين ، وكان الذى أنشأها هو الشاعر المهجرى جورج صيدح . وفى سان باولو فى البرازيل قامت أيضاً « جامعة القلم » .

— ٥ —

ولقد تأثر الشعراء المهجريون بالآداب العربية القديمة والحديثة ، وبمختلف المدارس الشعرية الجديدة ، خاصة مدرسة شعراء الديوان ، والعقاد هو الذى قدم كتاب « الغربال » لميخائيل نعيمة إلى القراء ، وفى هذا التقديم ثناء من العقاد على أدباء المهجر وشعرائه الذين فكوا عن القرائح قيود التقليد .

وكذلك تأثر المهجريون بشعراء « مدرسة أبولو » ، وأثروا فيها أيضاً ، وكذلك بشعراء مدرسة البعث ، وفى مقدمتهم شوقى وحافظ ومحرم والزهاوى والرصافى ، وكان للمتنبى والمعرى والخيام أثر كبير فى شاعريتهم وفى شعرهم ، وقد نزع بعض المهجريين إلى تقليد قصائد الشعراء القدامى والمحدثين ومعارضتها ، كما فعل رشيد أيوب فى معارضته لدالية الحصرى « ياليل الصب » ، وكما فعل وديع عقل فى معارضته لقصيدة على بن زريق البغدادى :

لاتعذليه فإن العذل يولعه   قد قلت حقاً ولكن ليس يسمعه

وكما فعل محبوب الشرتونى فى قصيدته فى وصف الحمى التى عارض بها قصيدة المتنبى المشهورة :

ملامكما يجل عن الملام   ووقع فعاله فوق الكلام

ويقول فوزى المعلوف :

خل البـــداوة رمحها وحسامها والجاهلية نوقها وخيامها

ويعارضه إلياس فرحات بقصيدة[1] يقول منها :

خل البـــداوة نوقها وخيامها والجاهلية رمحها وحسامها
حييك أشبـــاح القديم وسلمت فمن العـدالة أن ترد سلامها

وللمهجريين الشماليين من سعة الأفق ، وشدة الانطلاق نحو التجديد ، ما لم يعرف لسواهم من المهجريين ، من حيث جنح شعراء المهجر الجنوبى إلى المحافظـة على عمود الشعر والبلاغة العربية ، وأكثرهم موزعون بين البرازيل والأرجنتين .

وجال شعراء الشمال فى كل فن ، وقالوا فى كل غرض ، وفاض شعرهم بمختلف النزعات الـكلاسيكية والرومانسية والرمزية والسريالية والواقعية وغيرها ، وظهر التحرر التعبيرى فى شعر نسيب عريضة وميخائيل نعيمة وجبران أكثر مما ظهر فى شعر غيرهم ، وصار شعراء الرابطة القلمية أكثر حرية فى اللغة ، وتجديداً فى الألفاظ والأساليب . . من حيث وقف شعراء المهجر الجنوبى عند حدود المحافظة على اللغة والأسلوب .

وكان تجديد المهجريين فى الأوزان الشعرية واضحاً ، فقـد كتبوا الشعر على طريقة الشعر المنثور ، أو النثر الشعرى ، واستهوتهم الموشحات الأندلسية بجمالها ، فنظموا على منوالها الـكثير من قصائدهم ، لـكثرة أوزانها ، وللحرية الـكبيرة فى تخير قوافيها . وكان جبران يقول : إن تعدد الأصوات يزيد فى وقـع القصيدة ومداها ، ويسترعى انتباه القارىء أكثر من الصوت

---

(١) ص ٢٥٥ ديوان فرحات - سان باولو بالبرازيل عام ١٩٣٢م

الواحد[١] . . وقد أكثر المهجريون من الأوزان القصيرة ، والبحور المجزوءة ويدافع مندور عن ألفاظ المهجريين وتراكيبهم ، ويرى أنها ليس لها مثيل فى الشعر الحديث[٢] ، ويذكر أن تمنع الشعر المهجرى على لغة الشعر التقليدية ، وركونه إلى التعبير المباشر القوى ، هما من حسناته ، لأن ذلك هو الطريق الوحيد الذى كان لابد للشعر المهجرى أن يسلكه لكى يفلت من الصنعة إلى الصدق ، ولكى يعود إلى الحياة[٣] .

ويجعل الدكتور عيسى الناعورى[٤] حركة التجديد فى الشعر المهجرى امتداداً للانطلاقة الأندلسية الشعرية ، التى ظهرت فى موشحات الأندلسيين ، وتمثل هذه الحركة فى رأيه مرحلة العمق والبساطة فى الشعر العربى وجعل الشعر فناً يعبر عن خلجات النفس ونوازع الحياة ، دون افتعال أو زخرفة لفظية . وقد ساعد على إيجاد هذه الحركة الجو الجديد الذى عاش فيه شعراء المهجر ، والآداب الغربية التى اتصلوا بها وبأصحابها ، والحرية الواسعة التى امتلأت بها نفوسهم . وبواسطة إطلاعهم على الشعر العالمى فى مختلف اللغات استطاعوا أن يجمعوا بين قوة المعانى وصدق التعبير ، وبراعة الصور وبساطة الصياغة ، وموسيقتها ، وإلى جانب الشعر الكلاسيكى المحافظ الذى أغنوه بجمال المعانى الجديدة ، جاءوا بشعر جديد آخر جميل ، غنى بالموسيقى

---

(١) ١٦٠ جبران خليل جبران لميخائيل نعيمة - ومن الموشحات المهجرية قصيدة « يا نفس » لجبران :

(٢) ٥٧ ، ٥٨ فى الميزان الجديد — مندور — طبعة ثانية .

(٣) ص ١٦٩ المرجع نفسه .

(٤) ٣٢٧ أدب المهجر — عيسى الناعورى — طبع دار المعارف فى مصر عام ١٩٥٩ م

والألوان والصور الحية البديعة . وقد أشار د . الناعورى إلى صنع شعراء المهجر فى أوزان الشعر وموسيقاه ، وإلى تلاعبهم بالتفعيلات ، وإيثار بعضهم بناء القصيدة على تفعيلة واحدة ، وإلى تنوع القوافى فى قصائدهم ، وإلى أثر هذا فى موسيقى الشعر . ويرى أن صنيعهم هذا حفظ للشعر العربى وموسيقيته الفنية .

ويجعل «صيدح» الموهبة الفطرية هى مفتاح السر فى تفوق أدب المهجر وشعره ، مع الجد والاجتهاد والتأمل العميق .

وقد استلهم المهجريون روح الشرق فى شعرهم استلهاماً عجيباً ، يقول أبو ماضى :

أنا فى نيويورك بالجسم وبالر   وح فى الشرق على تلك الهضاب
أنا فى الغوطة زهر وندى   أنا فى لبنان نجوى وتصابى

ومع مابين الشماليين والجنوبيين من فوارق ، جمعت بينهم الغربة والبيئة الجديدة وقرابة الفكر ، فالتقوا جميعاً على صعيد الإنسانية الفسيحة ، ومثلها العالية ، إخواناً متحابين .

ويقول محمد عبد الغنى حسن إن المهجريين استطاعوا أن يحتفظوا بشخصيتهم العربية التى تعبر عنها لغتهم أصدق تعبير . واستطاعوا أن يبنوا للغة عدنان كياناً قائماً فى المهجر ، على الرغم مما أدخلوه عليها من غرائب الغرب فى الاستعارات والمجازات والتشبيهات والكنايات وغريب الخيال[1] .

ويرى الشاعر الكبير عزيز أباظة[2] أن المهجريين لم يفتحوا آفاقاً جديدة فى الفن عجز عن الصعود إليها إخوانهم فى لبنان .

(١) مقدمة الشعر العربى فى المهجر .
(٢) ص ١٨ المرجع السابق .

وقد يدافع عنهم بعض النقاد عنهم بأنهم - مع افتنانهم فى توليد المعانى الطريفة وإلباسها ثوبا من الأخيلة الجميلة فى المجازات والتشبيهات والاستعارات والكنايات -- قد نظموا القصة الشعرية ، والكثير من الأساطير والخرافات والحكايات الإنسانية التى احتذوا فيها حذو لافونتين وإيسوب . وكثرت فى شعرهم الرحلات الخيالية إلى السماء والعالم الآخر ، كما نجد فى ملحمة « على بساط الريح » لفوزى المعلوف ، وملحمة « عبقر » لشفيق معلوف ، مما تأثروا فيه ولا ريب بالمعرى فى « رسالة الغفران » وبدانتى فى « الكوميديا الإلهية » ، و « شاطئ الأعراف » للهمشرى ، و « ترجمة شيطان » للعقاد و « ثورة فى الجحيم » للزهاوى ، وبالقصص الشعرى الذى أكثر من النظم فيه شوقى وحافظ والرصافى وأبو شبكة ، ومطران وشبلى الملاط ، وخليل شيبوب ، وبشارة الخورى ، وخير الدين الزركلى ، وإبراهيم ناجى ، وعلى محمود طه ، وسواهم .

ومن المعانى الجديدة قول فرحات :

كل من راقب الظــــلام ظن عينيه كوكبين تائهين

ويقول شفيق معلوف فى وصف عين الشيطان :

كأنما محجـــرها كـــوة يطـــل منها الزمن الغابر

ويقول أبو ماضى :

فإذا رأى ذو الغباوة دونــه

فكما يرى فى الماء ظل الكواكب[1]

---

(١) راجع ص ٦١ الشعر العربى فى المهجر .

وأحاط المهجريون كذلك بالكثير من ثقافات الغرب ، وأمريكا ، وألموا — مع العربية — باللغتين الإنجليزية والإسبانية . وكان حظ شعراء المهجر من الانتفاع بالشعر الأمريكى غير قليل .

وقد وقفوا بين روح الشرق وروح الغرب موقف المؤمن بالتراث ، والمستفيد من كل جديد ، فكثرت فى شعرهم معانى الحرية والدعوة إلى الإخاء والمساواة . ووقف بعض المهجريين من القديم والجديد موقفاً وسطاً ، أخذوا من القديم ، وأخذوا من الجديد ، وتوسطوا فى الأمر بين التجديد والتقليد ، فلهم كلاسيكية حافظ وشوقى وأحمد محرم وبشارة الخورى ، ولهم رومانسية حالمة مجددة ، ورمزية وسيريالية كذلك ، ينزعون نحو المذاهب الغربية فى الأدب والشعر والفن .

ولقد كان شعراء « الرابطة القلمية » أكثر إسرافاً فى التجديد والدعوة إليه ، وتوزعت آراء الشعرا المهجريين فى الجنوب بين التجديد والتقليد ، وهكذا مثلت « العصبة الأندلسية » موقف المحافظ المعتدل المتطلع ببصره تارة نحو القديم ، وأخرى نحو الجديد . ويمثل الرأى المحافظ فى العصبة أمثال الشاعر القروى وإلياس فرحات ، بينما يمثل رأى الداعين للجديد والمتمردين على القديم أمثال فوزى المعلوف فى البرازيل وجورج صوايا فى الارجنتين : وكذلك نعمة قازان الذى يقول :

فقلتم : يقول النحاة ، فقلت   لقد كان ذلك فى البصرة
أقاس النحاة حدود الزمان   ومر خيـــالى وعقليتى ؟
لقد حــددوها لأفكارهم   فضاقت ، وزمت على فكرتى
فقلتم : يقول الكسائى ، فقلت   وجبران قال على صحة

وعندما يأخذون معانى القدما ـ يصوغونها بلباقة،يقول أبو العتاهية :

وكانت فى حياتك لى عظات وأنت اليوم أوعظ منك حيا

فيقول أبو ماضى :

يعظ النابغ الخلائق حيــا إنما موته أجــل عظاته

ويقول زكى قنصل(١) :

أفهم الشعر حراً من كل قيد ترابى ، نظيفا من كل ذون ورائى ، أفهمه قيثارة مختلفة الأوتار ، متعددة الأصــوات ، تماوج بألحان السماء وأهازيج الحياة . . ولكنه يعود ويستدرك على ذلك فى قصيدته التى صدر بها الديوان ، وعنوانها « رجعى »(٢) ، وفيها يقول :

أنــا يا قــــوم رجعى أحب الفــــن للفن

أنــــا فى الإنس جنى وإنسى مــع الجن

أقول الشعــــر تفريجا لما فى النفس مــن ألم

كبت قدمى لم أحــزن وأحــزن إن كبــا قلمى

ويقول فى قصيدته « شوق »(٣) :

يا هازئــين بشـــوقى لا ألومكمو

ما قيمــة الشمس فى رأى الخفافيش

جناح شوقى مراقى النجم مسبحة

فكيف يدركه ديــك بــلا ريش

---

(١) ص ٨ مقدمة ديوان «ألوان وألحان» طبع بوينس ايرس — الأرجنتين عام ١٩٧٨ م .

(٢) ص ١٧ المرجع نفسه .

(٣) ١٦٠ المرجع نفسه .

شوهتمو صفحة الفصحى ولم تدعوا
في الشعر قاعدة من غـــير تشويش

ولقد نظم المهجريون في الحرية ، وفي الفخر بالشرق والعرب ، وفي الابتهال إلى الله وتقديس أنبيائه ، وفي الكفاح في سبيل الحياة ، وفي وصف الطبيعة ، وفي الحيرة ، والتساؤل والتأمل ، وفي البكاء والألم ، ونظموا القصة الشعرية ، ونظموا وأبدعوا في الحنين إلى الوطن ، وغلب على شعرهم الطوابع الآتية :

١ — الطابع العاطفي الذي يتجلى رقة في العاطفة ما بعدها من رقة، حيث الشوق والحنين إلى الوطن البعيد .

٢ — الطابع الروحي ، ويتمثل في مناجاتهم لله ، وحبهم للطبيعـــة ، وهيامهم بالجمال .

٣ — الطابع التأملي الفكري كما في « الطلاسم » لأبي ماضي وغيرها

٤ — الطابع القومي ، مما يتراءى لنا في وطنيات أبي شادي والقروي وفرحات .

٥ — الطابع الإنساني ، وهو كثير في شعرهم .

ولم يقطع الشعر المهجري صلته بالشرق أو بالعروبة أو بالإسلام ، فجميعها مؤثرة عليه من جوانب كثيرة، مما يشمل الوطن والسياسة والدين.

وما كتبه القروي من شعر في رسولنا الأمين محمد ﷺ ، وقصيدة إلياس قنصل عن النبي العربي الكريم ، خير مثـــل لإيمانهم بقدسية الرسالات وجلالها . وقد نوه مندور بما في الشعر المهجري من تلك اللهفة الروحية التي وجهت أجدادنا[1] . ودافع العقاد عنه لأنه ثمرة أربعين عاماً ،

---

(١) مجلة الثقافة المصرية عدد أبريل/نيسان ١٩٤٣ م .

ولأنه ثروة للغة العربية ، ويدافع صيدح عن المهجريين بأن تجديدهم الأهم كان فى الفكرة والموضوع ، وقد انعكس هذا التجديد على الأساليب والموسيقى الشعرية .

وفى الشكوى من آلام الغربة ومشقاتها ، وفى الحنين إلى الوطن ، يبلغ الشاعر المهجرى الغاية ، التى لا مزيد بعدها لمستزيد .

وإذا أردنا الشواهد على كل ما قلناه فهى كثيرة لا يعجز عنها أحد ولو ذكرت بعضاً منها لأطلت وملات ، وحسبى هنا أن أنقل عن زكى قنصل من قصيدة[1] له :

حتـام أخنق غصـــــاتى وأنتظر
طال الطريق وأوهى عزمى السـفر
جارت على القـوى واستنزفت كبرى
فكيف يضحك فى قيثـارتى وتر ؟
يا شام لولا طلاب المجـد ما انتثرت
فى الشرق والغرب هذى الأنجم الزهر
يا شام باسمك كم غنوا وكم هزجوا
وبعلم الله كم أنـــــوا وكم زفروا
لم يهجروك ، برغم البعـد ، ثانية
شتان شتان من غابوا ومن هجـروا

أو أنقل عن أبى شادى قوله[2] :

بكى الربيع طروباً فى مباهجه وقد بكيت أنا حبى وأوطانى

---

(١) ص ٩٧ ألوان وألحان .

(٢) راجع رائد الشعر الحديث للخفاجى .

أنا الغريب وروحى شاركت بدنى ... هـذا العذاب بأشواقى وأحزانى
فيم العـزاء ، ولا قلب ألوذ به ... ولا حنان يناجينى كتحنانى
لى فى ثرى مصر دمع نائح ودم ... أذيب من مهجتي اللهفى ونيرانى
تركته مثل غرس الحب ما ذبلت ... أزهاره أو أغاثت روح لهفـان
أشمها فى اغـترابى حين تلذعنى ... ذكرى الشباب وذكرى عمرى الفانى

ويقول حليم دموس فى الغربة والاغتراب :

هجـــر الروض وعاف الثمرة ... وليـالى أنســه المزدهرة
كان فى موطنــه معـرفة ... وهو فى الغـربة أمسى نكره
ومضى يضرب فى آفاقهـا ... ولسان الدهـر يروى خبره
بحياتى هاجـر مغترب ... غالب الدهـر ولاقى عبره
وهو فى الفجـر يناجى شمسه ... وهو فى الليـل يناجى قمره
أدر الدفـة يا ربانها ... فالحمى حن إلى من هجـره

ايليا أبو ماضي

١٨٨٩—١٩٥٧

— ١ —

ابن المحيدثة ، تلك القرية الوادعة ، النائمة فى أحضان الجبل الأشم . . ايليا أبو ماضى الشاعر الذى ودع الحياة منذ أربعة وعشرين عاما .. مازلنا نذكره ، ونذكر إقامته فى عاصمتنا الثانية أحد عشر عاما ، امتدت من عام ١٩٠١ ، حتى عام ١٩١٢ م أى منذ أن كان فى السنة الثانية عشرة من عمره ، حتى بلغ الثالثة والعشرين .

وموسيقى أبى ماضى ، وطيوف القصة وملامحها فى شعره وشتى ألوان الجمال التى يصبغ بها شعره ، وروح البساطة والصدق التى ترفرف على قصائده ، ومضامينه الشعرية المستمدة من الحيـاة والطبيعة . . كلها من عناصر الشاعرية الملهمة التى عرف بها أبو ماضى ، والتى اكسبته المجد والخلود .

وهذه الموسيقى الحلوة إنما اكتسبها الشاعر من شعراء الاسكندرية . ومنحته إياها طبيعة هـذه المدينة الساحرة ، ففى الاسكندرية كان يعيش جماعات من الشعراء ، أثروا الشعر ونهضوا به ، ووهبوه الرقة والعـذوبة والجمال ، مما ظهر أثره فى موسيقى الشعر الاسكندرى عموما ، وشعر أبى ماضى على وجه الخصوص .

ومن بين هؤلاء الشعراء : خليل شيبوب (١٨٩٢ ـ ١٩٥١) وصديق شيبوب (١٨٩٤ — ١٩٦٥) ، وعبد الرحمن شكرى (١٢ أكتوبر ١٨٨٦ — ١٥ ديسمبر ١٩٥٨) ، ومحمد فضل إسماعيل ، وعبداللطيف النشار ، وعثمان حلمى ، وعلى العزبى .

والأقصوصة الشعرية ظهرت كذلك فى شعر شعراء الاسكندرية ، وكانت

« مجلة أنيس الجليس » التى تصـدر فى الاسكندرية ميدانا خصبا لقرائح الشعراء ، الذين كانوا ينظمون الشعر فى الثغر .

هذا وقد وظلت تصدر فى الثغر وقتا غير قصير ، ولقد نظم أبو ماضى فى الاسكندرية الكثير من القصص الشعرية ، كما نظمها سواه من الشعراء .. مما يظهر لنا من ديوانه « تذكار الماضى » الذى نشره فى الاسكندرية عام ١٩١١ ، والاسكندرية على أية حال هى الملهمة له بموسيقاه وبقصصه الشعرية الجميلة . . كان فيها يعمـــل فى التجارة ، ويهوى الأدب ، ويحضر ندواته ومجالسه ، وينظم الشعر ، ويشارك الشعراء فى تذوقه .

وأصدر أبو ماضى فى المهجر « ديوان ايليا أبى ماضى ، عام ١٩١٦ ، وطبعه فى نيويورك ويشملى ألوانا من شعره القصصى والتاملى والعاطعى .. ثم نشر عام ١٩٢٧ ديوان الجداول الذى طبع فى نيويورك وقدم له ميخائيل نعيمة ، وفى عام ١٩٤٦ نشر ديوان الخمائل . . وكل هذه الدياوين تحمل طابع الاسكندرية و إلهامها وسحرها . . أما ديوانه ، تبر وتراب ، فقـــد صدر بعد وفاته .

إن طفل الحيدثة ، والشاب الذى عمل فى دكان سجاير فى الاسكندرية وعشق الأدب والشعر فيها ، وشاعر الطلاسم والطين ووطن النجوم ؛ مدين لحياته فى الاسكندرية ، التي الهمته النبوغ والشاعرية والموسيقى والروعة ، مما صار به أبرز شعراء المهجر الأمريكى وأسيرهم شعراء وأظهرهم فى بساطة الأسلوب ، وإنسانية للوضوع . . بجانب ما أخــذه عن أساطين الرابطة القلمية ، من أمثال جبران ورشيد أيوب وميخائيل نعيمة وسواهم .

ومع ذلك كله فقد استبقى من حياته فى الاسكندرية عدة عناصر ، من أهمها السهولة الفائقة التي اتسمب بها ديباجته ، وهى التى أثرت عند شعراء

مدرسة الاسكندرية من مثل خليل شيبوب وصديق شيبوب وعثمان حلمى، ومنها الصناعة الفنية، وقد حرص أبو ماضى عليها برقتها وعذوبتها، مما تأثر فيها بخليل مطران وبغيره من شعراء الاسكندرية الملهمين.

وحياة ابى ماضى بتفاصيلها فى ثغرنا الجميل كانت مجهولة لولا الأستاذ عبد العليم القبانى الأديب الاسكندرى المعروف، الذى ألف كتابا سماه « ايليا أبو ماضى — حياته وشعره بالاسكندرية » فأبان المجهول من أسرار هذه الحياة التى لم يكن أحد يعرف عنها شيئا، وبفضله نستطيع أن نكمل التفاصيل المجهولة لحياة ابى ماضى الأولى.

ولا شك أن تأثير هذه الحياة فى شعر أبى ماضى وفى نظراته ومذهبه فى الحياة.. ظل ملازما له.. إلى وفاته فى نيويورك فى خريف عام ١٩٥٧، بعد أن وضعته مواهبه فى صفوف الملهمين الرائدين، من الشعراء الخالدين.

— ٢ —

وأبو ماضى شاعر على كل لسان، وشعره يترنم به فى كل مكان، ويردد قصائده كل فم وكل إنسان..

إنه ايليا أبو ماضى صاحب القصائد الجميلة، والموسيقى الحلوة، والقصص الشعرى الرائع، الإنسانى النزعة والهوى والطابع.. شاعر الصور والتجارب الباطنية العميقة، والإيحاء الذاتى المؤثر وشاعر الحركة التصويرية العجيبة فى قصائده.

ومنذ أكثر من ربع قرن مات أبو ماضى فى نيويورك، عن ثمانية وستين عاما، بعد أن حمل لواء الشعر فى المهجر الأمريكى، وتزعم حركات ومدارس التجديد فيه، وكانت أنغامه عزاء المحرومين، وأمانى البائسين، وطمأنينة

الحائرين ، كما كانت ابتسامة فى وجه الزمان العبوس ، وصورة مشرقة لفكرنا العربى المتألق .

وبموت أبى ماضى طويت صحيفته « السمير » التى كان يصدرها فى نيويورك باللغة العربية ، وطويت معها ذكريات الشعر والشعراء على بساط العربية هناك فى العالم الجديد .

وقد بلغ أبو ماضى غاية تضوجه الشعرى فى الجداول ولا سيما فى قصيدته « فلسفة الحياة » التى تعد من أشهر قصائده . ومثلها قصيدة « الطين » وسوف نعود إليها بعد قليل ، ويعقد أحد الأدباء العرب المعاصرين شبها بينها وبين قصيدة شعبية مشهورة للشاعر الشعبى الأردنى البدوى على الرميثى » وهو الأستاذ روكس العزيزى ، الذى يذهب إلى أن أبا ماضى قد أخذ معانى قصيدته كلها من قصيدة الرميثى ، وأخرج فى ذلك كتابا سماه « فريسة أبى ماضى » .

ومن قصائد « الجدول » المشهورة : الطلاسم ، واليتيم وغيرها من روائع الشعر ، يقول أبو ماضى فى قصيدة « اليتيم » .

خبرونى ماذا رأيتم ؟ أأطفا	لا يتامى أم موكبا علويا ؟
كزهور الربيع عرفا زكيا	ونجوم الربيع نورا سنيا
والفراشات وثبة وسكونا	والعصافير بل ألذ نجيا
إننى كلما تأملت طفلا	خلت إنى أرى ملاكا سويا
قل لمن يبصر الضباب كثيفا	إن تحت الضباب فجرا نقيا
اليتيم الذى يلوح زريا	ليس شيئا لو تعلمون زريا
ربما كان أودع الله فيه	فيلسوفا أو شاعرا عبقريا

ويشارك « الجدول » فى مجده الشعرى صنوه الديوان الآخر « الخمائل » بقصائده الجميلة : الفراشة المحتضرة ، الشاعر والسلطان الجائر ، الأسطورة الأزلية ، وغيرها من الأنغام العذبة ، والموسيقى الساحرة ، والفن القصصى الشعرى البديع .

وبعد وفاة أبى ماضى ظهر له ديوان « تبر وتراب » الذى جمع باقة رائعة عن القصائد الشعرية الجميلة . ومنها قصيدته « وطن النجوم » ودع عنك ديوانه تذكار الماضى الذى صدر له فى مدينة الاسكندرية قبل هجرته إلى أمريكا : وديوانه الأول فى المهجر ، وهو « ديوان أبى ماضى » .

— ٣ —

والنزعة الإنسانية سائدة فى شعره ، وتتردد فيه أحيانا أطياف من الواقعية والرمزية . على أن عمق التجربة وحيويتها فى شعره . وحيرته بين التفاؤل والتشاؤم ، والانطوائية والانبساطية ، إلى موسيقاه الرفافة ، وصياغته القصصية الباهرة . . كل ذلك مما يعطى لقصائده ميزات كثيرة ، وكذلك انطواء الرمزية فى موضوعه الشعرى ، وبخاصة الرمزية التأملية فى بعض قصائده ، كقصيدة « الطين » بحوارها الدرامى ، بين غني متكبر وفقير قانع ، وكقصيدة « التينة الحمقاء » التى أضمرت فى نفسها ألا تثمر ، كى لا يطرقها طير ولا بشر ، ثم اتجاهه إلى اتخاذ موضوع قصيدته من أتفه الموضوعات ، مثل قصيدته « الحجر الصغير » وغيرها ، مما يعد من الخصائص الواضحة لشاعرية أبى ماضى الابتداعية الأصيلة الموهوبة ، التى جعلت منه أحد رواد الحركة الشعرية الجديدة وأحد الشعراء الذى غذوا الشعر العربى بالأفكار الإنسانية ، كما فى قصيدته فلسفة الحياة التى يقول فيها :

أيها ذا الشاكي وما بك داء كيف تغدو — إذا غدوت — عليلا
إن شر الجناة في الارض نفس تتوقى قبل الرحيل الرحيلا
وترى الشوك في الورود وتعمى أن ترى فوقها الندى أكليلا
والذي نفسه بغير جمال لا يرى في الوجود شيئا جميلا

وكل ذلك جعل أبا ماضي أبرز شعراء المهجر الأمريكي وأشيرهم شعرا ، وأكثرهم تأثيراً ببساطة الأسلوب وإنسانية الموضوع وعذوبة النغم ، وعمق التجربة .

— ٤ —

وهذا أبو ماضي يتحدث عن وطنه . وحنينه إليه ، فماذا يقول ؟

شيئان أعيا الدهر أن يبليهما لبنان . والأمل الذي لذويه
نشتاقه والصيف فوق هضابه ونحبه والثلج في واديه
وطني ستبقى الأرض عندي كلها — حتى أعود إليك — أرض التيه
سألوا الجمال فقال : هذا هيكلي والشعر قال : بنيت عرشي فيه

ولنعد إلى قصيدته « الطين » بجمالها وسحر صياغتها وموسيقاها ، وبفن الحوار فيها ، وبإنسانيتها ونبلها ، ومهما قيل : إنها مقتبسة من قصيدة (الروميّ) القريب العهد منا ، فإنها من روائع أبي ماضي ، وأماثيل شعره .

يقول شاعرنا ، يصور صنيع غني متكبر ، وخيلاءه على الفقراء ، ويرد عليه بلسان فقير بائس في بساطة نغم ، وعذوبة أسلوب ، وقرب تناول :

نسي الطين ساعة أنه طيـ ـن حقير فصال تيها وعربد
وكسا الخز جسمه فتباهى وملا المال كيسه فتمرد
يا أخي : لا تمل بوجهك عني ما أنا فحمة ولا أنت فرقد

أنت لم تصنع الحرير الذى تلبـ ـبس واللؤلؤ الذى تتقلد
أنت لا تأكل النضار إذا جعـ ـت ولا تشرب الجمان المنضد
أنت فى البردة الموشاة مثلى فى كسائى القديم ، تشقى وتسعد

ثم يتابع الشاعر حديث الفقير إلى هذا الغنى المزهو المختال ، فيقول فى عفوية وبساطة وصدق إحساس :

فلك واحد يظل كلينا حار طرفى به وطرفك أرمد
قمر واحد يطل علينا وعلى الكوخ والبناء الموطد
إن يكن مشرقا لعينيك إنى لا أراه من كوة الكوخ أسود
النجوم التي تراها أراها حين تخفى وعندما تتوقد
لست أدنى على غناك إليها وأنا مع خصاصتي لست أبعد

ويستمر الشاعر فى حديثه المؤثر الرائع الجميل ، إن الغني يفتخر على هذا الفقير بقصره الرفيع ، فماذا يقول له الفقير ؟

ألك القصر دونه الحرس الشا كى ، ومن حوله الجدار المشيد ؟
فامنع الليل ان يمد رواقا فوقه ، والضباب أن يتلبد
وانظر النور كيف يدخل لا يطـ ـلب إذنا ، فماله ليس يطرد ؟
مرقد واحد نصيبك فيه أفتدرى للذر كم فيه مرقد
ذدتنى عنه والعواصف تعدو فى طلابى والجو أقتم أربد
بينما الكلب واجد فيه مأوى وطعاما ، والهر كالكلب يرقد

ويفتخر الغني بأنه يملك جدولا رقراقا ، وهذا هو الفقير يرد عليه فى سماحة نفس ، فيقول :

ألك النهر ؟ إنه للنسيم الـ ـرطب درب ، وللعصافير مورد
وهو للشهب تستحم به فى الـ ـصيف ليلا ، كأنها تتبرد

تدعيه فهل بأمرك يجرى | فى عروض الأشجار أو يتجمد ؟
كان من قبل أن تجىء ، وتمضى | وهو باق فى الأرض للجزر والمد

ويقول الغنى فى فخره وخيلائه على الفقير ، إن لى هذا الحقل العريض ، فيرد عليه الفقير بأنه لا يمنحك السعادة إن فقدتها :

ألك الحقل ؟ هذه النحل تجني الـ | ـشهد من زهره ولا تتردد
لو ملكت الحقوق والأرض طرا | لم تكن من فراشة الحقل أسعد

وهكذا يستمر هذا الفقير القانع فى حواره للغنى المزهو بماله ، فيقول :

أجميل ؟ ما أنت أبهى من الور | دة ذات الشذى ولا أنت أجود
أم قوى ؟ إذن مر النوم إذ يغشـ | ـاك والليل عن جفونك يرتد
وامنع الشيب أن يلم بفوديـ | ـك ، ومر تلبث النضارة فى الخد

ويختم القصيدة بهذا المقطع الأخير المؤثر :

أيها الطين لست أنقى وأسمى | من تراب تدوس أو تتوسد
أنا أولى بالحب منك وأحرى | من كساء يبلى ومال ينفد

وإذا ما تركنا هذه القصيدة الإنسانية العالية ، إلى قصيدته « العنقاء » نرى الشاعر يرمز فيها إلى السعادة التي لا تقل بالعنقاء ليعلن أنه من العبث أن يطلبها الإنسان خارج نفسه ، وهو يحدثنا أنه فتش عنها فى كل مكان ، وسأل عنها كل ما فى الكون ، سأل النجوم والبحر ، وجاب الفضاء ، ودخل القصور ، ودخل القصور ، ونشد السعادة فى الأحلام والرؤى ، فى مسرات الحياة ومباهجها ، فى أحزانها وخلوات الزهاد فيها ، وما زال يفتش عنها حتى مر ربيع الحياة وجاء الخريف مع الشتاء ، وكانت النهاية هى ما قصه علينا فى ختام قصيدته إذ يقول :

صفرت يدى منها وبى طيش الصبا · وأضلنى عنها ذكاء الألمعى
حتى إذا نشر القنوط ضبابه · فوقى فغيبنى وغيب موضعى
وتقطعت أمراس آمالى بهـــا · وهى التى من قبل لم تتقطع
عصر الأسى روحى فسالت أدمعا · فلمحتها ولمستها فى أدمعى
وعلمت حين العلم لا يجدى الفتى · أن التى ضيعتها كانت معى

وهكذا عاش إيليا أبو ماضى يرسل الشعر ألحانا جديدة ، وأنغاما جميلة يرفه بها عن السائرين فى صحراء الحياة ، وعن الذين أضلهم السراب طريق الهدوء والراحة والسكينة ، ويعلم الناس الحب والأمل والفرح الروحى ، ويخفف عنهم الضجر والألم والحزن وينثر على وطنه الحالم « لبنان » زهور الحب وروعة الذكرى .

ورقد أبو ماضى ، وغفا اللحن الجميل ، وصمتت القيثارة الشادية وترك وراءه شعره لسان حب وأمل وصوت حنان وتعاطف ، ودعوة طمأنينة وسلام .

مذاهب وخصـــائص وأعلام

المسرح الشعرى المعاصر

المسرحية هى التعبير عن صورة من صور الحياة تعبيرا واضحا،بوساطة ممثلين يؤدون أدوارهم أمام جمهور محتشد ، بحيث يكون هذا التمثيل مثيراً . أو هى قطعة من الحياة ينقلها إلينا الكاتب المسرحى لنراها ممثلة على المسرح .

والمسرحية بدأت فى أغلب الأمر فى وطننا مصر القديمة ، فالمصريون القدماء هم أول من ابتكرها ، وأخذها عنهم الأغريق ، الذين تمثلت المسرحية عندهم فى أول الأمر فى الأناشيد الدينية التى يرتلها عدد من الناس ، ثم تمثلت بعد ذلك فى الحفلات التى كانوا يقيمونها فى مواسم الزراعة وتطورت بعد ذلك إلى الفن المسرحى الراقى ، الذى كان من أكبر نقاده : أرسطو عند الأغريق ، ثم هوراس عند الرومان .

كان الأغريق فى أول الأمر يحتفلون احتفالين : أحدهما فى أوائل الشتاء ، وهو احتفال صاحب مرح يغنون فيه ويرقصون ويمثلون ما يضحك الناس ويبهجهم ، وعنه نشأت « الكوميديا » أما احتفالهم الثانى فقد كان فى الربيع وقد كان هذا الاحتفال يتسم بالوقار ، فكانت تمثل فيه روايات المآسى ، وعن هذا الحفل نشأت « التراجيديا » وقد كانت الروايات كلها سواء كانت كوميديا أو تراجيديا — شعرية ، فقد كان المسرح فى ذلك الحين وثيق الصلة بالغناء ، وقد حتم هذا أن يكون الحديث فيه جميعا بالشعر حتى يمكن غناؤه .

وتختلف المسرحية عن القصة والملحمة بأنها تعتمد على الحوار ، وجوهره الحدث أو الفعل ، فهى تتكون من جملة أحداث يرتبط بعضها ببعض

ارتباطاً عضوياً أو حيوياً ، بحيث تسير فى حلقات متتابعة تنتهى إلى نتيجة، ولأن المسرحية عند الإغريق تصاغ شعراً ، كانت من أجل ذلك يجمع فيها بين الشعر والغناء والموسيقى والرقص ، حيث نرى أجزاء المسرحية الأغريقية القديمة تتكون من مشاهد حوارية ، وأغنيات للجوقة مصحوبة بحركات من الرقص البدائى متعاقبة حتى نهاية المسرحية . . فالمسرحية تشترك هى والقصة فى اشتمالها على الحادثة والشخصية ، والفكرة والتعبير ، ولا يميزها تميزاً واضحاً عن القصة إلا طريقتها فى استخدام أسلوب الحوار بصفة أساسية . وقد تستخدم القصة هذا الأسلوب بجانب استخدامها الأسلوب التصورى ، لكن المسرحية لاتستخدم سوى ذلك الأسلوب ، فسواء كانت المسرحية ممثلة أو مقروءة فإن الحوار هو الاداة الوحيدة فيها للتصوير . فالحوار هو المظهر الخارجى الحسى للمسرحية ، أما المظهر المعنوى فهو « الصراع » . وكلمة « دراما » تعنى صراعاً داخلياً ، وهذا لايقل فى جوهريته بالنسبة لفن المسرحية عن الحوار ، والحوار والصراع هما الخاصيتان الفنيتان اللتان تميزان فن المسرحية ، على أن المسرحية لايتم وضعها الحقيقى إلا حين تمثل على المسرح ، حيث يشاهد المتفرج الحركة بعينه ويحس بالعواطف التي توجهها . ولذلك نشأت النظرية التي تنادى بالعلاقة بين المسرحية والمسرح والممثلين والمتفرجين .. ويقول بعض النقاد المسرحيين مثل « اسبنجارن » : إن العلاقة بين المسرحية والمسرح والممثلين والمتفرجين علاقة عرضية ، وإن المسرحية قد تكون بغير هذه الأشياء ، وأنها تستطيع أن تحدث أثرها الفني دون الاعتماد على شيء سوى القراءة .

وقد نشأت المسرحية (الدراما) فى الأدب الأغريقى القديم وانقسمت

إلى الكوميديا (الملهاة) ، والتراجيديا (أو المأساة) ، حيث كانت تقام المسارح فى أثينا القديمة فى خلال الاحتفالات القروية تعظيما لإله الطبيعة « ديونسيوس » وأشهر أعلام المأساة فى الأدب الأغريقى القديم ثلاثة : سوفوكليس (توفى عام ٤٠٥ ق . م) يوريبيدس (توفى عام ٤٠٦ ق . م) أشيلوس (توفى عام ٤٥٦ ق . م) . وأشهر أعلام الملهاة فى الأدب الأغريقى أيضاً : أرستوفانس (توفى عام ٣٨٧ ق . م) ، وهو مؤلف الكوميديا المشهورة « الضفادع » التى تهكم فيها بشخصية يوريبيدس وتعرض فيها للقديم والجديد .

وقد حاكى اللاتينيون المسرحية اليونانية وقلدوها فى جميع خصائصها الفنية ، ونشأ المسرح اللاتينى فى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد ، واحتذى القوالب الفنية الاغريقية احتذاء كاملا ، ومن أعلامه : بلوتس (ت ١٨٤ق.م) وهو من كتاب الملهاة ، سينيكا وهو من كتاب المأساة .

وفى العصور الوسطى (٤٥٦ – ١٤٥٣ م) كانت المسرحية ذات طابع دينى ، وقلدوا فيها المسرحيات اللاتينية ، وعندما بدأت حركة البعث الأوربى فى القرن الخامس عشر عاد الأوربيون إلى الأدبين الأغريقى واللاتينى القديم يحتذونه ويستمدون منه موضوعات مسرحياتهم وجمعوا فى المسرحية بين الحوار وبعض المقطوعات الغنائية ، ولكن الكلاسيكية أخذت تتكون وينفصل فيها فن التمثيل القائم على الحوار عن الغناء وإن ظلت المسرحيات الجدية والهزلية تنظم شعراً ، وفصلت المسرحية الغنائية عن المسرحية التمثيلية فصلا تاماً ، وأصبحت المسرحية الغنائية الموسيقية لا تدخل فى باب الأدب إلا تجوزاً ، وإنما تدخل فى باب الموسيقى ، باعتبار أن العنصر الموسيقى هو الذى يطغى عليها ، ويعطيها كل قيمتها الفنية ، بينما يضمر فيها الحوار

والتمثيل وتصبح قيمتهما ثانوية . ومنذ أن انفصل الغناء عن الحوار والتمثيل كان من الطبيعي أن يتطور هذا الحوار ، وأن يتجه نحو النثر بدلا من الشعر ، حتى إن بعض الرومانتيكيين من كبار الشعراء أمثال : الفريد دى موسيه ، وغيره يؤثرون النثر فى كتابة مسرحياتهم . وباستمرار تطور فن المسرحية واتجاهه نحو الواقعية وظهور مايسمى بالدراما الحديثة أخذ النثر يطغى على الشعر فى لغة المسرح ، بحيث يندر فى العصر الحديث أن نجد أدباء كبارا يكتبون مسرحيات شعرية . وإذا كان « أدمون روستان » ونفر قليل غيره فى فرنسا يكتبون مسرحيات شعرية ، فإن الأغلبية الساحقة من الأدباء المعاصرين يكتبون مسرحياتهم نثراً .

وأصدق مسرح أوربى تنطبق عليه قواعد الكلاسيكية هو مسرح راسين ، وعلى العكس من ذلك مسرحيات « كورنى » التى لم يخضعها كاتبها للقواعد الكلاسيكية مما جعله يتعرض لهجوم شديد بعد ظهور مسرحيته « السيد » .

وتأثر المسرح الرومانتيكى بشكسبير أعظم التأثر ، ولما ترجم فولتير مسرحياته إلى الفرنسية ودعا إليها ، ذاعت بين الكتاب والمفكرين ، وكان شكسبير مغموراً فى انجلترا وخارجها طيلة قرنين من الزمان ، حتى اعترف الناس بعبقريته فى القرن التاسع عشر بعد أن ترجم فولتير مسرحه إلى الفرنسية ، وهاجم هوجو المسرح الكلاسيكى فى مقدمة روايته « كرومويل » :

وانتقلت المسرحية إلى إيطاليا وأسبانيا والبرتغال،وأثر المسرح الأسبانى فى أدباء فرنسا وهولاندا وانجلترا وألمانيا ، ولذلك استمد كورنى وموليير وغيرهما مادة كثير من المسرحيات من الأسبانية ، وإن كانوا قد غيروا البناء

الفني الأسباني خلافاً للرومانتيكيين الألمان الأول أمثال : تيك . وشليجل وغيرهما . وأعجب هؤلاء من الكوميديا الأسبانية قالبها نفسه ، هذا القالب الخالي من قيود الوحدات المرن ، الفني في إخراجه وشخصياته ، الشعري أسلوبه وأوزانه المتعددة .

وأثر شكسبير (١٥٦٤ —١٦١٦) م في المسرح الأوربي تأثيرا كبيرا سواء بموضوعاته أم بأشخاصه وعواطفه ، أم بأسلوبه ، أم بقالبه الفني الذي يزيد على غيره غنى ومرونة .

والعديد من المسرحيات الغنائية الأوربية قد تأثرت بالأدب العربي والآداب الشرقيـة ، فالمسرحيات الغنائية الأوربية : « علاء الدين » . « والمصباح السحري » . و « معروف اسكافي القاهرة » ، ومسرحيات شهر زاد الغنائية . كلها مقتبسة من ألف ليلة وليلة ، التي كان لها تأثيرها العميق في كتاب القصة و لرواية من الأوربيين ، ويندر أن لا يكون هناك قصاص غربي لم يتأثر بألف ليـلة وليـلة ، هذا الكنز العربي الثمين . وقد ترجمت ألف ليلة وليلة إلى مختلف لغات العالم .

يبدأ المسرح الشعري العربي الحديث بأمير الشعراء أحمـــد شوقي (١٨٦٨ — ١٩٣٢) . فمن المعروف أن فن المسرحية عرف في العصر الحديث نقلا عن أوربا . إذ كان الأدب العربي القديم أدباً غنائياً خالصاً . وقد ظهر الحوار في فن المقامة العربية ، ولكن لم يقم أساساً لفن مسرحي ، وفي الأدب الشعبي العربي وجدت عناصر تمثيل بدائية في « خيال الظل » وألف فيـه ابن دانيال (٦٤٥ — ٧٠٩ ﻫ : ١٢٤٨ — ١٣١٠ م) كتابه (خيال الظل) ومن الروايات التي مثلها مسرح خيال الظل رواية « عجيب وغريب » . وفي عهد السلطان المملوكي جقمق أمر بإحراق هذا المسرح الشعبي ، ومنع

الناس من احتراف التمثيل لتعرضهم للسياسة آنذاك ، وقد شاهد غليم الأول العثمانى فى القاهرة روايات مسرح خيال الظل . ورأى بعض هؤلاء الممثلين .

وقد انتقل فن المسرحية إلى مصر والشرق العربى نقلا عن أوربا ، بتأثير الاتصال بين الشرق والغرب ، ففى منتصف القرن التاسع عشر ظهر فن المسرحية فى لبنان وسوريا والعراق ، فترجم مارون النقاش (١٨٥٥ م) بعض المسرحيات الأوربية لتمثيلها ، ومنهامسرحية البخيل لموليير ، كما ألف بعض المسرحيات أيضاً ، وهى البخيل — الحسود والسليط — أبو الحسن المغفل وهارون الرشيد ، وكانت هذه المسرحيات بالأسلوب الشعرى الركيك ، وانتقل المسرح من لبنان إلى سوريا ، ثم إلى مصر ، فالعراق، وقد بدأ المسرح فى مصر بهجرة سليم النقاش إليها ، ثم بهجرة يعقوب صنوع إليها أيضاً عام ١٨٧٠ م .

وحدث تطور جديد لفن المسرحية فى مصر حين أصدر أمير الشعراء أحمد شوقى مسرحياته الشعرية التى مثلت فى القاهرة على مسرح الأوبرا ولاقت رواجاً كبيراً . فقد كتب شوقى عام ١٩٢٧ « مسرحية كيلوباترا » . وأعاد كتابة « مسرحية على بك الكبير » وألف مسرحية مجنون ليلى ، وقمبيز ، كما ألف مسرحية أدبية نثرية هى « أميرة الأندلس » ومسرحية كوميدية هى «الست هدى ».

ومسرح شوقى الشعرى ، ومسرح عزيز أباظة ومسرح أبو شادى ، ومسرح با كثير ، وعبد الرحمن الشرقاوى ، كل ذلك أدى للشعر الحديث أجل أسباب النهضة والازدهار .

كانت عقلية شوقى وموهبته وثقافته ، واتصاله بالأدب الأوربى ،

ومشاهداته فى فرنسا وغيرها المسارح الأوربية الحديثة ، وإلمامه بفن المسرحية فى آداب الغرب ، كان كل ذلك عاملا كبيراً فى اتجاه شوقى نحو المسرحية والأدب المسرحى ، حتى إنه وهو طالب فى فرنسا ، كتب أولى مسرحياته الشعرية وهى مسرحية على بك الكبير عام ١٨٩٣م ، ويتجمع فى مسرح شوقى التأثير الشرقى العربى الإسلامى ، والتأثير الغربى الأوربى .

وكان شوقى كثير التردد على مسرح الكوميدى فرانسيز فى باريس ، يشاهد روائع الأدب التمثيلى الكلاسيكى والرومانتيكى الحديث ، وكان لذلك صداه فى نفسه ، مما جعله يعنى بالأدب المسرحى الشعرى عناية خاصة ، وترجمة شوقى للبحيرة للامارتين ، ومحاكاته لحكايات لافونتين على ألسنة الحيوانات دليل على تأثره بالأدب الغربى حتى فى مجال الشعر الغنائى والقصيدة الغنائية ، ولم يلبث أن ألف مسرحياته الشعرية : على بك الكبير ، مصرع كليوباترا ، مجنون ليلى ، قمبيز ، عنترة ، ومسرحية أخرى هى الست هدى التى لا تزال مخطوطة ، وكان قبل وفاته قد شرع فى كتابة مسرحيتين أخريين : إحداهما البخيلة ، والثانية محمد على الكبير ، إلا أن ما كتبه فيهما قد فقد . وكتب مسرحية نثرية هى « أميرة الأندلس » .

وكان اتجاه شوقى إلى مسرح كورنى الكلاسيكى الذى يهدف إلى العزة والشموخ والجلال ونبل الأخلاق والأدباء ، أكثر من مسرح راسين الذى يتميز بأنه مسرح تصويرى نفسى ، حتى لقد أطلق على راسين بأنه « مصور اللذات البشرية .

والطابع الكلاسيكى فى مسرح أمير الشعراء واضح كل الوضوح :

١ – فهو يتخذ الشعر لغة لمسرحيات خمس ، ويستخدم النثر فى مسرحية واحدة هى « أميرة الأندلس » ، والمسرح الشعرى هو أقدم

المسارح الكلاسيكية والتراثية في الغرب ، فالشعر لغة المسرح عند اليونان والرومان وفي أوربا في عصر النهضة ، وعصر سيادة الكلاسيكية ، ولا ننس أسخليوس ، وسوفوكليس ، ويوريبيدس ، وارسطوفان ، ومناندر ، وسواهم من أصحاب المسرحيات الشعرية ، من مثل بلوتس وسنيكار . وقد التزم الكلاسيكيون الشعر لغة للمسرح ، بينما تحرر من هذا القيد الرومانتيكيون ، فاستخدم بعضهم الشعر أحياناً ، كما صنع فيكتورهوجو ، وفيني ، واستخدم البعض الأخرون النثر . كما صنع الفريد دى موسيه ، وتحرر الواقعيون في أوربا من الشعر في المسرحية تحرراً نهائياً ، ولكن سلطان المسرحية الشعرية عاد للظهور؛ ففي أوربا كتب الكثير مسرحيات شعرية من مثل ، اليوت ، كريستوفراى ، وسواهما .

٢ — وشوقي في موضوعات مآسيه يميل إلى الجانب التاريخي حقيقياً كان أم أسطورياً ، شأنه في ذلك شأن الكلاسيكيين .

٣ — ومآسي شوقي تدور حول حياة الملوك والأمراء والأبطال ، كما لاحظ د . محمد مندور في كتابه «مسرحيات شوقي» وإن كان قد اختار حياة الشعب موضوع مسرحيته « الست هدى » . وفي أوربا وجدت الدراما البورجوازية التي تصف حياة الطبقة الوسطى التي ظهرت أهميتها بعد الثورة الفرنسية ، كما ظهرت الدراما الحديثة على يدى « ابسن » و برناردشو » . ومن المعروف أن المأساة هي التي تعنى بتصوير الشخصيات الممتازة . والكوميديا هي التي تعنى بتصوير حياة الشعوب و الجماهير .

٤ — ومسرح شوقي شأنه شأن المسرح الكلاسيكي في الحوار والصراع . على أن شوقي يخالف المسرح الكلاسيكي ، في عدم التزامه للوحدات الثلاث التي يلتزم بها الكلاسيكيون وهي وحدة الزمان والمكان

والموضوع . وإذا كان المسرح التراثي يجمع بين الحوار والغناء والرقص والموسيقى ، فأن الكلاسيكيين فصلوا الفن التمثيلي عن غيره من الفنون ، فحذفوا الجوقة بغنائها وموسيقاها ورقصها ، كما حذفوا الفنون الأخرى ، وجاء أحمد شوقى فلم يتقيد بمنهج معين فى مسرحياته ولا بمذهب مستقل ، بل جمع بين الشرق والغرب ، وبين مذاهب الأدب ونظرياته المختلفة .

ومع ذلك فقد كان أمير الشعراء رائداً كبيراً وعظيماً من رواد المسرح الشعرى . لا فى مصر وحدها ، ولا فى العالم العربى عامة ، بل فى العالم جميعاً . ومسرحية كيلوباترا هى أول مسرحية شعرية تمثل على المسرح ، إذ مثلت عام ١٩٢٧ . ومع أن الشاعر محمد عبد المطلب له مسرحية « ليلى العفيفة » التى ألفها عام ١٩٠٩ ، وللدكتور أحمد أبو شادى مسرحيات شعرية عدة ، إلا أن شوقى يسبق كل الشعراء ، فقد كتب مسرحية على بك الكبير عام ١٨٩٣ ثم أعاد صياغتها من جديد بعد ذلك .

وشوقى فى كيلوباترا ينظر إلى التاريخ بعين مصرية وروح مصرية ، فنجده يضفى على كيلوباترا حللا تاريخية رائعة ، ويصور تضحيتها بين العرش والحب ، وهذه المسرحية تسجل فترة حاسمة من تاريخ مصر هى فترة آخر عصر الاستقلال المصرى فى نهاية عهد البطالسة ومطلع عهد حكم الرومان لمصر . ومن غير شك فإن شكسبير فى مسرحيته كيلوباترا كان هو المؤثر الأكبر فى شوقى ، وهدف شوقى من المسرحية هو تمجيد كيلوباترا مما أوقعه فى مخالفات للتاريخ ، أما الأوربيون وبخاصة شكسبير فقد عرضوا كيلوباترا دون تغيير لحقائق التاريخ ومروياته . ويبدو أن شوقى قد قرأ ترجمة فرنسية لكيلوباترا (التى ألفها شكسبير) إذ أن الترجمة العربية لها التى نهض بها محمد عوض إبراهيم بك نشرت بعد وفاة شوقى ، وفى مسرحية

كيلوباترا لشكسبير يرسم هـذا الكاتب العبقرى المشاعر والعواطف الآنسانية رسماً جيداً ، مع حرص على الوقائع التاريخية ،دون التفات للاصول الكلاسيكية فى كتابة المسرحية ، وشوقى يعتمد على عنصر المبالغة والتمجيد وعلى الوصف ، والكاتب المسرحى الكلاسيكى يؤثر الوصف ، أما الرومانتيكى فيؤثر المشاهدة . ... وهدف شوقى من المسرحية ، عموماً ، هو رد اعتبار كيلوباترا أمام التاريخ وإثارة عطف الجمهور عليها ، وذلك هو ما أدى به إلى الفشل . فالذى يقرأ أو يشاهد المسرحية لايحس فى نفسه أى عطف للملكة المصرية . لأن عنصر المشاركة الوجدانية للكاتب فى عمله الفنى من المشاهدين أو القراء غير موجود .

أما رواية على بك الكبير فقد كتبها شوقى عام ١٨٩٣ ونشرها فى ذلك الحين : ثم عاد إليها عام ١٩٣٢ فأعاد كتابتها كلها من جديد ، وغير من بعض حوادثها وقد أخرجتها فرقة فاطمة رشدى على مسرح الكورسال والمسرحية قطعة من تاريخ مصر ، وفيها تركيز على الحوار والحركة ، وعلى بك الكبير الذى عاش قبل الحملة الفرنسية على مصر بقليل تآمر عليه محمد بك أبو الذهب حتى قتله واشترك معه فى المؤامرة مراد بك من أجل أن يفوز بزوجة على الكبير وجاريته حيث يتبين لمراد آخر الأمر أنها أخت مجهولة له . وقد صور شوقى فى هذه الرواية (على بك الكبير) بطلا مصرياً يعمل من أجل مصر وعزتها ورخائها وسلطانها فى العالم العربى كله .

أما قمبيز فهى قطعة من تاريخ مصر . وفيها يصور شوقى الغزو الفارسى لمصر . وكان سببه — كما ذكر شوقى — أن قمبيز بعث إلى « أمازيس » فرعون مصر يطلب منه أن يزوجه ابنته «نفريت» ، فزوجه

من نتيتاس ابنة الفرعون السابق المقتول ، على أنها « نفريت » فثارت حفيظة قمبيز ، وغزا مصر ودمر كل شيء فيها ، وكانت نتيتاس تحب حارس أبيها (تاسو) فلما قتل أبوها تحول تاسو إلى حب نفريت ، وفي ذلك يقول (نتيتاس) :

أقسمت لي فاذهب فأقسم لها فأنت أهل للقسم الحانث

وكان تاسو كما يقول شوقي :

يعشق الجاه والغنى ولا يحب الغواني

وقد جعل شوقي من نتيتاس بطلة مسرحيته التي تفتدي وطنها وتعمل من أجل حريته ، ولكنه لم يصور مشاعرها النفسية حيال تاسو ونفريت والفرعون الجديد قاتل أبيها ، مما جعل المسرحية غير مكتملة في جوانبها الفنية لفقدانها عنصر الصراع والإثارة .

أما رواية مجنون ليلى فهي قصة حب عذري بين قيس وليلى ، انتهى بزواج ليلى من « ورد » وحرمان قيس الشاعر منها وقد ملأ شعره نسيباً بليلى مخالفاً تقاليد البادية وعرفها الذي كأنه قانون لا يخالف ، وفي المسرحية نفتقد عنصر الصراع في بعض مواقفها ، من مثل زواج ليلى بورد ، وإن كانت المسرحية قريبة الشبه بالأصل جداً ، وتدور الأحداث الرئيسية حول حرمان المجنون من ليلاه لمخالفته للتقاليد ، بينما تدور الأحداث « في روميو وجوليت » لشكسبير حول حرمان الحبيبين من الزواج للنزاع بين الأسرتين .

ومسرحية عنترة هي قصة حب عنترة لعبلة ، وتنتهي أحداث الرواية بزواج عنترة من عبلة وزواج صخر خطيب عبلة بناجية العاشقة لصخر ، كما فعل شوقي في كيلوباترا حين جمع بين قصة غرام كيلوباترا وأنطونيو ،

وقصة غرام حابى وهيلانة ، ولاريب أن الجمع بين قصتين فى المسرحية يفسد موقف الصراع فيها .

وأما أميرة الأندلس فهى مسرحية نثرية لاتدخل فى حديثنا عن المسرح الشعرى لأمير الشعراء أحمد شوقى - ومسرحية الست هدى الاجتماعية لم تنشر بعد ، وقد نشرت بعض مشاهد منها فى المجلات الأدبية .

أما نصيب الوحدة العربية فى مسرح شوقى الشعرى فهو نصيب كبير ، فحين كانت قمبيزة وكيلوباترا تمتان إلى تاريخ ماقبل الإسلام ، نجد : مجنون ليلى ، وأميرة الأندلس ، وعلى بك الكبير ، وعنترة ، تطوف بأنحاء العالم العربى الإسلامى ، وتتحدث عن مشاعر الشعب العربى وأخلاقه وعواطفه وعاداته وتقاليده ، وتربط مجموعة الشعوب العربية الإسلامية برباط وثيق من اللغة والأدب والشعر والأفكار والأخيلة والصور والعواطف والوجدانات المهذبة ، مما أحدث على امتداد الأيام آثاره البعيدة فى تكوين الأجيال العربية الجديدة .

إن شوقى وشعره بعامة ، وشعره المسرحى الشعرى بخاصة ، لمائدة كبيرة ضمت كل أبناء الشعب العربى حولها ، بل حول كل مااحتوت عليه مسرحياته الشعرية من عبقرية وفن وموهبة خلاقة غنية بالعناصر الفنية الرفيعة التى جمعها شاعر موهوب عظيم .

وننتقل إلى المسرح الشعرى للشاعر عزيز أباظه (١٨٩٨ — ١٩٧٣) وهو مسرح جد غنى بالحوار والحركة والصراع ، ويمثل مشاعر الوحدوى العربى خير تمثيل . وقد ترك عزيز أباظة عشر مسرحيات شعرية هى :

١ — قيس ولبنى - نظمها الشاعر فى المنيا عام ١٩٤٢ ، وكان شوقى قد كلفه بكتابتها قبل وفاته ، وقدم لها الأستاذ عباس محمود العقاد ، و عرضت

فى مسرح الأوبرا عام ١٩٤٣ . ٢ — العباسة وقدم لها د . محمد حسين هيكل . ومثلت لأول مرة على مسرح الأوبرا فى القاهرة فى ٣/١١/١٩٤٥ .
٣ — مسرحية الناصر : وقـــدم لها الأستاذ أحمد حسن الزيات .
٤ — مسرحية شجرة الدر : وقد مثلت فى مسرح الأوبرا فى نوفمبر ١٩٤٧ .
٥ — مسرحية غروب الأندلس : وقد قدم لها د . طه حسين ومثلت لأول مرة على مسرح الأوبرا فى القاهرة فى ١٥/١١/١٩٥٢ .
٦ — شهريار : وقد قـدم لها عزيز أباظة نفسه ، ومثلت لأول مرة على مسرح دار الأوبرا فى ٣/١١/١٩٥٥ . ٧ — أوراق الخريف كتبها الشاعر عام ١٩٥٧ . ٨ — قافلة النور نظمها الشاعر عام ١٩٥٨ .
٩ — مسرحية قيصر نظمها الشاعر عام ١٩٦٣ . ١٠ — مسرحية زهرة نظمها الشاعر عام ١٩٦٨ . ولم يتم تمثيل هذه المسرحيات الأربع الأخيرة .

إن مسرح الأباظى الشعرى جد غنى بالشاعرية والموهبة والصراع والحوار الشعرى الجميل . وفى مسرحياته الست الأولى يتناول الشاعر أحداثاً تاريخية ، وكذلك يتجه إلى التاريخ فى مسرحيتيه : قافلة النور ، وقيصر — أما مسرحيتاه الأخريان أوراق الخريف ، وزهرة فيتجه فيهما إلى الموضوعات الاجتماعية المعاصرة ، وإن كان قد تأثر فى مسرحيته «زهرة» بمسرحية للشاعر المسرحى الأغريقى القديم يوريبيدس ، كانت بطلتها هى فدرة ، التى كتب عنها الشاعر الرومانى ، الفيلسوف سنكا ، والشاعر الفرنسى « راسين » .

وفى المسرحية الاجتماعية بسط شاعرنا عزيز أباظة لغته حتى صارت أقرب إلى اللغة اليومية ، دون أن يتخلى عن فصاحة الألفاظ وجمالها ، وبلاغة الأسلوب وعذوبته وبساطته .

والمسرح الشعرى عنـــد عزيز أباظة حافل وغنى بالحوار والصراع ، وبالشخصيات المسرحية ، ويدافع الأباظى عن اتخاذ الشعر لغة للمسرح فى العصر الحـــديث ، بينما يعارضه فى ذلك د . طه حسين ، فحين يرى طه حسين أن التمثيل شب عن طوق الشعر ، وتمرد على أوزانه وقوافيه (ص ٦٤٧ جـ ١ مسرح الشعر لعزيز أباظة) ، يرى الشاعر الأباظى أن الشعر أنسب للغة الحوار على المسرح من النثر (صفحة ٨١٥ جـ ١ مسرح الشعر — عزيز أباظة) .

لقد خلف عزيز أباظة أمير الشعراء أحمـــد شوقى فى إمارة المسرح الشعرى ، بما قدم من أعمال مسرحية خالدة باقية على امتداد الأيام ، وحمل لواء الشعر المسرحى بعد شوقى سنوات طوالا تبلغ الأربعين . ومسرح أباظة يمثل كل مشاعر الإنسان العربى وأفـكاره وروحه وعواطفه تمام التمثيل . ويمثل فلسفة الوحدة العربية تمثيلا دقيقاً وكاملا .

وفى رواية « قيس ولبنى » تتجلى روح العروبة والعربية بوضوح تام ، ويعدها العقاد تحفـة أدبية نادرة فى الأدب العربى الحديث ، سواء من ناحية الأدا ، أو من ناحية التعبير والتمثيل ، ويقول عنها إنها نموذج من نماذج الجزالة والعذوبة ، وصحة التركيب فى الشعر العربى على اختلاف أغراضه وأوزانه (٢٣/١ مسرح الشعر — عزيز أباظة — دار الـكتاب اللبنانى) .

ومسرحية العباسة ، التى تحـكى قصة نـكبة البرامكة على أيدى الرشيد مثيرة حقاً ، وفيها تتجلى روح العروبة الأصلية المحافظة على التراث ، والتى تضيق ذرعاً بنزعة الشعوبية والشعوبيين ، وفيها يربط الحب بين العباسة وجعفر برباط وثيق ، ويسرى فى جميع فصول المسرحية حتى يكاد يجعل منها قصة غرام تصور ألوان هذه العاطفة ما يذكر بشعر جميل وكثير وغيرهما

من العزليين الذين خلدت أسماؤهم فى تاريخ الشعر . وهذا الزواج المكتوم أمره على الناس ، وهذا الطفل الذى كان ثمرة هذا الزواج يزيد فى قصص هذا الحب قوة ، والغيرة بين العباسة وزبيدة ، وموقف (علية) أخت العباسة من هذه الغيرة وانحيازها للعباسة : كل هذا صوره الشاعر تصويراً طبيعياً كما يرى د . هيكل (١٤١ و ١٤٢ / ١ مسرح الشعر لعزيز أباظة) .

وفى مسرحية الناصر يبين الشاعر لنا مدى توثق الشعور بالوحدة العربية ، ومن ذلك ماجاء على لسان الحكم بن الناصر لرسول ملك القسطنطينية :

الحكم : بغداد لم تخن العهود

الرسول : فمن إذن

الحكم : أجهلت من قد سامها طغياناً

أو ماجا على لسان أمير زناتة أمام الناصر

العرب فى شرق البحار وغربها

أذن الرقيب عليهم القوام

والله ما وهنت وطائد مجدهم

وبنو أمية فارعون قيام

وعليك من أزداجة وزناتة

سلم ، ومن باقى البطون سلام

ويقول عن هذه المسرحية الأستاذ الزيات : إن نظمها نمط من الشعر الرفيع البديع المحكم ، صافى الديباجة واضح المنهج . . والأستاذ قد أحاته شاعريته وإبداعه فى المسرح الشعرى محل الزعيم لهذا الفن بعد شوقى غير منازع ، فشوقى وأباظة هما اللذان أكملا النقص المورث فى الشعر

العربى ، بما أدخلا فيه من الشعر التمثيلى (٣٠٤ / ١ المسرح الشعرى لعزيز أباظة) .

وفى مسرحية (غروب الأندلس) كذلك يتجلى شعور العربى الحر الأبى بالعزة والكرامة والإباء والدفاع عن الشرف ، والذياد عن حمى الآباء والأجداد .

إن مسرح أباظة متألق بمشاعر النضال والحب والوفاء والشرف والغيرة والحمية والتضحية ، وهذه كلها قوام العربى الكريم العزيز .

ويقول الشاعر عزيز أباظة : إن شوقى أعظم شاعر عرفناه لقرون ، وهو أول من أدخل المسرحية الشعرية فى الأدب العربى ، وعندما عالج هذا النوع من الفن كان يعالج شيئاً غريباً عن تقاليد أدبنا العربى ، فاضطر إلى أن يتجه إلى الأدب الغربى متأثرا بكتاب المسرح الفرنسيين ، وبشكسبير فى اختياره لقصص رواياته ، وفى معالجته لشخصياته ، وعلى الرغم من أن شوقى قد تأثر بكتاب الغرب إلا انه لم يخضع لهم خضوعاً تاماً ، فقد أبت عليه عبقريته وشخصيته القوية أن تجنح إلى النقل أو التقليد ، لقد كان شاعرا مطبوعاً ذا تفهم أصيل للتقاليد الشعرية التى ورثها عن شعرا العرب ، فهو لم يحاول مثلا أن يدخل فى الأدب العربى هذا النوع من الشعر المرسل ، التى كتب به مسرحيات الغرب ، بل ظل محتفظاً بخصائص النظم العربى التقليدية .

ونجاح مسرحيات أمير الشعراء أحمد شوقى تؤكد حقيقة هامة ، هى أن اللغة العربيـــة لها من المرونة والسعة ما يجعلها قادرة على التعبير المسرحى فى سهولة ويسر ، ولقد لقى هذا اللون الجديد من الشعر المسرحى

بعد شوقي نجاحاً ملموساً على يدي عزيز أباظة ، وقبل أن تعرض رواية قيس ولبنى في مسرح الأوبرا عام ١٩٤٣ كانت المسرحيات من بعد وفاة شوقي عام ١٩٣٢ تكتب بالنثر باللغتين الفصحى والدارجة .

وقد كان شوقي يقصد إلى الموضوعات المصرية ، يؤكد بها عراقة وطنه ومجده القديم وتاريخه الحافل كما فعل في كيلوباترا وفي قمبيز . أو إلى الموضوعات العربية يصور بها مجداً عربياً مؤثلا ينعم الناس في ظله بالسلم والحب والغناء . على أن التمثيل عند شوقي وأباظة وسيلة إلى الغناء . ومسرح شوقي وأباظة على أية حال قد احتل مكانه في حياتنا وأدبنا حتى لا يعدله شيء آخر ، وصار من معالم نهضتنا الشعرية المعاصرة .

وقد ألف أبو شادي ست أوبرات غنائية شعرية هي : الزباء — احسان — بنت الصحراء — الآلهة — أردشير — اخناتون ، وهو بهذا العمل الفني الكبير رائد من رواد الأوبرات الشعرية ، فهو من أوائل الرواد لفن الأوبرا في أدبنا العربي . ويرى أبو شادي أنه سبق أمير الشعراء أحمد شوقي بأوبراته التي لم تكتب لها من الشهرة ولا من التمثيل ما كتب لمسرحيات شوقي .

والأوبرا مسرحية موسيقية غنائية وعناصرها الموسيقى والغناء والرقص والمشاهد والعرض المسرحي ، والعنصر الغالب فيها هو الموسيقى ، والأوبرا بموسيقاها ترفعنا إلى السماء ، أما الدراما فتهبط بنا إلى دنيا الناس ، ولا ننسى أوبرا عايدة للموسيقار الإيطالي فردي التي كتبها ومثلت في مصر عام ١٨٧١م ، وقد كتب إبراهيم رمزي أوبرا الهواري عام ١٩١٥ ، ومثلت عام ١٩١٦ .

وألف أبو شادى عدة قصص ومسرحيات شعرية ، ومن مسرحياته مفخرة رشيد — ومعشوقة ابن طولون — مها — عبده بك — زينب — ففرتيتى — والمسرح الشعرى عند أبو شادى أقرب إلى التمثيل منه إلى الغناء .

وبضيق بنا الوقت عن تتبع المسرحية الشعرية بعد أبى شادى من أمثال . با كثير ، وعبد الرحمن الشرقاوى ، وصلاح عبد الصبور ، وغيرهم . بل إنى كتبت مسرحية شعرية بعنوان (نشيد الصحراء) ، وهى مطبوعة عام ١٩٤٧ ، وتحكى قصة شبيهة بقصة مجنون ليلى لشوقى ، وبقصة قيس ولبنى لعزيز أباظة ، وهى قصة الحب العذرى بين ليلى الأخيلية ، وتوبة الخفاجى .

وعلى الجملة فإن المسرح الشعرى المعاصر يؤدى دوراً كبيراً وفعالا فى حياة الأمة العربية ، وتأكيد الوحدة بين شعوب العرب .

والمسرح الشعرى يجمع بين المسرح والشعر . وقد نشأ المسرح الشعرى عند الاغريق ، وظل المسرح الشعرى ينمو إلى نهاية القرن السابع عشر ، الذى هو نهاية العصر الذهبى للمسرحية الشعرية الكلاسيكية ، حيث كتبها شكسبير (١٥٦٤ — ١٦١٦) ، وكورنى (١٦٠٦ — ١٦٨٤) ، وراسين (١٦٣٩—١٦٩٩) .

ثم بدأ بعد ذلك بعض كتاب المسرح فى أوربا يكتبون المسرحية نثرا ، فى حين التزم آخرون بكتابة الدراما الشعرية مثل شلى وبايرون وكيتس واليوت .

وفى الأدب العربى دخل الحوار القصصى على يدى عمر بن أبى ربيعة ،

وهذا الشعر القصصي شكل نواة للشعر الدرامي ، الذي يتطور على يدى شوقي وعزيز أباظة وبا كثير والشرقاوى وعبد الصبور.

ولغة المسرح الشعرى تتفاعل مع الفكر والعاطفة .

ومن الشعراء من كتب مسرحيات نثرية ، بدلا من المسرحية الشعرية كالبياتي في (محاكمة في نيسابور) ، على أن الالتزام بأصول الكتابة المسرحية يجعل من شوقي في مجنون ليلى شاعرا غنائيا لا مؤلفا دراميا[1] في رأى نقاد المسرح .

(١) المسرح الشعرى ، عبد الستار جواد — منشورات العراق — وزارة الثقافة والاعلام العراقية — الموسوعة الصغيرة — عدد ٤٩ — عام ١٩٧٩ ، الشعر المسرحي للدكتور كمال إسماعيل — طبع الهيئة العامة للكتاب في مصر .

زكى قنصل

أحد أعلام شعراء المدرسة المهجرية المعاصرة

— ١ —

زكى قنصل من معالم الحركة الشعرية المعاصرة فى المهجر الأمريكى الجنوبى ، حيث يقيم فى بوانس آيرس بالأرجنتين منذ وقت طويل ، ويتميز شعر زكى قنصل بالموسيقى وروح العروبة وبالصور الجميلة ، والأخيلة الساحرة ، وبأنه يمثل تمام التمثيل روح شاعر فنان أصيل موهوب .

ولزكى قنصل دواوين كثيرة ، آخرها هو ديوانه « ألوان وألحان » الذى صدر عام ١٩٧٨ فى بوانس آيرس ، وذلك بعد دواوينه الأربعة التى أصدرها من قبل ، وهى :

شظايا — نور ونار — عطش وجوع — سهاد . ولدى الشاعر عدة دواوين أخرى مخطوطة لا تزال تحت الطبع .

والشاعر من أخصب شعراء المهجر الأمريكى الجنوبى ، وهو ولفيف من الشعراء المهجريين ، يقيمون فى أمريكا الجنوبية ، فى البرازيل والأرجنتين وشيلى . وغيرها ، وقد طارت شهرتهم وذاعت شاعريتهم ، واشتهر شعرهم فى كل مكان .

ويمثل زكى قنصل الشاعر التيار الشعرى المحافظ الأصيل ، تيار الكلاسيكية العمودية ، الذى يحترم الأصالة والموهبة والتقاليد الفنية العمودية للقصيدة الشعرية ، ويحافظ عليها ويدعو إليها ، ويقف فى مواجهة الشعر الجديد ، يعلن رفضه له بكل مناهجه وأشكاله ، حتى لقد كتب على الديوان : (شعر تقليدى رجعى فيه كل عيوب الشعر القديم) .

والشعر عنده كما يقول :

الشعر وحى وإيمان وعاطفة   فمن يكن عاطلا منهن فليدر
لا خير في القول تهذارا وشعوذة   شتان بين بريق الآل والمطر

بل الشعر عنده هو حياته ، وأعز ما يحرص عليه :

كرست للشعر عمرى لا أخون له   عهدا ، ولا أرتضى فى حبه بدلا
قل للذين على أقداسه وغلوا   طريق عبقر مسدود لمن وغلا
ليهزأ الشعر من رهط إذا نظموا   عصى البيان هوانا وانطوى خجلا

ولقد تأثر الشاعر بالشعر العربى القديم ، وبشعر المتنبى خاصة ، وبالشعر الحديث ، وبشوقى من بين الشعراء ، وبمدرسة المهجريين فى الشمال والجنوب، وكان امتدادا نبيلا لمدرسة المحافظين من الكلاسيكيين الجدد ، ذوى الموهبة والأصالة والطلاوة والطبع والشاعرية . وشوقى هو أكبر رواد هذه المدرسة ، التى تحافظ على عمودية القصيدة ، وتهتم بالتراث الشعرى ، وتولى القافية عنايتها ، وقد تراوح شعره بين القصيدة والموشحة ، ويولى الموضوعات الجديدة عنايته ، ويهتم بالأسلوب والصياغة ، ويرجع إلى الشعراء القدامى والمحدثين والمعاصرين ، ويفيد من شاعريتهم ومن تجديداتهم .

والشاعر يرجع إلى المتنبى طويلا ، يتأثر به ويأخذ عنه ، ويرجع إليه ، وفى الديوان قصيدة من أطول قصائده عن المتنبى ، يقول فيها مخاطبا المتنبى :

قبست منك أمانيلا غلت ثمنا   إن كان غيرى لم يعرف لها ثمنا

ويقول فيها كذلك يصور مدى اهتمامه بديوان المتنبى وقراءته له ، وإفادته منه :

يامن فتحت عَلَى ديوانه بصرى ... وَلم أفارقه فى حـــل وفى سفر
لكم سهرنا معا حتى الصباح فلم ... تمـــل منى ولم اتعب من السهر
أقضى إليك بأشجانى فتؤنسنى ... بلا ملال وتأسونى بلا هذر
إذا استزدتك لم تبخل على بما ... يردعنى عوادى الشك والحذر
تحيى بعطفك آمالى وتنقذنى ... من عثرة الفكر أومن عثرة النظر
رسمت فى الشعر درباً فاهتديت بمن ... بغنى المسافر عن شمس وعن قمر
زكا بيانك صهبـــاء وفاكهة ... فلست فى حاجة للخمر والثمر
الشعر وحى وإيمان وعاطفة ... فمن يكن عاطلا منهن فليذر

ذلك يدلنا على أن المتنبي هو المؤثر الأول فى شعر وشاعرية الشاعر زكى قنصل .

وفى الديوان قصيـــدة يرد فيها على الذين ينتقصون من مكانة شوقى وشاعريته ، وفيها يقول :

يا هازئين بشوقى لا ألومكم ... ماقيمة الشمس فى رأى الخفافيش
جناح شوقى مراقى النجم مسبحه ... فكيف يدركه ديك بلا ريش

ويدلنا ذلك على منزلة شوقى فى نفس الشاعر وعلى تأثره به وبشعره ومنهجه فى نظامه القصيد .

وفى الديوان قصائد عدة قالها الشاعر فى زملائه من الشعراء المهجريين فى مختلف المناسبات كرثائه لصيـــدح وإلياس فرحات وشفيق معلوف وكقصيدته التي وجهها تحية للشاعر القروى ، وغير ذلك .

وفى مطلع الديوان قصيدة بعنوان (رجعى) ، يقول فيها :

° * °

أنا يا قـوم رجعى — وان أغضبت (لينينا)
سلوا تجدوا على شكلى — ملايينـا ، ملايينـا
أنا يا قـوم رجعى — أحب الفن للفن
أنـا فى الإنس جنى — وأنسى مـع الجـن
أقول الشعـر تفريجـا — لما فى النفس من ألم
كبت قدمى فلم أحزن — وأحزن ان كبـا قلمى

وفى آخرها يقول :

أنـا يا قـوم رجعى — على عينيك يا تاجـر

والشطر الأخير تعبير عامى ، يجرى على ألسنتنا فى مصر ، ولم أقرأه لشاعر إلا لشاعرنا زكى قنصل ، وهو يفيد عدم المبالاة بشىء فى إعلان رجعيته . والقصيدة مسبوقة بقصيـدة للشاعر محمد على الحومانى عنوانها (أنا رجعى) وهى منشورة فى ديوان له .

وتدل القصيدة أيضا على محافظة الشاعر على عمودية القصيدة ، لايخالف هذه العمودية أبدا وفى المقـدمة التى كتبها الشاعر للديوان أن الشعر لا يستغنى عن الوزن والقافية ، وأن من الجناية أن نشعل فيهما النار بحجة أن الموسيقى الداخلية تقوم مقامها ، وتغنى عنها ، فالموسيقى الداخلية أسطورة لاتثبت للامتحان ، بل هى على طريق الافلاس ان لم تـكن قد أفلست وانتهى أمرها .

وفى قصيدته رثاء إلياس فرحات يقول الشاعر فى أبيات كثيرة ان دعاة الشعر الجديد يعيثون فى الشعر العربى فسادا . ويحزن الشاعر فى قصيدته (أزكى الخمور) التى نظمها فى استقبال الكاتب المهجرى الخالد نظير زيتون حين زار الارجنتين ، لانتهاء العصبة الاندلسية التى قامت فى البرازيل

بريامة شفيق معلوف، وينوه بجهاده النبيل من أجل الأدب الأصيل، ويقول:

أفنى البيان العذب والقلم الذى ... يشدو فيخجل جاحظ وجرير
حدث وحدث ما استطعت وقل لنا ... كيف انطوى عهد هناك منير
ماحل بالروض الاغن وما دهى ... أطياره؟ أفصاحته دبور
وَاها عليها (عصبة) ميمونة ... واليوم يغمر أفقنا الديجور
سكتوا كأن لم ينشدوا أم اللغى ... أحلى وأروع ما تكن صدور
سكتوا كأن لم يحملوا علم الهدى ... للمدلجين ويسبحوا ويطيروا

وفى قصيدته عن المتنبى يحزن الشاعر كذلك لانطفاء جذور الشعر المهجرى، وضعف صوت شعرائه، ويتألم لمصير الأدب المهجرى عامة فى بلاد المهجر الأمريكى الشمالى والجنوبى، ويقول:

كانت لنا دولة زهراء وارفة ... شرقية الروح قحطانية العلم
غزت بآياتها الفيحاء وافتتحت ... شبه الجزيرة، واستولت على الهرم
ياشاعر الدهر غابت شمس دولتنا ... ماذا تفيد المعنى آهة الندم

* * *

— ٢ —

والديوان يحتوى على أنماط عدة من الشعر فمن شعر الحكمة إلى شعر الحنين، والرثاء، والوصف، والطبيعة، وشعر الحب والوجدان، والشعر الانسانى، والاجتماعى والذاتى، وسوى ذلك مما سنتحدث عنه بقليل من التفصيل.

ويبلغ شعر زكى قنصل فى الحنين إلى الوطن المدى، وغاية الجمال والروعة، لأنه ينبع من قلب صهرته الآلام، وعصفت به يد الأيام.

يناجي الشاعر الشام فى قصيدته الملهمة (ياشام) التي نظمها عام ١٩٧٤ فى عيد الجلاء السورى، فيقول :

حياك مغترب يا شـــام حبيه	لاتتركيه يقاسى ما يقاســيه
عيناك ملتقاه الشعر فانطلقت	تسامر المـــلأ الأعلى قوافيه
تقاذفته رياح البين وانطفأت	— لولا بقية إيمان — أمانيه
قالوا: تغرب ، فأرض الله واسعة	والخير فى القرب موفور لراجيه
إن لم يلن مضجع الإنسان فى وطن	فالهجر من علة الحرمان يشفيه
ما كان أسخفنى لما استجبت لهم	واغتر طرفى بتزوير وتمــويه
أيقنت بعد فوات الوقت أن يدى	غاصت على الشوك لا فى الورد تجنيه
ماذا انتفعت ولم أبرح بمغتربى	حثالة الناس فى أنظار أهليـه
مهما بنيت قصـور العز شامخة	لم ينج عرضى من نهش وتشويه
مالى والمال لا ينفك يرخصنى	عند الأنام ولا أنفـك أغليه
ضيعت عمرى فى وسعى وفى عمل	فما سؤالك عن حالى وماضيه

وهى ملحمة حافلة بالألم والأنين والحنين والدموع والندم ، ويستمر الشاعر فى بكائه حالما بالعودة إلى وطنه ، وبقبر له فى ثراه .

ومن قصيدة أخرى له عنوانها (توأم الفردوس) يقول الشاعر متحدثاً عن غربته وشقاته فيها ، فى حنين ، وأنين عاصف :

حتام أخنق غصـــــاتى وانتظر	طال الطريق وأوهى عزمى السفر
جارت على النوى واستنزفت كبدى	فكيف يضحك فى قيثارتى وتر
ويح الغريب لكم أغرته بارقة	وكم تنازعه التطـواف والسهر
نهاره عرق بالليـــــل متصل	وليـــــله سفر فى إثره سفر

يفنو تهدهده الأحـــلام زاهية ويستفيق فـــلا يبقى لنا أثر
يا شام لولا طلاب المجد ما انتثرت في الشرق والغرب هدى الأنجم الزهر
ياشام باسمك كم غنوا وكم هزجوا ويعـــلم الله كم أنوا وكم زفروا

ويحيى في القصيدة الفيحاء (دمشق) ويقول لها :

أهـــوى ترابك تبراً لايقاس به تبر ، وكيف يقاس التبر والمدر

ويتحدث عن بردى ويصفه :

مياهه فضة تجرى على ذهب من زان قاعك بالعقيان يانهر ؟
واهاً على ربوة بالحسن كاسية يزهى على كل عشب عشبها النضر
واهاً وماذا تفيـد الواه مغتربا يكاد يفلت من راحاته العمر ؟
أخاف والشوق يطويني وينشرني يقضى المشوق ولا يقضى له وطر

وفي قصيدته في المتنبي يخاطب شاعره الأكبر فيقول :

ناشدتك الله حرك ريشي فأنا كالميت، بل أنا ميت مزق الكفنا
أحببت أهلي ولـكن ضاق بي وطني فقلت أجعل دنيا الله لي وطنا
وسامني زمني مالا يطاق فـلم أملأ فمي زبدا أو ألعن الزمنا
حرية المرء كنز ليس يعـدله ماحاز قارون من مال وما اختزنا

* * *

ويعتاده الحنين إلى الوطن في أكثر قصائده ، ففي قصيدة « المتنبي » يقول:

ذكراك هاجت إلى الأوطان أشواقي هل تنشف الدمعة الحرى بآماقي
ياشاعر الدهر هاض البين أجنحتي فإن شـكوت فمن أعماق أعماقي
مصيبتي أن قلبي لم يعتق يدا تسدى إليه ، ولم يحنث بميثاق

الشوق يزعجني والشوق يحصدني ويحي أليس لداء الشوق من راق
وآها لو اجتمع الأحباب في بلد لما توزع قلبي بين آفاق
قضيت عمري أسعى في منا كبها والحظ يسعى معي ولكن بلاساق

ويذكر حمص مهد طفولته ، وأحلام صباه ، وهي موطن الكاتب الخالد نظير زيتون ، الذى كانت تربطني به صلات أدبية وثيقة : وذلك في قصيدته (أحب بني أمي) التي أنشدها في حفل أدبي بالنادي الحمصي في العاصمة الأرجنتينية ، فيقول :

سأقطع مابيني وبينك من بحر وأجتاز مابيني وبينك من بر
وانشق من رياك يا حمص نفحة تجدد من عزمي وتشرح من صدري
أحب بني أمي وإن هدروا دمي وأمحضهم صفحاً وان جهلوا قدري
لئن أنكروا أني ولدت بمهدهم فيارب اجعل في طريقهم قبرى

* * *

وهكذا نجد الشاعر يتحدث بوجدانه وعاطفته وحنينه وهيامه عن وطنه مشوقا إليه ، يود العودة له ، ولو لقبر له فيه .

وفي هذا الجانب من جوانب الإلهام والشاعرية نجد الشاعر مخلصاً متألقاً متفوقا . ومن حبه لمهد طفولته حمص ولوطنه سوريا ، أحب أرض الشام ، وأحب لبنان ، وهتف به في شعره ، وقصيدته (أبو النور) في لبنان جميلة ، ويقول فيها .

ياأهل لبنان لاتزهوا بجنتكم لنحن بالروح فرع من أهاليه
نهفو إليه كما نهفو إلى بردى ونرتوي منه ، بل بالدمع نرويه

ومن قصيدته (في محراب العروبة) يقول :

مهما نأينا فلن ننسى ملاعبنا دمي ودمعي لأوطاني وأترابي
إن كان شردني عن أيكها قدر ففي عيوني رياها وجاباني

وقصيدته « الجبل الخالد » التى أنشدها فى عيد لبنان عام ١٩٧١ ، من أجمل قصائده ، فى الحب والحنين إلى الشام ، ويقول فيها :

يشهد الحب لم أغب عنك يوما ... كيف ينأى عن أيكه الكروان
وطن الشعر والهوى لا تلمنى ... إن عصانى فيمن أحب بيانى

ومن القصيدة نفسها أيضاً :

حان يا قلب أن تعود إليه ... حان أن ترتمى على شاطئيه
عبثا تنشد السعادة إن لم ... ينفجر عطاؤها من يديه
عبثا ترقب الصباح إذا لم ... يتلألأ سناه من عينيه
ليس هذا البياض ثلجا ولكن ... هو تاج العلى على مفرقيه
سوف تفنى الجبال يوما ويبقى ... وحده واقفا على قدميه

وللشاعر قصائد عدة فى هذا المضمار ، نذكر منها قصيدة (تفاح لبنان) ، وهو دائم التذكار للبنان ، كلما ذكر وطنه وذكر الشام ، حتى ليقول :

قالوا ، ولبنان هل تنساه ؟ قلت لهم ... هيهات ينسى ليالى عزه الوتر
لى فيه ألف أخ طابت شمائله ... وألف أخت هم الأطياب والزهر
ذكرت ماضيك يا لبنان فأتلقت ... فى خاطرى صور واستيقظت صور
هذى سرايا العلى من شطك انطلقـ ... ـت تغزو بإيمانها الدنيا فتنتصر
لم تحمل المهد للاعناق بل حملت ... رسالة النور فاستهدى بها البشر
إن فاخروك بماض من مآثرهم ... فأنت مبتدأ فيهم وهم خبر

* * *

ويذكر حبيبته (غلواء) فى قصيدته (تفاح لبنان) فيقول :

يا حلوة الروح والعينين ما برحت على شفاهى من عينيك آثار
تصرمت بيننا الأسباب وانقطعت رسائل تحمل السلوى وأخبار
ضاقت بى الدار واعتلت بشاشتها لولا ثيابك ما ضاقت بى الدار
هل تذكرين وراء النهر خلوتنا طيفين ينفحنا بالطيب آيار
نغوص فى الليل يطوينا بجيئته كأننا فى ضمير الليل أسرار
يا حلوة الروح يا شامية نثرت فى دربى الغار يفدى فعلك الغار
ألهمتنى من مجانى عبقر دررا يكاد يحسدها فى الخلد بشار
ماذا أزيد على ما قلت فيك وما كتمت عنك وما غنته أوتار
تفاح لبنان من خديك نكهته كيف السبيل إلى خديك أشعار
لذائذ العمر يا غلواء قد ذهبت وما تبقى غصات وأكدار

ويذكر غلواء كذلك فى قصيدته (ضلال الهوى) فيقول :

ما حيلتى بفؤادى كلما ذكرت غلواء صفق تحنانا لمرآهـا

ولو قال : لذكراها » ، لكان أروع

يقضى لياليه فى استجلاء صورتها فإن تعافى ففى الأحلام يلقاها
كم ذا أحاوره كم ذا أداوره عنها ، فيحلف لا يشتاق الاهـا
كأنها بين خلق الله مفردة يتيمة من عبير الخلد سواهـا

وفى قصيدته (هيكل الجمال) يذكرها ، « غلواء » الحبيبة ، فيقول :

ما كنت أعرف قبل رؤيتها ما السحر أو ما يفعل السحر
هام الجمال بها فألبسها ثوبا تمنى بعضه الفجر
والشعر جن بها فضحكتها شعر ، وهز خصرها شعر

أفبالغراب تبيع بلبلهـا غلواء ؟ كم فى قولهم هـذر
فالورد لولا الشوك يحـرسه ما ضاع من أردانه العطـر

وكذلك يحن إليها فى قصيدته (يا قائد الركب) فيقول :

غـدا تطير إلى الفيحاء غلواء هل يلتقى بعدها قيس وليلاء ؟

وفى قصيدته (أخت الشمس) يهيم بحلوة الأرز ، وينسب بها ، ويحن بحبها ، فيقول :

يا حلوة الأرز ، بل يا حلوة العرب إنا سكرنا بلا خمر ولا عنب
من جنة الخلد هذا الصوت يغمرنا بالشعر بالعطر بالأنداء بالذهب
الفن يجمعنا روحـا وعاطفة ما الفرق بين رحيق الفن والأدب ؟
أقول والأفق قد مالت بشاشته للشمس غيبي فأخت الشمس لم تغب
تراقص الليل إذ غنيت من فرح وصفق الفجر من زهر ومن طرب
الفن روض نضير كله عجب وأنت أعجب ما فى الروض من عجب

وحلوة الارز هى محبوبته (غلواء) التى تمنى لها الشعر والحب والجمال .
وفى قصيدته (ليلة حب) يناجى « حلوته » حلوة العينين ، مناجاة الصب المستهام ، فيقول :

أغمضت جفنى فوق نحرك هائما وغفوت هائمة على قبـلاتى
آمنت منـذ جنيت أول قبلة بالحب ، إن الحب حبل نجاتى

وفى قصيدته (تسبيحة للجمال) يتحدث عن الجمال والحب فى فلسفة صوفية عميقة .

° ° °

وللشاعر فى الجانب الإنسانى وفى شعر الإنسانية الكثير من الابيات والقصائد .

فى قصيدته (براعم الفجر) يتحدث إلى أطفال القرن الحادى والعشرين فى إنسانية صافية ، فيقول :

إن رفعتم على الرؤوس لواء فليكن للإخاء لا للعداء

إن من ينتمى لهى بن بى مثل من ينتمى لماء السماء

أى فرق بين عبد ومولى كلنا يا بنى من حواء

يا صغارى لا تنظروا للوراء نحن جيل الحضارة الحمراء

وفى قصيدته (الدوحة العارية) يتحدث فى إنسانية غامرة عن هذه الشجرة التى ذهب شبابها ، وكذلك يتحدث عن (ساعى البريد) ، وعن (منضد الحروف) وعن الغانية الحسناء التى زلت بها القدم ، وعن بائعة الزهر ، وعن البناء ، وعن (القصر المهجور) حديثا إنسانيا رفافا .. وشعر الشاعر ينطق عن الهام إنسانى رفيع ، وينبع من قلب صهرته الآلام ، حتى لقد أحس بآلام البشر وغير البشر وبهمومهم وأحزانهم ، إحساسا عميقا .

والشاعر يؤمن بالعطاء من أجل الإنسانية ، كما يصوره فى قصيدته (الموسجة الخضراء) ، ويؤمن بالمحبة للناس كما فى قصيدته (أحب جارى) ، التى يقول فيها :

أنا الكثير باخوانى ، وإن ذهبوا
عنى فما أنا فى دنياى من أحد

الناس نائلة والأرض دارهم لكن أزكى ثرى عندى ثرى بلدى

ويذكر عطاء الأديب من أجل الإنسانية فى قصيدته (الأديب) التى يقول فيها :

زرع الحب غـــذاء للورى وكسا الصحراء زهرا ونسم
عشق الحسن ولـكن مثلـما تعشق النخلة ريحان الألم
هو كالشمس إذا ما طلعت خطرت بين زهاد وقمم
رقة العـــذراء فى بسمته وإذا ثار فقـــل : هاج الأجم
ألف الهم فـلو فارقـــه حـل فيـه لفراق الهم هم

وكذلك نجد هذا العطاء الإنسانى فى مثل قصيدته (هواجس جنـدى) التى يصور فيها أحزان جندى عاد من الحرب إلى قرينته فوجدها قاعا صفصفا، لا حياة فيها ولا حركة .

وهذا الجانب من الشعر كثير فى الديوان ، مما تحدث فيـه الشاعر عن نفسه وهمومـه وأحزانه وأعماق ذاته ، وقد سبق ما يصلح للاستشهاد به وإن ذكر فى مقام آخر ، كقصائده فى الهيـام ، وفى الحنين ، وفى غيرها .

فهو يبكى الشباب فى قصيدته (ذهب الشباب) التى يقول منها :

شبنا ولـكن لم نزل بالروح فى شرخ الحياة

ويصف عاطفة الأبوة القوية فى قصيدته إلى ابنه فى فجر طفولته التى يقول منها :

يبـكى فأبـكى بلا داع ولا سبب
وإن تضاحك طار القلب من طرب
أرنو إليه بطرف هادىء قلق كأن قلبى مشدود إلى هدبى

وغير ذلك من شعره الذاتى ، وهو كثير فى الديوان :

والجانب الاجتماعي كثير في الديوان ، كما في قصائده : (نادوعلى علم) - مطالع الأضواء — من كرمها تجنى — طار قلبي — في النهرين — خذها قبلة — يا صاحب العيد — رسول الأرز — تحية ودعابة – وسوى ذلك — وكما في مراثيه لصيدح – ولشفيق معلوف — ولالياس فرحات ، ولغيرهم ، ومثال ذلك قصيدته (رسالة الحب) في ذكرى جبران .

وفي هذا الجانب نجد الشاعر رجلا يفيض بالحب قلبه ، لكل الناس ، والأدباء من بينهم خاصة ، فالحب ينبع من أعماق قلبه ، ولا تبعده المناسبة عن الشعور القوى العميق بالأحداث والحياة من حوله ، وحين تضيق به الحياة يقول من قصيدته (رحلة إلى القمر) يتمنى أن يصعد إلى القمر ، وأن يعيش فيه .

سئمت دنيـــاى يجنى شهدها بشر
بغير سعى ، ويجنى صابهـــا بشر

إنى لأحسد رواد الفضاء ، فهل ... يتاح يوما إلى مغناك لى سفر ؟
لاخيب الله آمالى، ولا انطفأت ... نار بقلبى ما تنفك تستعر
ترنو إلى نجوم الليل حائرة ... عجبى، فهل جاءها عن رحلتى خبر ؟
خذنى إليك فدربى كله إبر ... وهل يطاق طريق كله إبر ؟

والديوان في جملته يقف مع الأصالة والشاعرية ، بكل قيمها وموازينها وإن كان هذا لا يمنع أن نقول إن للشاعر في بعض شعره بعض التجاوزات الفنية واللغوية، كقوله :

أنا يا قــوم رجعى ... على عينيـــك يا تاجر

على ما مرذكره .

وكقوله : لا تتركوا البيت فى أيدى حراميـة والواء بالتشديد ، لا بالا خفيف كما جاء فى البيت

وكقوله :

كنوز الأرض لا تسوى دموع شريدة ثكلى

* * *

وأخيرا ، فإن الديوان صورة رائعة لشاعرية موهوبة ، وقريحة ، ذكية ، وعقل خلاق .. وهو من الدواوين التى يجب أن يقرأها الشعرا ، وأن يتأثروا بكل ما فيها من إبداع وخيال وتصوير وصياغة جميلة ، وموسيقى عذبة وفن أصيل .

* * *

فن شوقى الشعرى

— ١ —

الشعر فن الموهبة والخيال والمقدرة اللغوية ، والصورة الشعرية الجديدة ، وفى كل ذلك كله لشوقى السبق على الشعراء ، ومن أجلها ملك زمام الجماهير ، واستحوذ على إعجاب النقاد ، ونال إمارة الشعر بين شعراء عصره جميعاً .

— ٢ —

١ — وأمامى قصيدة شوقى « ذكرى المولد » ، هذه القصيدة البائية الخالدة ، فى ذكرى مولد رسول الله ﷺ : وهى من بحر الوافر ، وتبلغ واحداً وسبعين بيتا ، وقد نظمها شوقى فى منفاه ، يدل على ذلك روح الحزن والحنين السائدة فى القصيدة وما تضمنته من شكوى الزمان ، ومن الدعوة إلى البر والسلم ، ومن الإيمان العميق المتمثل فى كل معنى من معانيها . . . إلى ما تضمنته من تمجيد رائع لميلاد الرسول الكريم ، محمد صلوات الله عليه .

٢ — فى الأبيات العشرة الأولى من القصيدة حنين الشاعر إلى أهله فى مصر ، وهو فى منفاه فى الأندلس . . سلا الشاعر الجمال ، وعزف عن الحب ، ولعل له عتابا على الجمال :

سلوا قلبى غداة سلا وطابا
لعل على الجمال له عتابا

وفى الحوادث الكبار يسأل من له به عقل . ولكنه لم يترك له الجمال عقلا ليسأله : ماذا دهاك أيها الشاعر ، وكان الشاعر إذا سأل قلبه يوما

عن سر الأحداث التى لاحقته ، تولى الدمع الجواب نيابة عن قلبه ، وقلبه بين الضلوع . وهو من دم ولحم ، واه ضعيف ، لأنه فقد الشباب ، ولو كانت القلوب مخلوقة من حديد ، لما حملت ماحمله من العذاب ، عذاب المنفى ، والبعد عن الأحباب ، وفراق الأهل والوطن .

ولو خلقت قلوب من حديد   لما حملت ـ كما حمل ـ العذابا

ويذكر أحبابه الذين صفا بهم العيش ، كأنما سقى بوصل الرحيق المختوم من السلاف ، وكان الوصل بهم قصيراً قصيرا ، قصر حباب الخمر ، الذى يطفو فوق الكأس ، ولا يلبث أن يذوب .

وأحباب سقيت بهم سلافا   وكان الوصل من قصر حبابا

ونادم مع أحبابه الشباب على بساط من اللذات ، مختلف الشراب والطعم والمذاق .

ولكن الزمان عاد ، فسحب البساط من تحته ، وإذا هو فى المنفى ، وإذا الحياة والجمال والوصال وكل شىء سراب ، وكل بساط عيش سوف يطوى مهما طال الزمان به، ومهما طاب طعمه :

وكل بساط عيش سوف يطوى   وإن طال الزمان به وطابا

وذهب الأحباب والأيام الجميلة ، والوصال الحبيب والعيش الطيب ، وصار الشاعر كأن قلبه بعدهم غريب ، وإذا عاودته ذكرى الأهل ذاب شوقاً وحنينا .

عشرة أبيات بلغت غاية الجمال والرقة فى تصوير أحزان الشاعر لفراق أهله وأحبابه وحياته الحزينة فى وطنه ، وعيشته عيشة الغرباء فى منفاه .

وما أجمل الصور الجميلة فيها ، وما أجمل مسحة الحزن والألم السائدة الغالبة عليها ، وبكاد الشاعر يبكى ، وهو فى أعماق قلبه حزين مجروح

ولكنه العظيم الذى لايحنى الرأس مهما طاولته أو صارعته أحداث الزمان .

٣ — وفى العشرة الأبيات الثانية يتحدث الشاعر عن خلق الزمان وطبعه ، اللذين لايعرف كنههما إلا من كان مثل شوقى ، ممن فقد أحبابه وأصحابه ، وفارق وطنه ملتاعاً حزيناً ، منفياً . . ويبدو أن الشاعر لم يذكر نفيه وفراق الوطن لئلا يهيج دولة الاحتلال عليه ، وهى الدولة العظمى آنذاك ، والتى تملك الجيوش والأساطيل ، والتى لاتغرب الشمس عن أملاكها .

ولا ينبيك عن خلق الليالى ... كمن فقد الأحبة والصحابا

ثم يصور الدنيا بالأفعى التي تبدل كل وقت جلدها ، وتلبس ثوباً غير الأول كل لحظة ، وليس كالحيات يقظى وهى هاجعة ، وتدس نابها وهى لم تعلن حرباً ، ولم تفارق السلام ، وهى من العجب تشيب عاشقيها وتفنيهم وإن كانت لاتزال شباباً لم يصبها الهرم والشيخوخة . وإذ اغتر بها قوم فإن الشاعر لم يغتر بها ، بل قد قتلها خبراً :

فمن يغتر بالدنيـــا فإنى ... لبست بها فأبليت الثـــيابا

والشاعر مهما ضحكت الدنيا إلى الأغبياء يقابلها بضـــحك العاقل المتغابى .

لها ضحك القيان إلى غبى ... ولى ضحك اللبيب إذا تغابى

فالدنيا لها ضحك الفتاة إلى غبى ، والشاعر يقابل ذلك بضحك العاقل المتغابى أمامها .

يقضى الشاعر أيامه بروضه الدنيا ، ولكنه جنى منها الورد والشوك ،

صفت حياته حينا ، واضطربت بها الأمواج حيناً آخر ، وكأس الحياة ذاق الشاعر منه الشهد والعلقم .. وما أجل وأجمل هذه الصورة الرائعة :

جنيت بروضها وردا وشوكا وذقت بكأسها شهدا وصابا

فالحياة كما صورها الشاعر روضة ، وقد جنى منها وردها وشوكها ، وهى كأس ، وقد ذاق الشاعر منه الشهد والعلقم .

وفى نهاية الأمر ليس هناك حكم غير حكم الله ، ولا باب إلا باب الله ..

ولم أر غير حكم الله حكما ولم أر دون باب الله بابا

وليس هناك ما يعظمه الشاعر إلا العلم والأدب ، وليس هناك من يكرمهم إلا الزعماء الذين يعملون لخير الشعب .

وفى هذه الأبيات يبلغ الشاعر الغاية من الحكمة وتصوير الدنيا ، وتصوير عظمة نفسه ، وخلاصة حياته . فى أسلوب من الوداعة والرقة والتواضع والزهد .

٤ — ويلى ذلك ستة وعشرون بيتا فى الدعوة إلى البر وإنفاق المال فى الإحسان ، وفى تصوير عظمة الإسلام ودعوته إلى البر بالفقراء والأيتام ، فربما نبغ اليتيم فكان عظيما ، وكان زعيما ، ويدعو الشاعر إلى العلم ، وإلى الرفق بالشباب ، وفتح منافذ الأمل والطموح أمامهم ، فالله عز وجل لم يجعل المال وقفا على الغني ، بل دعا الغنى إلى مشاركة الفقير آلامه والتخفيف عليه ، ودعا إلى التكامل ، فالمال مال الله ، هو للناس جميعا ، كالماء والهواء والضوء ، إن لله أراد ألا يحرم منها كلها أحد ولم يجعلها الله وقفا على الأغنياء وحدها دون الفقراء ، وتبدأ هذه الأبيات بقول شوقى :

ولم أر مثل جمع المال داء ولا مثل البخيل به مصابا

فلا تقتلك شهوته ، وزنها كما تزن الطعام أو الشرابا

ويدعو إلى البر ، دعوته إلى أن يحسب الإنسان حساب الليالى وتقلباتها ، فيعمل من أجل نفسه وبنيه ، ويعمل من أجل الفقير واليتيم كذلك ، بأداء الزكاة ، والانفاق فى وجوه البر والخير ، والذى يجعل حب المال عديلا لحب الله يضل فى هواه ويخيب .

ومن يعدل بحب الله شيئا   كحب المال ضل هوى وخابا

وفى تصويره لحكمة الاسلام وعظمته وكل مبادئه توصيته بالفقراء يقول شوقى :

يريد الخالق الرزق اشتراكا   وإن يك خص أقواما وحابى

والاشتراك فى الرزق بين الفقير والغنى بإعطاء الفقير حقه الذى فرضه الله له من مال الغنى بالزكاة والصدقة والإحسان ، مهما خص الله بالمال أقواما وحباهم به ، أو حاباهم به ، على حد سواء . لكنه فرض عليهم إخراج الزكاة والبر بالفقراء ، لأنهم عيال الله .

وما أجمل ما يستدل شوقى على ما قاله من أن الماء يجرى فيمضى إلى الأكواخ والقصور — القباب — وأن الشمس تغشى قصور كسرى كما تغشى الصحراء اليباب ، وأن الماء تروى منه الآساد والكلاب على حد سواء وأن الموت يصيب الناس والرسل على حد سواء .

وهذه الأبيات كلها فيها حكمة وزهد ، وفيها دعوة إلى التكافل والبر ، والخير ، وإلى العناية بالشباب من الفقراء والأيتام .

٥ — ويلى ذلك سبعة عشر بيتا فى المولد النبوى العظيم ، وفى تصوير عظمة الرسول ، وهى أبيات تفيض بالإيمان والإشراق الروحى ، والسمو النفسى ، وتصوير عظمة الله وحكمته فى خلقه :

وأرسل عائلا منكم يتيما … دنا من ذى الجلال فكان قابا
نبى البر ، بينه سبيلا … وسن خلاله وهدى الشعابا

وفيها يقول أبياته الخالدة :

وكان بيانه للهدى سبلا … وكانت خيله للحق غابا
وعلمنا بناء المجد حتى … أخذنا إمرة الأرض اغتصابا
وما نيل المطالب بالتمنى … ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

وفى المولد يقول :

تجلى مولد الهادى وعمت … بشائره البوادى والقصابا

أى البوادى والحواضر :

وأسدت للبرية بنت وهب … يدا بيضاء طوقت الرقابا
لقد وضعته وهاجا منيرا … كما تلد السماوات الشهابا
فقام على سماء البيت نورا … يضىء جبال مكة والنقابا
وضاعت يثرب الفيحاء مسكا … وفاح القاع أرجاء وطابا
أبا الزهراء جاوزت قدرى … بمدحك بيد أن لى انتسابا
مدحت المالكين فزدت قدرا … فحين مدحتك اقتدت السحابا

وهى أبيات حافلة بالبلاغة والبيان والسحر .

٦ — ويلى ذلك عشرة أبيات فى حالة المسلمين وضعفهم ، وأن لا سبيل أمامهم إلى التقدم إلا الأخلاق والعلم ، وما أجمل ما يقول فى مطلعها :

وما للمسلمين سواك حصن … إذا ما الضر مسهمو ونابا

وما أجمل ما يقول فى نهايتها .

وفى هذا الزمان مسيح علم … يرد على بني الأمم الشبابا

وهى حكمة خالدة على الأيام :

— ٣ —

فى هذه القصيدة ، وهى كمؤرخ لقصائد شوقى ، يتجلى فن شوقى فى نظم القصيدة ، وأساس هـذا الفن عنده ، هو موهبة الشاعر وملكته الشعرية وروحه أولا ، ثم تأتى القدرة اللغوية التى تجعل الشاعر يتخذ لنفسه معجما شعريا خاصا ، ويتخذ اللغـة وسيلة ناجحة للتعبير عن تجربته الشعرية ، وتصبح اللغة فى يديه كالعجين يشكله — وفق قواعد اللغة — كما يشاء ، وتضحى الصورة الشعرية عنـده نسيجا حيا من الفن والخيال والحقيقة .

وشوقى فى قصيدته يتخطى الشعراء إلى سـدة الشعر ، ويصعد فى معارجه مرقى بعد مرقى ، وينسج من خيوط الخيال صورة رائعة يغذيها الفـكر ، وتعمقها التجربة ، وتـكسوها ألوان البلاغة بكل الوشى والحلى الجميلة المترفة .

وشوقى لا يفوته التناسب بين اللفظ والمعنى ، ولا بين المعانى بعضها والبعض الآخر ، وحسبنا مثلا بيته المشهور :

جنيت بروضها وردا وشوكا
وذقت بـكأسها شهـدا وصابا

هـذا التناسب — بين الروض والجنى والورد والشوك ، وبين الـكأس والذوق والشهد والصاب ، مما يسميه علماء البلاغة مراعاة النظير — هو أساس الشاعرية المحلقة ، والفن الشعرى الجيد ، وبدونه يصبح الشعر هوسا وجنونا وكلاما فى الهواء ليس له ولن . . .

وكلام شوقى يستحيل أن نبدل كلمة منه بكلمة ، ولا لفظا بلفظ . .
للمانى يجمع بينها التناسب والوحدة والإخاء .

وهذا هو فن شوقى ، وهو سر معجزاته الشعرية الرائعة .

إن الفن عنده نسيج حى ، كل صورة متآخية ومتعاونة فى سبيل أداء تجربة الشاعر الشعرية ، وصياغة شوقى ورقتها وعذوبتها مثل من الأمثلة التى تعد نموذجا حيا لعظمة الشاعر والفن .

ولا ننتهى من الحديث عن فن شوقى دون الإشارة إلى أن التناسب بين المعانى عند شوقى قد يكون منشؤه التقارب والتآخى كالجنى والروضة والورد والشوك ، وقد يكون منشؤه التضاد كالفقر والغنى مثلا ، أو كقوله :

فمن يفخر بالدنيا فإنى
لبست بها فأبليت الثيابا

يريد فإنى خبير بالدنيا ، أى أنى لم أغتر بها ، وفى هذا التضاد الواضح ، أو كقوله عن قلبه :

تسرب فى الدموع فقلت : ولى
وصفق فى الضلوع فقلت : ثابا

وصور شوقى الشعرية كلها تملك الإعجاب ، وتستبد بعقل القارىء وذوقه ، فهو يقول مثلا فى ضعف المسلمين وتأخرهم .

كأن النحس حين جرى عليهم
أطار بكل مملكة غرابا

ويقول :

وأحباب سقيت بهم سلافا وكان الوصل من قصر حبابا

ويقول :

ونادمنا الشباب على بساط
من اللذات مختلف شرابا

ويقـول :

لقـد وضعتـه وهاجا منـيرا
كما تـلد السموات الشهابا

وبعد فلا أجد ما أقوله عن فن شوقى إلا أنه فن شاعر عظيم لا يأتى إلا بالفن العظيم .

* * *

حول تجديد المجددين :

الشعر الحديث والقصيدة العمودية

— ١ —

القصيدة العربية العمودية ، التي يمتد عمرها إلى آلاف السنين والتي ورثناها عن المهلهل وامرىء القيس وشعراء المعلقات . هي : التي نهج نهجها جميع الشعراء على مدى العصور حتى اليوم ، والتي أدت جميع أغراض الشعر ، وخدمت جميع قضايا العروبة والاسلام ، على اختلاف الأجيال ، والتي أكبرها الدارسون والعلماء والنقاد ، بل المستشرقون الذين ترجموها إلى كل اللغات العالمية ، حتى إن المستر : وليم جونز أكبر قصيدة المعلقات وترجمها إلى الانجليزية ، وفوه بصورها وخيالاتها وبحيويتها أيضا ، ودعا الشعراء الانجليز إلى خلق حركة تجديد في الشعر الانجليزي تأثرا بها . . هذه القصيدة خالدة ، وستبقى حية ومتجددة على مر العصور .

وموسيقى هذه القصيدة العمودية الداخلية والخارجية ، المتمثلة في الوزن والقافية ، صارت من الأصول الفنية للقصيدة العربية ، وصارت تملك ناحية التأثير الكبير في الجماهير العربية وتقود ثوراتها دائما إلى التقدم والحرية .

إن مدائح المتنبي في سيف الدولة مثلا ، لم تكن مجرد مدائح في مناسبات طارئة ، إنما كانت أغاني وطنية تمثل روح الشعب العربي العظيم ، في دفاعه عن حرياته ضد الغزو البيزنطي لبلاده ـ في القرن الرابع الهجري ـ العاشر الميلادي ـ وقصيدة أبي تمام مثلا في مدح المعتصم بمناسبة انتصاره في عمورية ـ في أوائل العشرينات في القرن الثالث الهجري ـ كانت تمجد البطولات الإسلامية الظافرة ضد جيوش بيزنطة في سهول آسيا الصغرى .

ولم يمجد الشعراء العرب على اختلاف العصور الحكام بمقدار ما مجدوا الشعوب العربية في حركتها المستمرة نحو الحضارة والتقدم ، وفي انتصاراتها ضد أعدائها في كل مكان . .

وقد تطورت هذه القصيدة العموديه ، منذ وضع الخليل بن أحمد عروضها الشعرى ، فشملت الوشحات ، وشملت الأوزان المولدة الجديدة ، وشملت ضروباً من التجديد فى القافية أحدثتها مدارسنا الشعرية المتعاقبة ، ومن أواخرها: مدرسة البعث ، ومدرسة الديوان ، ومدرسة أبولو ، ومدرسة شعراء المهجر.

بل نظم الشعراء العباسيون والأندلسيون الملاحم التاريخية ، ونظم من أتى بعدهم ملاحم فى السيرة النبوية ، ونظم الشعراء الصوفيون القصائد الصوفية الطويلة فى الحب الإلهى ، ونظم شـــوقى البردة ، كما نظم ملحمته عن كبار الحوادث فى وادى النيل وملحمته الأخرى فى التاريخ الإسلامى العظيم فى كتابه : « دول العرب وعظماء الإسلام » .

ولم تضق القصيدة العمودية — التى ورثناها عن شعرائنا ، والتى لا يزال ينظمها شـــعراؤنا العموديون حتى اليوم — صدرا بأية خاطرة أو فكرة أو غرض من أغراض الشعر والحياة ، حتى الملاحم والقصص الشعرية كتب فيها الشعراء قديماً وحديثاً .

ومع أن القصيدة لابد فيها عند علماء الشعر من أن تكون أبياتها من بحر شـــعرى واحد ، وأن تلتزم فيها قافية واحدة ، فقد نظم الشعراء المحدثون من « مجمع البحور » كما فعل أبو ماضى فى قصيدته : « الشاعر والسلطان الجائر » ، وكما فعل غنيم فى بعض قصائده وكما فعل عزيز أباظه فى ملحمته : « من اشراقات السيرة الزكية » . بل كما فعل شوقى فى مسرحياته التى أبدع فيها كل الابداع ، ووضح بها أن الشعر العربى لا يعجز عن نظم التمثيلية ولا يعجز عن الحوار وتمثيل الصراع .

وبذلك : صارت القصـــيدة يمكن أن تشتمل على عدة أوزان ، إذا تعددت مواقفها وأفكارها .

وعدد المعاصرون كذلك — من أمثال : مطران ، وشكرى ، وشعراء الديوان ، وأبولو ، والمهجر — القافية فى القصيدة الواحدة ، مجاراة لفن الموشحات الأندلسى ، وتحررا من سلطان القافية ، وجعل الكثير منهم كل مقطع يمثل تيارا فكريا مميزا فى القصيدة .

وبذلك : صارت القيود الفنية فى القصيدة ضيقة غاية الضيق ، أو قل : صارت سهلة غاية السهولة . مع أن الفن هو الفن لابد فيه من القيود ، والمثل الفرنسى يقول : « لا يحيا الفن بغير القيود » بل أن الفن فى رأيى : هو العبور إلى الانطلاق من خلال القيود .

والشاعر الموهوب لا تعوقه أبدا قيود الوزن والقافية ، كما يقول أبو شادى فى مقدمة ديوانه « الينبوع » .

« وفى تراثنا الشعرى نظام المسمط والأرجوزة والموشحة وعكس البحور ومن تنويع القافية والوزن فى القصيدة الواحدة ، مع بقاء الروح الشعرى الهيكلى التراثى لها ، والموسيقى الحلوة الرقافة المؤثرة » .

ولا ننسى : أن القصيدة العمودية بعروضها قد قلدها الشعر الفارسى والتركى ، بل والعبرى أيضاً .. كما أنها استخدمت فى الشعر القصصى والملحمى والمسرحى ، وبذلك صارت مطواعة للتعبير عن مطالب الحياة ، وأفكار الشاعر .

وقد نظم الشاعر الفرنسى : « لويس أراجون » بعض شعره على نهج الشعر العمودى ، فقسم بيته إلى مصراعين وقفاها بتقفية عربية . وعد ذلك كشفا جديدا .

— ٢ —

ولقد حدث فى الثلاثين سنة الأخيرة أن نظم شعراء الشباب قصائد

من الشعر الحر ، وبدأت الدعوة إلى هذا الشعر الحر تظهر فى كتابات كثيرة ، بل لقد غالى بعض الكتاب ، فزعم أن عمود الشعر قد انتهى إلى الأبد ، وانتهت معه القصيدة العمودية إلى غير رجعة ، وانتهى معهما الشعراء العموديون بلا رثاء أو رحمة ! ! كأنما هم أعداء لا يستريح شعراء الشعر الحر إلا إذا أجهزو عليهم .

هذه الدعوة تأثرت فى أكثر الأمر بمذهب الشاعر الأمريكى : « والت هوتمان » الذى هجر الأوزان فى معظم شعره ، ولم يهتم بالقافية .

وكان بعض الشعراء فى أوربا قد شكوا فى ضرورة الوزن للشعر ، وإن لم يلق رأى هؤلاء جميعاً أنصارا كثيرين فى الولايات المتحدة ، وفى بلجيكا .

أما فى انجلترا وفرنسا : فلم يصادفوا نجاحا يذكر . . وفى عام ١٩١٧ نشر « اليوت » : ديوانا شعريا خرج به على نظام الشعر القديم وزنا وقافية .

وشعراء الشعر الحر بدأوا فقيدوا أنفسهم بالشكل الهرمى ، تفعيلة فى البيت الأول ، واثنتان فى الثانى ، فثلاث ، فأربع ، فخمس مثلا . ثم يعودون بالعكس إلى نهاية القصيدة : خمس تفاعيل ، فأربع ، فثلاث ، فاثنتين فواحدة .

ومن الشعراء الذين ينظمون هذا الشعر الحر من يتأثرون بالطريقة القديمة ؛ فيلتزمون فى أحيان كثيرة القافية ، كنزار والفيتورى ، ومنهم من يتركها كنازك والسياب فى أغلب شعرها . .

وهكذا : صار الشاعر (الحر) لا يتقيد بنظام التفاعيل العروضية ، ولا يقيد البيت بنظام الشطرين ، وكأن التفعيلية العروضية هى الأنا للوسيقى للشعر الجديد . . بل إن منهم من ترك التفعيلة نهائيا باسم التجديد . .

وهكذا : صار الشعر الحر تغييرا كاملا لنظام القصيدة العمودية ، وأصبح

يحاول اســـدال الستار على تراثنا الشعرى كله ، دون أن يملك الموسيقى أو العروض الشعرى الذى يبرر له أن يزعم ذلك ، ودون أن يملك زمام التأثير على الجماهير ، وعلى أذواق الشعب ومشاعره . ودون أن تصمد قصيدة من قصائده لروح الفناء والفن الأصيلة .

ومع ذلك صار هذا الشعر الجديد يحطم عمود الشعر العربى بقسوة وعنف مع أن جميع النقاد العرب فى القديم والحديث حذروا من الخروج عليه ، وعدوا ماخرج عليه من النظم ليس شعراً على الاطلاق .

الشعر فى أساسه فن ، والفنون هى القيود ، ويقول نيتشه : « الفن هو الرقص بالقيود والأغلال » .

وعمر الشعر الحر أربعون عاما ، ولا يملك أية قدرة خارقة على تحطيم الجبل الأشم الذى يمثل القصيدة العمودية ، واليوت الشاعر الانجليزى يقول : « إذا رغبت أن تجدد فى الشعر فيجب أن تكون جذورك عميقة فى الماضى » . . وهذا هو الطريق الصحيحة للتجديد . .

هل صار شوقى وحافظ وعزيز أباظة وشعراء الثلاثينات ـ الديوان وأبولو ـ بل ومن عاصرهم أو سبقهم من أعلام الشعر العربى على مدى العصور ، يستحقون منا أن نرجمهم بالحجارة وندعى أنهم غير جديرين بالخلود والتقدير من أحد ؟

لقد صاحب نشأة الشعر الحر دعوات لتحطيم عمود الشعر ، ونحن نعلم أن الشعر الحر قبل أن يظهر عندنا ظهر فى أمريكا وأوربا ، ونظم منه « اليوت ، ومايكوفسكى ، وهوتمان ، وسواهم » .

كما نعلم أن فى أوربا مدارس أدبية تتبنى تحطيم القديم بحثا عن شىء جديد من مثل : التعبيريين والعبثيين وغيرهما ، وفى مجموعة : (فجر الانسانية) التى أصدرها الشعراء التعبيريون صدى لذلك .

أن أرسطو يقرر فى كتابه « الشعر » أن الفنون الشعرية الكبرى لابد أن تستخدم كل أدوات المحاكاة ، من الإيقاع والوزن والانسجام .. بينما لم يستطع الشعر الحر اثارة القارىء ولا السامع ، لفقدانه الموسيقى الخارجية دائماً وأحياناً كثيرة جداً يفقد الموسيقى الداخلية أيضاً . وقد سماه العقاد وعزيز أباظة والزيات وصالح جودت ، وآلاف الدارسين والنقاد : الشعر المنثور. وعادت نازك الملائكة فى ديوانها الرابع (شجرة القمر) الصادر عام ١٩٦٨ تتنبأ بوقوف تيار الشعر الحر ، وبأن الشعراء لابد أن يرجعوا إلى الأوزان الشطرية ، بعد أن خاضوا فى الاستهانة بها ، والخروج عليها . ولها الحق فى ذلك بعد ظهور ما يسمى قصيدة النثر ، وبعد أن أصبح الغموض والرمز والمضامين الغريبة تحيط بالشعر الجديد احاطة السوار بالمعصم ، وبعد أن صار اهتمامه بالاثارة والرمز الأسطورى والتفكير الدرامى أكثر من أى شىء آخر.

لقد حدثنا السياب أنه هو وجماعة جلسوا يوماً فى مقهى من مقاهى شارع أبو نواس فى بغداد .. وكتبوا قصيدة حرة ، توخوا فيها أن تكون خالية من أى معنى أو مضمون . وبعثوا بها إلى مجلة أدبية مشهورة ، بعد أن ذيلوها بتوقيع مستعار « سميرة أحمد العانى » ونشرت المجلة القصيدة فى مكان بارز ، وجاء بعض أدعياء النقد فصنف الشاعرة سميرة التى ليس لها وجود ضمن الشعراء المبدعين من شعراء الشعر الحر ، وتنبأ لها بمستقبل مرموق !!

ولا يزال الهجوم على القصيدة العمودية صناعة كثير من الناس فهذا صفين بسيسو يقول كما كتب فى صحيفة كبيرة : إن الشاعر العمودى يرتطم صوته وتسقط قافيته ، ويجىء الشعر الحر كالصاعقة الكهربائية ، التى تلتهم القصيده العمودية وتذروها رمادا » .

لقد ذكر العقاد أن سليقة الشعر العربى تنفر من إلغاء القافية كل النفور كما تنفر من طرح الموسيقى فى شعر الشعراء الجدد .

ولطه حسين رأى مشهور نختم به هذه الكلمة ، قال : « ان التجديد فى الأوزان أو القوافى دعوة غير منكرة وغير جديدة » . . وبالطبع التجديد فيهما غير الإلغاء . . ثم يقول : « والجدير بالبحث فى الشعر الجديد هو البحث عن توافر الأسس التى يجب أن تراعى فى الفن الشعرى ، والخصائص التى ينبغى أن تتحقق فيه ، ولا يمكن أن يعد هذا الجديد شعراً إلا إذا قام على تلك الأسس ، وتوافرت فيه تلك الخصائص ، ولست أرفض الشعر لأنه انحرف عن عمود الشعر القديم أو خالف الأوزان ، (المخالفة خلاف الإلغاء طبعاً) التى أحصاها الخليل ، وإنما أرفضه حين يقصر فى أمرين :

الأول : الصدق والقوة وجمال الصورة وطرافتها .

والثانى : أن يكون عربياً لا يدركه فساد اللغة ولا الاسفاف فى اللفظ .

وقديماً قال أرسطو : يجب قبل كل شىء أن نتكلم اليونانية . فلنقل : يجب قبل كل شىء أن نتكلم العربية :

وأقول مع عميد الأدب العربى : إنه يجب أن يكون ما ننظمه — قبل كل شىء مما يصح أن يسمى شعراً .

صلاح عبد الصبور

كانت حياة الشاعر الراحل صلاح عبد الصبور رائد تيار الشعر الجديد ثم وداعه الأخير للدنيا ، أشبه ما تكون بالأسطورة أو الملحمة العجيبة التي لا حدود للعجب منها .

ميلاده عام ١٩٣١ ، نشأته ، طموحه ، دراسته ، تخرجه من قسم اللغة العربية بكلية الآداب فى جامعة القاهرة ، حياته بعد التخرج ، عمله فى التدريس وفى الصحافة وفى الأدب وميدان الثقافة ، ودواوينه وحياته وكتبه ومقالاته ، مناصبه التى أسندت إليه . . كان الشاعر فى كل تلك المجالات والحيوات ، أشبه بالرجل الأسطورى أو البطل الملحمى ، الذى يجاهد ويناضل ، ويمثل العبقرية فى كل ما يعمل وما يفكر فيه ، وما يكتبه من روائع القصيد ، وجديد الأفكار .

أرجو أن تكون يا قارئى العزيز قد قرأت دواوينه ومسرحياته ومؤلفاته :

- الناس فى بلادى
- أحلام الفارس القديم
- أقول لكم
- الإبحار فى الذاكرة
- بعد أن يموت الملك
- كتابة على وجه الريح
- انتظار الليل والنهار
- شجر الليل

— حتى نقهر الموت
— ليلى والمجنون
— مسافر ليل
— الأميرة تنتظر (ترجمة اليوسا جريمة قتل فى الكاتدرالية حفلة كوكتيل) .
— مأساة الحلاج .
— شعرى مختارات من الثلاثة الدواوين الأولى .
— ماذا يبقى منهم للتاريخ ؟
— قراءة جديدة لشعرنا القديم
— حياتى فى الشعر
— أصوات العصر فى مدينة العشق

لتعرف حقيقة الملحمة فى فكر صلاح عبد الصبور وفى أشكال أدبه ومضامينه .

وأرجو أن تكون قد سمعت بمأساة وفاته لتتأكد من روح الملحمة فى وباءه للحياة .

ولماذا أقول ، والناس جميعاً قد قابلوا نبأ وفاته بالذهول والعجب والدهشة . .

والشاعر صلاح عبد الصبور نفسه يقول لنا فى صدر ديوانه « أحلام الفارس القديم » الصادر عام ١٩٦٤ من قصيدته « أغنية للشتاء » :

ينبئنى شتاء هذا العام أننى أموت وحدى

ذات شتاء مثله ، ذات شتاء .

يعبثنى هذا المساء أننى أموت وحدى

ذات مساء مثله ، ذات مساء .

وأن أعوامى التى مضت كانت هباء

وأننى أقيم فى العراء

يعبثنى شتاء هذا العام أن داخلى

مرتجف برداً

وأن قلبي ميت منذ الخريف

قد ذوى حين ذوت

أول أوراق الشجر

ثم هوى حين هوت

أول قطرة من المطر

أليست هذه هى نبوءة شاعر قبل وفاته بطويل لنهاية حياته المأسية ؟

إن الشاعر صلاح عبـد الصبور خلق فناناً ، وعاش فناناً ، ومات فناناً . .

« شاعر من الريف ، خرج من وسطنا ، استطاع أن ينغم ، وأن ينظم الكثير من مشاكل نفوسنا وو اقعنا ، فى أعمال لها ديمومة الفن ، وقدرته اللامتناهية على التجدد » . . كما يقول أحـد دارسيه فى تقديمه لديوان . « الناس فى بلادى » . .

حقا لقد مات الشاعر صلاح عبد الصبور

مات الشاعر الفنان

مات رائد الشعر الحر

مات الشاعر فى الخمسين من سنى حياته القصيرة ، قصر عمر الزهور .. كما مات المتنبى ، كما مات على محمود طه ، كما مات محمود حسن إسماعيل ، كما مات إبراهيم ناجى ، كما مات أمراء النغم الشعرى ، وأمراء القصيدة .

ولئن مات صلاح عبد الصبور ، فإن ذكراه ستظل حيــــة خالدة لاتموت أبدا ..

الملحمة الشعرية

— ١ —

(ا) هى قصة شعرية أوشعر قصصى يحتوى على أفعال عجيبة، وحوادث خارقة للعادة ، ومن أهم عناصره الوصف مع الحوار وصور الشخصيات والخطب، وعنصر الحكاية هو العنصر الأهم فيــه مع الاستطراد والعناية بالحوادث العارضة ، مما تفترق الملحمة فيه عن القصة والمسرحية افتراقاً كبيراً ، وهذا الشعر يقص أنباء المعارك والبطولة والأبطال على نحو ساذج خال من التعقيدات العقلية والفنية[١] .

(ب) وقد ازدهرت الملحمة[٢] فى العصور البدائية للأمم حيث يغلب الخيال وتــكثر الأساطير وتزدوج الحــكايات والتواريخ .

ومن أهم الملاحم فى الأدب اليونانى القديم[٣] . الإلياذة والأودسا لهوميروس ، وفى الأدب اللاتينى : الإنيادة لفرجيــل — ثم نظم دانتى « الـكوميديا الإلهية » ، وملتون « الفردوس المفقود » . . .

١ — الإلياذة : ملحمة شعرية نظمها هوميروس إذا سلمنا بوجوده التاريخى ، ويظن أنها هى والأودسا ليستا من ابتكار شاعر بعينه ، وإنما نظم أجزاءها المختلفة شعراء شعبيون متعددون ، ثم جاء هوميروس فوعى فى ذاكرته كل تلك الأجزاء ، وأضاف إليها أجزاء من ابتكاره ، ثم أخذ

---

(١) ١٥ محاضرات فى الأدب - لمندور .

(٢) راجع « نظرية الأنواع الأدبية » ص٧٩ و١١٧ — فى أصول الأدب ص ٣٥٠ و ٣٦٤

(٣) راجع : تاريخ النقد الأدبى عند اليونان تأليف أدجبر و تاريخ النقد الأدبى عند اليونان تأليف محمد صقر خفاجة .

يجوب بلاد اليونان ومعه قيثارته منشداً على نغماتها تلك الأشعار الرائعة ، حتى إذا جاء القرن الخامس قبل الميلاد رأى بيراستراتس حاكم أثينا أن يؤلف لجنة من الشعراء والأدباء لتدوين هاتين الملحمتين حفظا لهما من الضياع .

ولما كان الخيال الشعبي قد احتفظ بذكرى هوميروس الشاعر الضرير، وتوارثت الأجيال أنبـاء شهرته الذائعة ، فقد نسبت الملحمتان إليه ، وموضوعهما قصة الحرب الضروس التي نشبت فيما بين القرنين العاشر والثانى عشر ق.م بين بلاد اليونان ومملكة طروادة فى آسيا الصغرى نتيجة لخطف باريس أحد أمراء طروادة لهيلانة زوجة منيلاس الملك اليونانى أثناء رحلته البحرية إلى بلاد اليونان ، ولما كان الشعر اليونانى الشعبى والفنى على مستوى واحد من حيث اللغة وسلامة الأسلوب ، فقد اعتبر تراث هوميروس هو التراث الأدبى الأول عند اليونان ، حتى لقد اعترف شعراء التمثيليات بأن مسرحياتهم ماهى إلا فتات تساقط من مائدة هوميروس[1] .

وموضوع الإلياذة غضب أخيليوس لما لحقه من إهانة على يدى «أجاممنون» القائد العام اليونانى فى حصارهم « طروادة » .

٢ — الاودسا : وهى الملحمة الثانية لهوميروس وموضوعها هو عودة «اودسيوس» هو وبوليس من حرب طروادة بعد انتهائها بعشر سنين[2] .

٣ — الانيادة : نظمها الشاعر اللاتيني فرجيل (٨٩–١٩ ق م) ، وقد نظمها فى أواخر حياته ، أو على الأرجح فى السنين العشر الأخيرة فى حياته

---

(١) ص ١٥ و ١٦ محاضرات فى الأدب ـ مندور .

(٢) وهناك ملحمة نثرية هى « مغامرات تليماك » للكاتب الفرنسى =

بعد أن توطدت دعائم سلطان الامبراطور الرومانى « أغسطوس » على أثر معركة أكتيوم ، والملحمة ملحمة وطنية فيها إشادة بأصل الامبراطورية الرومانية ، أو هى اثنا عشر جزءا ، وتنقسم إلى قسمين كبيرين : الأولى فى أسفار البطل اينياس حتى وصوله إلى إيطاليا ، وهذا القسم احتذاء فنى للأوديسا ، والقسم الثانى فى حروب اينياس وتغلبه على خصومه فى لاسيوم وتأسيسه لامبراطورية الرومان ، وهو على نمط الإلياذة ... وملحمة الانيادة كانت من الأسس الأولى فى تطور الملحمة .

٤ — الكوميديا الإلهية لدانتى ، وهى مكونة من مائة نشيد فى وصف الجحيم والمطهر (الأعراف) والجنة ، وهى حدث فنى كبير ، وتكتسى طابعا دينيا ، وقد شرحها كثيرون ، ودانتى متأثر فيها بفرجيل فى الإنيادة ، كما تأثر بالفتوحات المكية لابن العربى وبقصة الإسراء والمعراج التى ترجمت إلى الأسبانية والفرنسية .

٥ — الفردوس المفقود لملتون[1] (١٦٠٨ — ١٦٧٤ م) وقد نشرت عام ١٦٦٧ فى ١٢ نشيداً ، وتصور خروج آدم من الجنة بعد إغراء الشيطان له ، وهذه الملحمة لها طابع دينى خاص أيضا من حيث كانت ملاحم هوميروس وفرجيل ذات طابع وطنى وشعبى . ومن مصادر « الفردوس المفقــود » التوراة[2] .

= فينلون (١٧١٥ م) وقد طبعت فى باريس عام ١٦٩٩ وهى محاكاة للأجزاء الأربعة الأولى من ملحمة الأوديسا ، وإن كانت ذات طابع تعليمى فى معانيها ورموزها ، وقد ترجم هذه المغامرات رفاعة رافع الطهطاوى فى كتاب « مواقع الأفلاك فى حوادث تلماك » .

(١) ١٠١ — ١٠٦ الأدب الإنجليزى بول دوتان .

(٢) ١٠٥ الأدب الإنجليزى .

٦ — وللهنود ملحمة طويلة هى المهابهارتة(١) الهندية، والمهابهارتا تختلف إذن عن إلياذة هوميروس التى يتحدث فيها شاعر اليونان عن عبث آلهة الأولمب وما كان يتنازع هذه الآلهة التى لا تختلف بحال عن صنائعها من البشر من نوازع وشجون، بينما تهدف الملحمة الهندية إلى السمو بالإنسان تدريجياً إلى مصاف الآلهة و«الترفانا» أى الفناء فى الوجود الأكبر. تستهدف الملحمة اليونانية الهبوط بالآلهة إلى مستوى البشر والحياة بحرية فى جسم هذا الإنسان، وكم لهذه الآلهة من عبث وفضول، ولم تكن نزعة الهند الصوفية لتترك أبناءها يفتنون بجلال الطبيعة — دون جمالها — التى تحيط بها آفاقهم إلى غير التجرد الخالص والمثالية. بخلاف ما كان عليه الحال عند اليونانيين فى نزعتهم الواقعية التى لا تدين بغير الجمال. وليس عهدنا ببعيد عن طاغور الذى يقول من بعض أغانيه التعبدية قوله: قالت الزهرة للشمس: «كيف أستطيع أن أعبدك»؟ فقالت: «بسكونك وتفاوتك» أو قوله: «تتحدث إلى الطبيعة بالصور، فتجيبها روحى بالأغانى» وإنكم لواجدون فى هذه الأغانى وبالأخص الشعبية منها التى خلقتها لنا الحضارة عبر القرون صورة صادقة واضحة للمجتمع. ودليل ذلك اقتصار الغزل فى الهند على لسان المرأة تتوجه به للمحبوب من تحبه لا بالعكس إذ أن المرأة تعتبر الرجل القيم عليها وربا لها(٢).

٧ — وقد وجد عند الفرس ملحمة طويلة هى شاهنامة الفردوسى(٣).

---

(١) المهابهارتة ملحمة هندية طويلة فى مائتى ألف بيت نظمها فيلسوف أحد كهان الهنود فى الحروب بين شعوب الهند (راجع المهابهارتة ترجمة وديع البستانى).

(٢) قربان الأغانى ترجمة: يوحنا قمير.

(٣) الشاهنامة تدور حول تاريخ الأكاسرة ووصف الحرب بين أهل إيران =

وفى الأدب التركى توجد شاهنامة الشاعر التركى الملقب بالفردوسى الطويل ، وقد نظمها كما فى « كشف الظنون » فى مليون وستمائة ألف بيت ، وكتبت فى ٣٣٠ مجلدا ، فأمر السلطان بايزيد العثمانى باختيار ثمانين مجلدا منها وإحراق باقيها ، فترك مؤلفها بلاد الروم وذهب إلى خراسان فمات فيها كمدا(١).

(جـ) ولم يعرف الأدب العربى الملاحم بصورتها الفنية هذه ، ولكن الأدب الشعبى خلق ملاحم شعبية من أمثال أبى زيد الهلالى ، والزير سالم ، والظاهر بيبرس ، والأميرة ذات الهمة ، وعنترة.

وقد ذهب فريق إلى أن الشعر الملحمى أو الشعر القصصى عامة قد خلا منه الشعر العربى مع شيوع الأساطير بين العرب وتوفر مادة القصص فى الشعر

ـــدو أهل طوران نظمها الفردوسى (٣٢٩ — ٤١١ هـ) وتحتوى على كثير من تاريخ الأكاسرة — وترجمت إلى التركية فى ٥٦ ألف بيت بأمر السلطان الغورى (راجع ٢٧٢ وما بعدها من كتاب الحياة الأدبية بعد سقوط بغداد للمؤلف) كما ترجمت إلى العربية عام ٦٧٩ هـ على يدى الفتح البندارى ولكن هذه الترجمة ضاعت (٢٠٦٩ المختصر فى تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان) ، وفى الشاهنامة تمجيد العنصر الإيرانى المجوسى ، وليس فيها ذكر أو أثر للإسلام ، وقد نظمت ملاحم فى الرد على الفردوسى ونقده فيها ، منها : ملحمة عمر نامة وهى ملحمة إسلامية أشاد فيها ناظمها الإيرانى بالإسلام والفتح الإسلامى ، ومنها ملحمة فاروق ، الذى نقد ناظمها الفردوسى وشك فى إخلاصه للإسلام وقال أبياتا ترجمتها : قلبه مجوسى ، ولسانه مجوسى ، إنه يحكى قصة المجوس ؛ فى اللغة المجوسية » .

(١) ١٤٦ : تاريخ آداب لغة العرب للرافعى.

القديم لكثرة حروبهم[١] ، وقد عللوا ذلك بتعليلات كثيرة[٢] :

وهب فريق آخر إلى أن الشعر العربى لم يخل من النوع القصصى[٣] ويؤيد ذلك طه حسين[٤] إذ ذهب إلى أن الشعر الجاهلى والأموى فيه مزايا كثيرة من خصائص الشعر القصصى[٥] .

ولكن إذا كان الغرض من الشعر القصصى ما يجمع بين التاريخ ويحفظ من الأخبار فذلك موجود فى أشعار العرب ولكنهم لم يطيلوا إطالة الإلياذة وغيرها[٦] ، فالعجم يفضلون العرب فى الإطالة كما فعل الفردوسى فى نظم الشاهنامة وهى ستون ألف بيت من الشعر تشتمل على تاريخ الفرس ، وهذا لا يوجد فى اللغة العربية على اتساعها وتشعب فنونها وأغراضها(٧) .

أما الشعر القصصى بالمعنى المصطلح عليه فلم يكن من طبيعة العرب ولا هو من مقتضيات اجتماعهم فلم ينظموا فيه قطعاً فى جاهليتهم ولم ينظمه من بعدهم لوقوفهم عند حد التقليد[٨] ، أما الأساطير الدينية فليس فى العرب من تعمل لنظمها غير أمية بن أبى الصلت[٩] ، فقد تكون قصائد أمية بن أبى الصلت خطوة جديدة فى الشعر العربى وبذرة من بذور الشعر القصصى فى آداب

---

(١) ٢٦ فى أصول الأدب للزيات ، ومقتطف يوليو ١٩١٩ ص ٦٠

(٢) ١٩٠ — ١٩٢ الطبع والصنعة فى الشعر للمهياوى .

(٣) ص ٣٨٦ مقتطف أبريل ١٩١٩ من مقال الكاظم الدجيلى .

(٤) ص ١٤ من حديث الشعر والنثر :

(٥) ١٤ و ١٥ المرجع .

(٦) ١٤٨ : ٣ الرافعى .

(٧) ٣٢٤ المثل السائر . ولأبى العتاهية أرجوزة تبلغ أربعة آلاف بيت وسماها ذات الأمثال .

(٨) ١٤٩ : ٣ الرافعى .

(٩) ١٥٤ : ٣ المرجع .

اللغة العربيـة ، وفى العصر العباسى نظم أبان اللاحق قصيدته « ذات الحلل » ذكر فيها مبدأ الخلق وأمر الدنيا وأشياء من المنطق وغير ذلك وهى مشهورة ومن الناس من ينسبها لأبى العتاهية[١] .

وامتازت الأندلس بنظم التاريخ والتفوق فى هذا الباب[٢] ومن الشعر الأندلسى أرجوزة طويلة فى فتح الأندلس وأمرائها نظمها يحيى بن حكم البكرى الغزال ت ٢٥٩ هـ[٣] شاعر الأمير عبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦— ٢٣٨ هـ) ، فنظم كتابا فى تاريخ فتح الأندلس[٤] وذلك فى أرجوزة طويلة من نظمه[٥] ، ولابن عبد ربه أرجوزة فى تاريخ الناصر وحروبه وأعماله خلال الفترة (٣٠٠—٣٢٠) وأولها :

سبحان من لم يحوه أقطار ولم تكد تدركه أبصار

وهى طويلة جدا(٦) ، ولكنها إلى الشعر التعليمى أقرب منها إلى الشعر القصصى لجفافها وضعف خيالها وبعدها من قواعد الملحمة(٧) ، ولابن عبد ربه قصيدة فى المنذر بن محمد من ملوك الأندلس (٢٧٣—٢٧٥) :

بالمنـــذر بن محمد صلحت بلاد الأندلس(٨)

ولحمد بن عبد العزيز من شعراء اليتيمة قصيدة تزيد على أربعمائة بيت

---

(١) ص الأوراق قسم أخبار الشعراء .

(٢) ٢٤ بلاغة العرب فى الأندلس لضيف .

(٣) راجع ٣٧٣ : ٣ تاريخ آداب اللغة للرافعى .

(٤) ٣٧٣ : ٣ الرافعى ، ٣ ، ٤ بلاغة العرب فى الأندلس .

(٥) راجعها فى ص ٤٠٥ ومابعدها ج ٢ الذخيرة لابن بسام .

(٦) راجعها فى ٢٠٩، ٢٣٧ : ٣ العقد .

(٧) ٣١٨ الأدب العربى للزيات .

(٨) ١٤٠ : ٣ نفح الطيب .

فى وصف حالة تنقله فى الآديان والمذاهب والصناعات وهى تقارب المعنى المصطلح عليه فى الشعر العربى[١] .

ولابن المعتز أرجوزته فى تاريخ المعتضد وتبلغ نحو الأربعمائة والعشرين بيتا ، وهى صورة مصغرة لنمط الملاحم كالإلياذة والشاهنامة ، وقد سدت بعض النقص الذى يوجد فى الشعر العربى[٢] . وهى فى ديوان ابن المعتز[٣] وطبعت وحدها فى مصر عام ١٩١٣ ، وقد نشرها وشرحها وترجمها إلى الألمانية لانج الألمانى وطبعت فى المجلة الألمانية الشرقية عام ١٨٨٦م[٤] ، وفعل مثل ذلك لوث وطبعها فى ليدك عام ١٨٨٢(٥) ، وقد نشرتها وشرحتها على نظام جديد(٦) ، والأرجوزة لها أهمية تاريخية كبيرة ، وهى تصوير رائع للحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى هـذا العهد الحافل ، وأكبر أثر تاريخى لعصر المعتضد ، ومطلعها :

باسم الإله الملك الرحمن   ذى العز والقدرة والسلطان

ومنها : هذا كتاب سير الإمام   مهذبا من جوهر الكلام

أعنى أبا عباس خير الخلق   الملك ، قول عالم بالحق

وقد اكتفى بها عن الكتاب الذى أمره المعتضد بتأليفه عن سيرته(٧) ، وقد أشار إليها الحصرى(٨) .

---

(١) ١٥٤ : ٣ الرافعى .
(٢) ٢٥ و٢٦ : ١ ظهر الإسلام .
(٣) ١٠٢ — ١٧٤ الديوان .
(٤) ٢٦٠ المجلد الاول من دائرة المعارف الإسلامية ، ١٧٣ : ٢ زيدان .
(٥) ٦٣ : ٢ زيدان .
(٦) ٨٠ — ١٠٧ رسائل ابن المعتز .
(٧) ديوان ابن المعتز المحفوظ بدار الكتب المصرية .
(٨) ٢٠٣ : ٢ زهر الاداب .

ومثل قصائد البردة والهمزية للبوصيري ولشوقي يجوز أن تسمى بالملاحم بالمعنى العام لـكلمة ملحمة ، ولابن المعتز أيضا أرجوزة في ذم الصبوح من أقرب الآثار الأدبية إلى الشعر القصصي وأسلوبها ممزوج بالدعابة .

(د) وفي العصور الحديثة حاول عدد من الشعراء في اللغات المختلفة كتابة ملاحم جديدة ولـكنهم فشلوا ، وتركت الآداب العالمية فن الملحمة للآداب الشعبية . وحتى الأدب الشعبي بدأت الملاحم تختفي منه باختفاء شعراء الربابة المتجولين ، ولعل السبب في ذلك — اختفاء الملاحم — أن العالم اليوم لم يعد يؤمن بالأساطير ، فوق التقدم العلمي والفـكري .

هذا وقد ترجم سليمان البستاني إلياذة هوميروس شعراً إلى العربية ، وكتب لها مقدمة كبيرة عن الشعر ونشأته وفنونه وأوزانه .

— ٢ —

ومصر المتوثبة المناضلة على طول عصور التاريخ لم تقف في طموحها عند غاية ، ولم تسكن في نضالها على مرور الأيام إلى نهاية ، وبعد فشل الثورة العرابية كمم الاحتلال البريطاني أفواه الشعب الذي كان يزأر بنشيد الحرية ، وقيد الأسد الهصور الذي عجزت الأيام دائما عن أن تنال منه ، وأوقف مواكب الأحرار عن متابعة مسيرتها في النضال من أجل التقدم والبناء والنهضة .

ولم يجد المصريون ملاذا لهم إلا في الحياة مع الماضي الذي أوقف القصر والاحتلال امتداده ، وفي أن يستعيدوا جلال الذكريات الخالدة في تاريخ العرب والإسلام ، بعد أن استحالت حياتهم من بناء وأعمال إلى ذكريات وآمال ، لأنهم فقدوا الحرية ، وفقدوا بفقدانها كل شيء .

وقد عاش الشعراء يدونون في شعرهم كل صفحات المجد الـكبير الذي

كان لأمتهم الإسلامية العربية ، ليوقظوا النفوس النائمة من رقادها ، وليحرروا الأرواح اليائسة مـــن قنوطها ، ويبعثوا فيها روح الأمل فى المستقبل .

وبدأ حافظ إبراهيم (١٨٧٢ — ١٩٣٢) فنظم ملحمته العمرية عن الفاروق عمر بن الخطاب ، وأنشدها من فوق مدرج وزارة المعارف المصرية بدرب الجماميز فى المساء يوم الجمعة الثامن من فبراير ١٩١٨

ثم تلاه الشاعر ، عبد الحليم المصرى(١٨٨٧ – ١٩٢٢) ، فأنشد ملحمته البكرية عن الصديق أبى بكر وصفحات حياته وجلائل أعماله ، وذلك من فوق مدرج الجامعة المصرية القديمة فى ٢٤ من مايو ١٩١٨

وبعد عام ونصف أعقبهما الشاعر الشيخ محمد عبد المطلب (١٨٧٠ — ١٩٣١) ، فالقى قصيدته العلوية فى حياة وتاريخ وبطولات الإمام الخليفة الرابع على بن أبى طالب فى السابع من نوفمبر ١٩١٩، وذلك فى حفل برياسة شيخ الشعراء اسماعيل صبرى فى الجامعة المصرية ، واعتزازاً بروح العروبة المتأصلة فى نفسه ألقى علويته وهو راكب على ظهر جمل كما كان يفعل أسلافه من الشعراء حين يلقون شعرهم فى سوق عكاظ .

أما شوقى فقد كان إبان تلك الأيام فى منفاه فى الأندلس ، وإن كان قد نظم هناك وهو منفى ملحمته الخالدة التى ظهرت بعد ذلك فى ديوان بعنوان « دول العرب وعظماء الإسلام » .

كما كان قد نظم من قبل بكثير قصيدته أو ملحمته الهمزية المطولة فى تاريخ مصر وحضارتها على مرور القرون والأجيال .

وجاء الشاعر أحمد محرم (١٨٧١ — ١٩٤٩) بعد ذلك بطويل ، فنظم ملحمته المشهورة « الالياذة الإسلامية » التى سجل فيها أحداث السيرة النبوية

العاطرة تسجيلا رائعا مؤثرا ، ونظم د. زكى المحاسنى « الملحمة العربية » . وللشاعر كامل أمين عدة ملاحم مشهورة مثل عين جالوت ، والسموات السبع والملحمة المحمدية ، والمؤلف : ملحمة السيرة الخالدة .

هذه الملاحم البطولية فى تاريخ الشعر العربى الحديث التى نظمها كار الشعراء كان لها تأثيرها ودويها الشديد ، فرددها الشعب المصرى والعربى والإسلامى فى كل مكان ، واستظهرها الكبار والصغار والشيب والشباب ، وأذيعت فى كل محفل ، والقيت فى كل ندى ، وترنم بها البدو والحضر ، ولفت الناس إلى أن مجدنا القديم الخالد لابد أن نعمل على استعادته ، لأن صفحات التاريخ متصلة ، والحاضر لا يمكن أن ينقطع عن الماضى ، مهما صنع الاحتلال والعرش وأعوانهما فى مصر . وكان للشعراء ما أرادوا ، فبعد العمرية والبكرية قامت ثورة ١٩١٩ ، وتحرك التاريخ . فى مصر بعمل الشعب ، وقامت انتفاضة الوطن ، وطار التراب الذى كان يخفى لهب النار المتقدة .

والمعروف أن الملاحم تستمد عناصرها من البطولة وتاريخ الأبطال والاشادة بشجاعتهم وأعمالهم الخارقة ، وبسالتهم وقوتهم الفائقة وكثيراً ماتتخذ الملاحم مادتها من الأساطير والحوادث الخارقة للعادة ، وعجائب الأفعال ، ومن البطولات النادره وتاريخ الأبطال الذين يحفل بهم تاريخ الأمم والشعوب فى كل عصر ، وبخاصة فى الحروب والثورات وأيام النضال للتحرر من العبودية والاستعمار والغزو الأجنبي ، والالياذة والاوديسا لهوميروس والانيادة لفرجيل حافلة بهذه العناصر الأساسية فى بناء الملحمة ، التى تتلاقى مع القوة الخفية العميقة المدفونة فى أعماق اللاشعور ، وتحركها للعمل والبناء من أجل فكرة روحية أو بطولية أو تحررية .

وإذا كانت هذه الملاحم العربية الحديثة من أمثال العمرية والبكرية

والعلوية والالياذة الإسلامية تفقد بعض خصائص الشعر الملحمى ، لأنها لاتعتمد على الأساطير ، ولاتنحو نحو الخيال والمبالغة ، حيث لم يقيد الشعراء فيها أنفسهم بكل خصائص الأدب الملحمى ، فإنها على أية حال صورة من الصور القريبة إلى الملحمة فى عرف أدباء الغرب ، وهى صورة مستمدة من ذوق الشاعر العربى وروحه وإلهامه وأصالته ؛ وقريبة من إلفه وعقله ومتصلة بمواهب التجويد ومذاهب التجديد فى الشعر الذى سمع الكثير من الدعوات الفنية إليه . . ومنها قصائد مطولة فى الشعر العربى القديم ، كأرجوزة ابن المعتز (٢٤٧ - ٢٩٩ هـ) . فى ابن عمه الخليفة العباسى المعتضد الذى تولى الخلافة الإسلامية عشر سنوات (٢٧٩ ـ ٢٨٩ هـ) وكارجوزة ابن عبد ربه الاندلسى صاحب العقد الفريد (ت٣٢٩ هـ) فى الخليفة الأموى الناصر الذى حكم الاندلس خمسين عاما (٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ) .

الحركة الأدبية المعاصرة فى السودان

— ١ —

منذ أن قام الإمام الأكبر الثائر ، محمد أحمد المهدى بثورته الوطنية الكبرى فى السودان عام ١٨٨١م ، ضد النفوذ الاستعمارى الغربى ، وتاريخ السودان الثقافى يحفل بتطورات كبيرة ، تستمد جذورها من حركة المهدى ودعوته وانتصاراته .

فقد قامت الخلايا بكثرة فى السودان ، وصارت من المراكز الثقافية فى جميع أنحائه ، وكانت تناقش فيها مسائل الدين والعلوم والتصوف على أوسع نطاق ، ويقوم بالتدريس فيها علماء متصوفون ، يدرسون لتلاميذهم شتى ألوان الثقافة الإسلامية . . ومن أشهرهم الإمام الشيخ محمد البدوى تلميذ الإمام المهدى الكبير ، وحامل دعوته ورسالته ، وشيخ العلماء الأول فى السودان بعد ثورة المهدى . . وقد درس فى الأزهر على الشيخ عليش والشيخ العدوى وسواهما ، وصار إماما فى مذهب مالك ، ومرجعا فى الحديث ، وحجة فى سائر علوم الدين . . واشترك فى الثورة المهدية ، وكافح من أجلها ، ولما انتهت الثورة اختارته حكومة السودان شيخاً لهيئة العلماء . وأقام فى منزله يلقى على طلابه المحاضرات والدروس ، وكان من أنبه تلاميذه السيد الإمام عبد الرحمن المهـدى ، وكان الشيخ يكرمه ويجله ويجلسه عن يمينه ، ويتسم بفراسته أنه سوف يصبح زعيم السودان بعد والده الإمام ، وتوفى الشيخ رحمـه الله فى أم درمان عام ١٩١١ ورثاه الشعراء بمراث بليغة ، ومن بينهم الشاعر السودانى الشيخ محمد سعيد العباسى .

وقد تطورت هـذه الحركة الثقافية إلى إنشاء المعهد العلمى بأم درمان

سنة ١٩١٢ ليكون أزهر السودان الجديد ، واستعان المعهد بمناهج الأزهر وأساتذته للقيام بمهامه العلمية والإسلامية ، ووفد كثير من طلابه على الأزهر يرتشفون من ينابيعه ، وتلا ذلك إنشاء كلية للشريعة وأخرى للغة العربية فيه . . وتولى رياسته قبل سنوات شيخ جليل من شيوخ الأزهر السودانيين وهو الشيخ محمد المبارك . . ومن معهد أم درمان تخرجت أجيال من شباب السودان الحر المثقف ، ومن بين من درسوا فيه ، وتخرجوا منــه أعلام الفكر السودانى ، ومن الشعراء الشاعر المشهور التيجانى يوسف بشــير (١٩١٢ — ١٩٣٧) .

وقد تطور المعهد وفروعه والكليات التى قامت معه ، وتكون من ذلك كله الجامعة الإسلاميه التى صــدر قانون بإنشائها عام ١٩٦٦ ، وتحتوى على كلية الشريعة ،وكلية الآداب ، وكلية أصول الدين ، وكلية البنات الإسلامية .

وكان ذلك كله معززاً للتيار الثقافى الاسلامى الذى انتشر فى ربوع السودان منذ أوائل الفتح الاسلامى حتى اليوم ، وهو التيار الذى أضاء شعلة الثقافة الاسلامية فى هذه البلاد ، وتثقف عليه أجيال العلماء السودانيين ، والشباب السودانى فى كل وقت ، وعززه اتصال الفكر السودانى فى قديمه التليد بالأزهر الشريف وثقافته .

وهذه الثقافة الاسلامية الأزهرية عريقة فى السودان ، منــذ انتشر الاسلام فى ربوعه ، وخاصــة بعد فتح السلطان الناصر بن قلاوون لدنقلة فى التاسع من يوليو عام ١٣١٨ م ، وقد صحب هذه الثقافة الشعر والأدب ، اللذان ازدهرا فى مدنه بعد قليل . . وفى القرن الحادى عشر الهجرى نجد

عالما سودانياً من خريجى الأزهر ، يقف فى سنار ليمدح أحد ملوك الفونج ، وهو السلطان بادى أبو دقن (١٦٤٣ — ١٦٧٨ م) ، وذلك فى قصره بعاصمته الجميلة . . فيقول :

أيا راكبا يسرى على متن ضامر
إلى صاحب العليـاء والجود والبر

ويطوى إليه شقة البعد والنوى ويقتحم الأوعار فى المهمه القفر
وينهض من مصر وشاطئ نيلها وأزهرها المعمور بالعلم والذكر

لك الخير إن وافيت « سنار » قف بهـا
وقوف محب وانتهز فرصة الدهر
وألق عصا التسيـار فى صرح أفقهـا
تجـد كل ما تهوى النفوس من البشر

وكانت مواطن هـذه الثقافة الإسلامية قديما فى السودان ، تتمثل فى سنار ودارفور والفاشر وسواها من مدنه ، وكانت مملكة الفور فى دارفور تهتم بنشر الثقافة الدينية ، ومن علماء دارفور إبان ذلك جماعات درست فى الأزهر ، وتزودت بثقافته . . ولعلماء سنار ودارفور منـذ عهد بعيد وطلابهما رواقان فى الأزهر يسميان رواق السنارية ، ورواق دارفور . . ومن الأدباء المشهورين فى مملكة الفور محمد ودعمارى من متخرجى الأزهر ، وكان كاتب سلطان دارفور محمد الفضل أثناء فتح محمد على للسودان .

وقد حاول المستعمرون الإنجليز منـذ آخر القرن التاسع عشر فصل السودان عن عروبته وثقافتـه الإسلامية ، وانتشر المبشرون الأوربيون فى شتى أرجائه ، وانتشرت الثقافة الإنجليزية وفرضت على برامج التعليم فيه .

وتلا هذا التطور الثقافى إنشاء المستعمرين الانجليز لكلية غوردن لتخريج طبقة تقترب من الغرب وثقافاته ، وإنشاؤهم كذلك لكثير من المدارس الأجنبية فى السودان . . وكانت برامج الدراسة فى كلية غوردون تخريج متعلمين للادارة ، والتعليم فيها بالانجليزية . . وقد دعا خريجوها إلى قومية الأدب السودانى والثقافة السودانية ، ونشروا فصولا عديدة فى مجلة حضارة السودان والنهضة السودانية ومجلة الفجر ، بينوا فيها أهمية الثقافة الغربية وحتمية التأثر بها. .وبعد الاستقلال صارت كلية غوردون نواة الجامعة السودانية الجديدة . .

ولما خرج الجيش المصرى من ربوع السودان ، وبدأ الانجليز يعملون على نشر ثقافتهم ولغتهم ، كان لابد لمصر من أن تقوم بإنشاء العديد من المدارس فى المدن السودانية لتقاوم تيار «التغريب» ، ومما أنشىء المدرسة الثانوية المصرية بالخرطوم التى صارت اليوم فرعا لجامعة القاهرة بعاصمة السودان الشقيق .

ومن هذين التيارين الثقافيين تكونت عقلية الشباب السودانى ، التى أبدعت الأدب السودانى الحديث شعره ونثره .

وفى مقدمة شعراء السودان وأدبائه الشاعر الكبير المرحوم محمد أحمد المحجوب رئيس وزراء السودان سابقا .

☆ ☆ ☆

— ٢ —

الشعر فى السودان :

تستحكم وشائج العروبة فى السودان الشقيق منذ الاتصال السياسى والحربى بين شعب السودان ، وقواد الفتح الإسلامى فى مصر، من عبدالله بن أبى السرح (أمير مصر بعد عمرو بن العاص) إلى عبد الله بن الجهم (أمير مصر فى عهد المأمون) إلى ماتلا ذلك من عصور وأحداث وصلات تجارية وعسكرية .

وفى التاسع من يونيو ١٣١٨ م فتح السلطان الناصر بن قلاوون ملك مصر مدينة دنقلا فى شمال السودان ، وقضى على قواتها العسكرية ، فتم فتح شمال السودان ، وانتقل من الوثنية إلى الإسلام ، وهاجرت القبائل العربية المختلفة من ربيعة ومضر فاستقرت فيه ، واستقرت معها فيه اللغة العربية والثقافة العربية والأدب العربى بجميع فنونه وألوانه ، شعرا ونثرا .

وبدأ المجتمع السودانى يسمع الشعراء ينشدون شعرهم فى المدح والتصوف والحكمة والفخر والوصف والغزل وسوى ذلك من ضروب الشعر .

واستمرت هجرة العرب من الحجاز ومصر وشمال إفريقيا ومن الأندلس بعد زوال الحكم الاسلامى من ربوعها متصلة إلى السودان ، فزاد بذلك حظ الشعر قوة وثراء فى هذا القطر الشقيق .

وقد وجدت الآداب والشعر مجالا خصبا لها فى سنار عاصمة مملكة الفونج ، ثم فى دارفور عاصمة مملكة الفور . وخاصة بعد زيادة الاتصال

الأدبى بين مصر والسودان ، حيث كثرت هجرة العلماء عن السودان إلى الأزهر فى مصر ، ومن مصر إلى السودان ، فأثرت اللغة والأدب والشعر بذلك خير إثراء .

ولما قامت الثورة المهدية فى السودان تدعو إلى الدين وإلى نبذ طاعة الأتراك الطغاة وصنائعهم من المستعمرين ، بقيادة الزعيم السودانى الامام المهدى الأكبر قام الشعراء يبشرون بدعوته ، ويمجدون جهاده ، وقد مدح الشيخ الحسين الزهراء المهدى بقصائد طويلة . . ولما توفى الامام المهدى الكبير بعد فتح الخرطوم والقضاء على غوردون ، وذلك فى الثانى والعشرين من يونيو ١٨٨٥ م رثاه الشعراء بأبلغ العبرات(١) .

يقول الشيخ إبراهيم شريف الدولابى يرثى المهدى :

ودعا إلى الدين الحنيف مجاهدا بالسيف والانذار والتبشير
ما شئت فيه من الثناء فقل ولا تأخذك لومة لائم مدحور
هو مجمع البحرين بحر شريعة طام وبحر حقيقة مسجور

---

(١) الإمام المهدى هو محمد بن أحمد بن عبدالله الحسينى (١٨٤٣ — ٢٢ من يونيو ١٨٨٥) مال إلى التصوف من صغره ، ونبغ فى العلوم الشرعية ، ثم شاهد فساد الحكم التركى . وآثاره تغلغل الاستعمار الأوروبى فى أفريقية ، فتزعم الحركة الإسلامية فى السودان ، واتصل بحكام العالم الإسلامى يشرح لهم حقيقة الحالة فى بلاده ودعا إلى وحدة الصفوف وإلى فتح باب الاجتهاد فى الشريعة وكتابه «العبادات» مشهور ، وقد أعلن الثورة ضد الاستعمار وقاومه مقاومة عنيفة ، وهزم جيوشه حتى آخر رمق فى حياته ، واستمرت الدعوة المهدية متصلة فى عهد عبد الله بن محمد التعايشى من بعده ، ثم تولى ابنه عبد الرحمن المهدى بعده حركة الدعوة المهدية إلى أن نال السودان الاستقلال وتوفاه الله فى الرابع والعشرين من مارس عام ١٩٥٩ . فتولى زعامة طائفته من بعده الصديق المهدى .

والله أكرمه بطيب تحية يحدو بها موسى كليم الطور
قد كان قوام الدجى متبتلا متواصل الإحسان غير فخور
طلق المحيا خاشعا متواضعا كهف الفقير وجابر المكسور
تبكى المساجد والمحارب فقده ومواطن الأذكار والتذكير
يا آل بيت المصطفى صبراً وإن جل المصاب وعز عن تصبير

ويقول الشيخ إسماعيل الكردفانى يصف قبة المهدى :

سمت قبة المهدى مجدا وسؤددا ونيطت بها الجوزاء عقدا منضدا
ولاحت بأنوار الهداية شمسها
فأشرق فيها الكون وانقشع الردى
ولم لا وقد ضمت لأفضل وارث لخير الورى طه المشفع أحمدا
إمام له فى كل مجد وسؤدد مآثر فضل ما أجل وأمجدا

ويقول محمد بن الطاهر المجذوب يرثى المهدى :

ليبك له الدين الحنيف وملة أبان هداها حين تم خرابها
فقدناك يا هديا يقمعنا بفقده فقدناك يا شمسا دهانا غيابها

وكان عمر البنا شاعر الثورة المهدية ، ومن أبرز شعراء السودان ، وهو شاعر بليغ ، قوى الديباجة ، رصين العبارة .

وهكذا كان للثورة المهدية أبلغ الأثر فى الشعر ، فقد أوجدت فيه حركة فنية واسعة النطاق بين الشعراء السودانيين ، فمنهم من نظم القصائد فى تأييد الدعوة المهدية ، ومنهم من نظمها فى تمجيد شخصية الإمام ، ومنهم من مجد انتصارات المهدى العسكرية ، ومنهم من وصف المعارك والوقائع ، إلى غير ذلك من موضوعات الشعر .

وبذلك وبهذا الحدث الوطني الجليل قامت فى الشعر السودانى مدرسة

شعرية كلاسيكية محافظة تشبه مدرسة البارودى فى مصر ، وتتأثر خطاها ، طابعها دينى غالباً ، وظهرت بذلك شخصية الشاعر الســوداني لأول مرة مستقلة واضحة المعالم والسمات والخصائص .. وعكف الشعراء على أنفسهم بعد انتهاء الثورة المهدية، وقضاء الإنجليز عليها عسكرياً ، وتخرج على أيدى هذه المدرسة كثير من الشعراء من بينهم عبدالله عمر البنا ، وأحمد صالح ، وصالح عبد القادر ، وسواهم .

وكان للثقافة المصرية وللأدب المصرى والشعر المصرى المنزلة الأولى فى السودان حتى عام ١٩٢٤ ، ففى هـذا التاريخ انفرد الإنجليز بالسودان بعد جلاء الجيش المصرى ، وأخـذ الانجليز يعملون على بث الفرقة بين مصر والسودان ، وعلى نشر ثقافتهم ولغتهم فى المدارس ، وظهرت خـلال ذلك المدرسة الشعرية الثانيــة ذات الاتجاه الابداعى ، وشعراؤها يتفاوتون فى نزعاتهم الثقافية ، فمنهم من ظل يتأثر الشعر العربى القـديم ، ومنهم من تأثر بالمدارس الابداعية الحديثة فى مصر كمدرسة مطران ومدرسة شعراء الديوان ومدرسة ابولو ، ومنهم من رجع إلى الأخيلة الغربية ، وكان الشاعر عبدالملك حمزة طمبل أول شاعر إبداعى فى حركة الشعر فى السودان ، وهو أول من دعا فى مقالاته فى مجلة النهضة عام ١٩٢٧ إلى إبراز الطابع السودانى فى الشعر وإلى أهمية الثقافة الغربية ، وقد جمع هذه المقالات فى كتاب نشره عام ١٩٢٨ بعنوان (الأدب السودانى وما يجب أن يكون عليه) وقد تأثر طمبل بآراء النقاد المصريين ، وأفاد منهم ، وحمل على شعراء السودان وهاجم افتتاحهم القصائد بالغزل ووصف الناقة ، ودعا إلى العناية بالمضمون ، وطالب بالاهتمام بالمعنى لا بالمبنى ، ودعا أدباء السودان إلى الصدق والاخلاص ، وقد حمل الدعوة بعده محمد أحمد محجوب ، وله بحث عن الحركة الفكرية فى السودان .

ثم جاء التيجانى يوسف بشير صاحب ديوان إشراقة ، ويوسف التني الذى أصدر عام ١٩٣٨ ديوانه الأول ، وفى عام ١٩٥٥ أصدر ديوانه الثانى « السرائر » . ثم محمد مهدى المجذوب ومبارك المغربى .

وفى تأييد النزعة القائلة بوجوب خلق أدب قومى سودانى يقول المؤرخ السودانى محمد عبد الرحيم فى كتابه « نفثات اليراع » : ويجب أن يكون للسودان أدب خاص يحمل طابع شمسه المشرقة ، وطغراء بدره الوضىء ، ويخص بعنايته الحياة السودانية وحدها » .

وظهرت دواوين عدة قبل الحرب العالمية الثانية تمثل الاتجاه الرومانسى ، ومنها : إشراقة للتيجانى ، الشاطىء الصخرى لحسين منصور ، دموع وأشواق للشاعر حسن عزت ، الحرية والجمال للشاعر جعفر حامد البشير ، وسواها .

ثم ظهر أخيراً ديوان ألحان وأشجان للشاعر السودانى محمد محمد على . .

وبقيام الحرب العالمية الثانية قامت مدرسة ثالثة من مدارس الشعر السودانى المعاصر ، وهى مدرسة الواقعيين ، ومنهم : محيى الدين فارس ، محمد الفيتورى ، الجبلى عبد الرحمن ، تاج السر ، وسواهم من الشعراء الذين تأثروا بالشعر المصرى والمهجرى ، وغلب على مضمون شعرهم الميل إلى النزعة الواقعية ، وقد ظهر لهؤلاء الشعراء عدة مجموعات شعرية تمثل مذهبهم فى الشعر ويغلب على مضامينهم النزوغ إلى الحرية والانطلاقة والثورة ، وتأييد حركات المقاومة وتأبين الاستعمار وعصره البائد .

وهكذا نرى أن الثورة المهدية ، وهى ثورة وطنية كبيرة ، كانت الشرارة الأولى التي أطلقت الشعر السودانى من قيوده ، وسارت به خطوات كبيرة فى سبيل التحرر والقوة والثراء ، وكانت إلهاماً قويا ، وكان صداها عنيفاً فى أذهان الشعراء السودانيين . . وقد استمرت ملهمة موحية للشعراء فى القطر

الشقيق د . فجدها التيجانى وســواه ، وجعلوها نقطة الارتكاز فى تاريخ السودان . وكانت بداية الأدب الحديث هناك . كما كانت الثورة العرابية بداية الأدب الحديث فى مصر ، والدعوة السنوسية أو سمها بـ « الثورة السنوسية » بداية الأدب الحديث فى ليبيا .

ونحن لانجحد عوامل كثيرة أخرى أثرت فى الشعر السودانى ، من مثل : البيئة الأدبية فى السودان ، وأدب مصر ، وأدب المهجر ، وعروبة السودان ، والثورات الوطنية فى السودان التى قامت امتداداً للثورة المهدية ، مثل ثورة الشريف محمد الأمين ، وثورة السلطان على دينار عام ١٩١٦ وثورة الدلنج عام ١٩١٧ ، وثورة على عبد اللطيف عام ١٩٢٤ ، ثم ثورات الشباب الوطنيين فى سبيل طرد الانجليز من ربوع السودان .

ونقول أخيراً إن الشعر السودانى لازال يتابع خطواته فى سبيل التجديد والقوة والحرية .

شاعرية التيجانى بشير

الوحدة بين شمال الوادى وجنوبه ، ليست شيئاً من صنع التاريخ ، ولكنها حقيقة خالدة من صنع الله ، وشعور أبدى بروابط الفكر والروح والآمال والآلام ، وحنين متصل إلى الحرية والقوة والمجد ، كما يعبر عن ذلك شاعر السودان بل شاعر الوادى ، المرحوم التيجانى بشير ، أبلغ تعبير ، فيقول :

عادنى اليوم من حديثك يامصـ ـرُ رُنى ، وطوفت بى ذكرى
وهفا باسمك الفؤاد ، ولجت بسمات على الخواطر سكرى
من أتى صخرة الوجود ففرا
ها ، وأجرى منها الذى كان أجرى
هو من صاغنا على حرم النيـ ـل وشطآنه دعاء وشكرا
إنما مصر والشقيق الأخ السو دان كانا لخافق النيل صدرا
حفظا مجده القديم ، وشادا منه صيتاً ، ورفعا منه ذكرا
كلما أنكروا ثقافة مصر كنت من صنعها يراعاً وفكرا

ويعبر فى قصيدة أخرى عن هذه الوحدة الوثيقة ، فيقول :

مصر دين الشباب: فى الحضر الرا فه والبدو ، من قرى وبقاع
حبذا الموت فى سبيلك يامصـ ـر لنشء عن الحمى دفاع

وهذا الشعور الملتهب فى نفس الشاعر بوحدة الوادى ، ألهمه روائع الآيات فى النيل ، نهرنا الخالد ، يقول من قصيدته « فى محراب النيل » :

إن عبدنا فيك الجلال فلما نقض حق الذياد عن محرابك
أو تعمنا بك الزمان فلم نبـ ـل بلاء الجدود فى صون غابك

ويشبه حبيبه بالنيل تشبيها جيداً في قصيدته «أنت أم النيل ؟» فيقول:

أنت يافاتني أم النيل زخا ... را ؟ بنفسى كليكما من شبيه

غنيا السحر من شواطئه الخضـ ... ـر ، وغن الزمان من ماضيه

واذكر سالفاً مجيداً على الدهـ ... ـر ، عزيزاً على كرام بنيه

ويركب الشاعر زورقاً يسبح به في النيل ، فتتقاذفه الأمواج ، حتى ليشرف على الهلاك ، فيقول يخاطب النيل :

رفقا بمن آواك إلهـــامه ... وصاغ في صدرك وحى الجمال

آماله يانيـــل .. أحلامه ... شبابه الغض الوريف الظل

ويكرر ذلك ، فيناجى النيل في بشر وحب وأمل ، فيقول من قصيدته « الزورق الأخضر » :

الله في الزورق مـــن غافل ... يانيل لم يظفر بربان

شراعه الحب ، ومجـــدافه ... قلبان طفلان غـــريران

احفظ صبييه ، وباركهما ... للحب يانيـــل وألحانى

وهكذا كان يغرد التيجانى ، الشاعر المؤمن بوحدة الوادى ، والذى أذاب نفسه ألحاناً ساحرة ، كان يبعث بها الحياة والأمل في قلوب المصريين والسودانيين على السواء . . وهذه إحدى خصائص شاعرية التيجانى ، ابن النيل الطموح ، وشاعر الوادى المفرد .

والتيجانى يمثل فكرة جديدة في الشعر السودانى الحديث ، فقد طفر الشعر في السودان على يديه من عهد الأناشيد العامية ، والمعارضات الأدبية للقدماء ، إلى طور الاستقلال والذاتية والنضوج الفنى ؛ وأصبح الشعر السودانى بفضل عبقريته ، تعبيراً واضحاً متميزاً جميلا ، عن البيئة والمجتمع

والشعب ، وحياة الأمة وآمالها وآلامها ، وثورتها فى سبيل الحرية والعزة والكرامة . . وتلك خاصية « ثانية » لشاعرية الشاعر ! ومن ثم انتظم شعره النزعات الوطنية الحرة ، كما انتظم الكثير من أوصاف الطبيعة والاستغراق الذهني فى مشاهدها ، والتبتل الصوفى فى محرابها ، كما فى قصائده: « الخرطوم مدينة الشعر والجمال » ، و « توتى فى الصباح » ، وتوتى جزيرة مشهورة أمام الخرطوم ، و « من أغوار القلب » ، وقد وصف فيها استقبال روحه للربيع وجماله الأبدى، وتحدث فيها كذلك عن حبه وأحبابه.

وللتيجانى شعر وجدانى كثير ، يمثل نزعات نفسه ، وخلجات قلبه ، وأعمق مشاعره وهواجسه ، ويتمثل هذا الشعر الوجدانى فى غزله وحبه ، وفى أحاديثه عن نفسه وآلامه .

أما شعره فى الغزل فتصوره قصائد كثيرة فى ديوانه ،من أجملها ، نعيم الحب » ، ومن « وراء النافذة » و « النائم المسحور »، و « فى الموحى » التى يصف فيها نشوته الروحية بساعات لقاء فى الظلام ، و « القمر المجنون » ، وقد تحدث فيها عن حبيبة له تسمى « قمرا » ، أحبها وأحبته ، ثم تزوجت قسراً سواه ، فدفع بها الحب إلى الجنون، وقصيدته « جمال وقلوب » ، وهى رائعة حقا فى تصوير مشاعر محب وامق ، ويقول فيها :

وعبدناك ياجمــال وصغنا لك من أنفاسنا هياما وحبا
ووهبنا لك الحياة وفجر نـا ينابيعها لعينيك قربى
من ترى وزع المفاتن ياحسـ ن ،ومن ذا أوحى لنا أن نحيا ؟
من ترى وثق العرى بين مسحو رين أسماهما جمـالا وقلبا

وأما شعره عن نفسه فكثير متصل فى الديوان ، ومنه قصائده الجميلة : « الخلوة » وقد وصف فيها طفولته وهو يحفظ القرآن فى المكتب « والمعهد

العلمى » ويصور فيها حياته العلمية الأولى فى معهد أم درمان ، وبدء ظهور نزعات الشك فى تفكيره ، « وقلب » وقد تحدث فيها عن قلبه ومنازعه وخطراته العميقة ، « وهوى ونقر » وقـد تحدث فيها عن فقره وهواه وضيع دنياه معه ، ويؤلم الشاعر ضياع عبقريته وأدبه فى وطنه فينظم فى ذلك قصيدته « الأدب الضائع » .

وفى قصيدته « إلى » التى يصور فيها أحاديث نفسه ، يقول :

ويا مهيض الجناح كم أمـل تبغى ، وكم فى السماء تطلب ؟
تود مصر الزمان ، وهى لما يأمل منهـا الشباب مطلب

ويـكاثره غنى مترف ، فينظم فى ذلك قصيدته « قلب من ذهب » ويقول منها :

أينا يزحم الوجود جناحيـه ، وتمشى الحياة بين ضميره
لى دنيا الفنون والوحى والألـهام من صدقه ومن مسحوره

وفى قصيدته « نفس » يصف نفسه الحرة الأبية ، فيقول :

سبحانك اللهـم نفـس كلهـا عطف ولين
وتر من النـادى المقدس من بقـايا المرسلين
من قـدس داجيـة الشعور ، وطهر واضحة الجبين
من كل سحر فى الوجود ، وساحـر فى العالمين
من مهبط الروح العـزيـز ، وعنصر الجسم المهين
صيغت فكانت حرة أبدا على مر السنين

وتسود شعره الوجدانى نزعة واضحة من القلق الفكرى والروحى ، مما يبدو واضحا فى قصيدته « يؤلمنى شكى » ويقول فيها :

أشك ، يؤلمنى شكى ، وأبحث عن
برد اليقين ، فيفني فيــه مجهودى
أشك لا عن رضــا مني ، ويقتلنى
شكى ، ويذبل من وسواسه عودى

ويقول فى مطلع قصيدته « حيرة » :

بين اثنتين أسر أم أبكى قبس اليقين وجــذوة الشك ؟

وللتيجانى شعر وصفى ، من أروعه قصيدته « فجر فى صحراء » وقصيدته « الطفل » التى وصف فيها قدرة الله الباهرة فى خلق الإنسان . . ومن أبدع شعر الرثاء فى شعره قصيدته الطويلة « دمعة على طفل » .

ومن أظهر خصائص التيجانى فى شعره ، نزعته الصوفية العميقة المشوبة بموسيقى غنائية رائعة ، ويصف الشاعر حياته الصوفية الأولى فى صباه ، فى قصيدته « الصبي العابد » التي يقول فيها :

كنت بين الصبــا نعمت بإيمــا ن رضى ، وأين عهــد صبايا ؟
فسلبت الهدى ، وعوجلت فى النو ر ، وقد كنت صادقا فى هدايا
تاه متى الصبا ، وضلت سنون بعــد فى منطق كثير القضايا
ومضى الشك باليقين ، فلله فؤاد تأكلته الرزايا

والشاعر فى قصيدته « الصوفى المعذب » ، مؤمن عميق الإيمان ، وحدة الوجود مذهبه ، وهداية السماء نبراسه ، وفى أسرار الكون تفكيره . . ويقول منها :

الوجود الحــق ما أو سع فى النفس مداه
والسكون المحض ما أو ثق بالروح عــــراه

كل ما فى الكون يمشى فى حنـايـاه الإله
هـذه النمـلة فى رقـتهـا رجـع صـداه
هـو يحيـا فى حواشيـها ، وتحيـا فى ثراه
وهى إن أسلمت الروح تلقفتهـا يداه
لم تمت فيها حيـاة الله إن كنت تـراه

ويؤكد الشاعر نزعته إلى التصوف فى قصيدته « قلب الفيلسوف » التى يقول فى آخرها :

فى موضع السر من دنياى متسع للحق ، أنتـأ يرعانى وأرعاه
هنا الحقيقة فى جنبي ، هنا قبس من السموات فى قلبى ، هنـا الله

وللتيجانى نزعات فلسفية عميقة فى شعره ، فهو يتخذ من ينابيع الوحى طريقه إلى المعرفة ، ويؤمن بمذهب الشك ، لأنه السبيل إلى الحقيقة ، ويرى فى الدين دافعا للبشرية نحو الخير والمثل العليا ، وأن المعركة الأبدية بين العلم والجهل متصلة ، ونهايتها من غير شك انتصار العلم ، كما يقول فى قصيدته « اليقظة » التى تحدث فيها عن أحرار الفكر ، وعن العقل الإنسانى وتطلعه إلى كشف المجهول من أسرار الحياة .

وبعد ، فإن شعر التيجانى يمثل عقلا نفذ إلى أعماق الوجود والحياة ، وثقافة واسعة استمدها من اطلاعه على كتب التصوف والفلسفة ، كما يمثل شخصية أدبية مستقلة فى التفكير والتعبير ، وفى خصائص الشاعرية والبيان ، وفى خيالات الشعر وأسلوبه ووحدة القصيدة فيه .

ولقد قرأ الشاعر طويلا فى مصادر الأدب العربى القديم والحديث على السواء ، قرأ للجاهليين والإسلاميين والمحـدثين ، كما قرأ لشوقى وحافظ

ومطران، وشكرى وأبى شادى وناجى والصيرفى، وعلى محمود طه والهمشرى والعقاد وشعراء المهجر وسواهم . . ولكنه لم يقلد فى الشعر أحـداً ، ولم يعارض فى قصائده شاعراً قديماً أو حديثاً ، وذلك يتم عن ملـكات شعرية مطبوعة ، متصلة بينا بيع الالهام الصادق فى نفسه .

ولقد مهد التيجانى بشعره لمدرسة جديدة فى الشعر السودانى المعاصر . . وفى عمر الزهور ، وإشراقة الشباب ، مات الشاعر عام ١٩٣٧ ، عن خمسة وعشرين عاما ، ولم يترك وراءه سوى مقالات قصيرة فى الأدب والنقد ، كانت تنشرها له المجـلات الأدبية فى مصر والسودان ، ولم تجمع بعد فى كتاب ، وغير ديوانه الصغير « إشراقة » الذى يحتوى على ست وستين قصيدة ، تمثل أجل الالهامات الشعرية ، وأجل الآيات المعبرة عن شاعرية موهوبة ، لها منزلتها فى تاريخ الشعر السودانى الحديث . . وصمتت إلى الأبد هذه القيثارة الساحرة .

من جوانب الحركة الشعرية فى السودان

الحب والجمال فى شعر عبد الله الطيب

— ١ —

الدكتور عبد الله الطيب من رواد النهضة الفكرية والأدبية والجامعية فى السودان الشقيق . . وكتبه ودواوينه الشعرية غـذاء للعقل والذوق والعاطفة والشعور ، ومنها : المرشد ، وسقط الزند الجديد ، ومع أبى الطيب ، والقصيدة المادحة ، واللواء الظافر ، وبانات رامة .

وآخر دواوين الدكتور الطيب « أغانى الأصيل » ، وقد صدر عام ١٩٧٦ عن دار جامعة الخرطوم للنشر ، وقامت بطبعه دار الطباعة بجامعة الخرطوم ، فى ١٧٠ صفحة — ويحتوى على نحو ١٧٠ قصيدة وقطعة شعرية كلها فى الحب إلا قصائد قليلة ، كقصيدته فى رثاء الدكتور طه حسين وقصيدته فى رثاء أخته ، وقصيدته « الشعر والنقاد » ، وهى صورة لطفولته وحياته وكفاحه ، وقصيدته « مصابيح القلوب » وهى فى المدح النبوى .

وباقى قصائد الديوان فى الحب والغزل والجمال ، حتى لا تخلو قصيدة منها من حديث عن المرأة ، ووصف للجمال ، واسترسال لذيذ مع الحب ، والحب عند عبد الله الطيب هو جزء من روحه وقطعة من حياته ، وحديث عميق يصدر من عاطفته ومشاعره الدفينة .

وقد أهدى الشاعر الدكتور الطيب ديوانه — أغانى الأصيل — إلى على الجارم وطه حسين وفاء وتقديرا وذكرى .

والديوان مصدر بمقدمة كتبها شاعرنا روح الأستاذ الموجه ونادى فيها :

١ — بالاستمرار في تعليم أشعار الأوائل ومختاراتهم الجياد ، وروائع فحولهم ، من أمثال أبي تمام ، والمتنبي ، والذين ساروا على منهجهم إلى عصرنا كالبارودي وشوقي وحافظ .

٢ — كما نادي بتصحيح الأذواق ، وبالتمكن من اللغة وفهمها والمحافظة عليها .

٣ — وبجوهرية عنصر الموسيقي في الشعر ، معلنا التزامه بالوزن العمودي الخليلي .

وفي قصيدته الطويلة الجميلة « أناشيد ذلفاء » يتحدث الشاعر عن طفولته في موطنه « كسلا » حديثا شيقا جميلا عذبا ، ويصف الطبيعة والحياة هناك وصفا شاعريا مؤثرا ، يقول :

فاذكر أيامك الأولى إذ العيش رخاء
والحيا في « كسلا » خصب وأملوك سواء
وعلى الآفاق إعصار وقد غام الفضاء
ومن السقف لصوت الرعد في العين هباء
ومن الخضرة حول البيت للأرض كساء
وعزاء القلب ذلفاء وما منها عزاء
وقديما يعشق الحسن العزيز الشعراء

ويتذكر أباه وحبه له وآماله الواسعة العراض فيه ، فيقول :

وتذكرت أبي كان أبي ضوء قبيلة

ولقد أمل أن أبلغ غايات جليلة
والمنايا تعجل الحازم والدنيا بخيلة
ولقد عوجل إذ أعجبه منك المخيلة

وفى قصيدة « الشعر والنقاد » يذكر الشاعر جوانب من طفولته وحياته، فيقول:

تذكرت أيام الطفولة حينما يعلق بى آماله الغر والدى
وكان أبى يا عطر الله ذكره فريدا وبين الناس جم المحامد
يعلمنى علم المروءة ناشئا وفى قلبه حبى وعرفان واعدى
وكنت صغيرا جاهلا غير آبه لما خبأته من صروف مشاهدى
فأيقظنى مر السنين وذادنى
عن الورد من كأس الحداثة ذائدى

وقصيدته « فى كسلا » تصوير جميل لمظاهر حياته فيها ، إذ هو صبى صغير .

والديوان مملوء بصور حياة الشاعر فى شتى مراحل عمره ، وهى صور كلها مشتقة من البيئة — والأسرة والأمل والألم والطبيعة الحالمة فى أودية النيل المعشوشبات . الجميلات .

— ٢ —

وقلب الشاعر الدكتور عبد الله الطيب ومشاعره وروحه ثرية بحب الجمال والهيام به والتصوف فيه . ولعل من أسباب تعلقه به : حياته الأولى نفسها فى كسلا ثم فى الخرطوم ، حيث مشاهد الحياة والطبيعة والمرأة تثرى القلب والعاطفة والوجدان ، ثم حياته فى لندن طالبا للعلم فترة ليست بالقصيرة وهذه الفترة يذكرها الشاعر بكل أعماق مشاعره ، يقول من قصيدته « أناشيد ذلفاء » :

ولقد تذكرت من « لندن » أياما جميلة
وفتاة زودتنا وصلها عند الخميلة
وبفارقنا فعين الصب بالدمع كحيلة
والتى هام بها القلب مفداة نبيلة

وفى قصيدته « لندن وباريس » يصف حياته فى انجلترا ، ويقول :

وكنت بها قد قضيت الشباب إلى العلم فى سوحها أختلف
تعلمت فيها علوم الحياة ومن ثمرات الحجا أقتطف
وشاركت فى حلقات النقاش وأقرأ كل ضروب الصحف

كما يصف حبه فيها فى قصيدته « صهباء ليس » ، ومنها يقول :

هل تذكرون أخى أيام لندرة
إذ لذة العيش وثب والهوى درج

إلى آخر هذه الأبيات .

وبالوفاء يذكر أيامه اللندنيات الجميلات ، كلما واتته الذكريات .

وليست حياته وذكرياته فى لندن من أسباب هيامه بالجمال وحدها فقد طاف الشاعر بالعالم شرقا وغربا ، فهو حينا فى أبادان ، وحينا فى طشقند ، وحينا فى بغداد ، وحينا فى مصر وآخر فى الحجاز أو الرباط ، ويوما فى يوغسلافيا ، وآخر فى اليونان الخ ، ومن شأن هذه الرحلات الدائمة أن تثرى العواطف والمشاعر بكل ألوان الجمال ومشاهده :

أقلب نفسى بين البلاد تقلبنى الغربة الكادحة
كذا استمر ولا أستقر على الموج كاللوحة الطافحة

وتذكر طوافه فى العالم فى قصيدته « الحبيب يزار » .

ويقول الشاعر الدكتور عبد الله الطيب :

وإنى لمغرى بالجمال وإننى لعمرك قد خلدته عند خالد

ويقول حيث يمتزج الحب عنده بالتصوف والإيمان العميق أو بالشاعرية الموهوبة ، والبيان الثرى :

وأوتيت مقدرة فى البيان وتبهر بالأدب الرائع
وأنت امرؤ عربى السليقة تصفو بوردك للكارع
وتهوى الجمال وتبغى الكمال وتخبت بالورع الخاشع
وتتلو الكتاب وترجو الثواب وليس دعاؤك بالضائع
وطاع إلى القريض العصى الذي ما لغيرى بالطائع
وأبيات شعرى رناتها كصلصلة الجرس القارع

والحب عنده أقوى سلاح فى يد الشاعر يحارب به حتى أعداءه ، كما يقول فى ديوانه :

غرد بحبك يا متيم غرد وعلى عدوك سيف حبك جرد
فالحب أقوى ما تقاتلهم به إذ لاتبالى بالجموع الحشد

والحب عنده أقوى من اللذة ، وأسمى من الجنس، يقول :

فمن ظن أن الحب بادرة الهوى من الجنس فليعلم بأن ليس ناجى

وقد ورث الشاعر حب الجمال عن أبيه حيث يقول :

وأبى كان عاشقا مثل عشقيـ ـها ، ويلقى صداه فى مزمارى
ونظمت القريض بالألق الخا لص فيه الضياء من أنوارى
ولدى الشعاع من عالم الذ ر ، ونفس بعيدة الأقطار
حبذا أنت يا « لميس » وأهوا ك وقد لاح فى دجاك منارى

والتي تيمتك يا أيها الشا عر حورية من الأغوار
وأحب الأنام ظرا إلى قلـ ـبي وما كان حبها من عار

وكان المنطق أن يقول : « وقـد لاح في دجاي منارها » فلماذا عكس الشاعر هل يتغزل بنفسه أمام حبيبته ليس ؟ أو هل هي ضرورة الشعر ؟ لا أعرف سببا لذلك . فغزل الشاعر بنفسه أمام محبوبته ممـا لا يرضى عنه العشاق والمحافظون على تقاليد الحب وآدابه ، والشاعر نفسه يقول من هذه القصيدة نفسها :

وتحب الثناء ذات الفراشا ت ، وتهوى إلى هواها اعتذاري

والشاعر يحيط الجمال دائما بتقديره وإجلاله فيراه حرية ، ويقول :

والحسن حـرية وأنت به فاتنـة للقلوب مفتـونة

والنبع الأول والأكبر لشاعرية شاعرنا الطيب هو الحب، يقول :

فيا أحبـاء فؤادي بكم أشدو وألحاني ملء الزمن

بل يقول معبرا عن هذه الحقيقة :

وقـد تعلمين بأني لحبك سدت فكل فـتى مادحي
وحبك فتق في البيـــان وأورى بزندي للقـادح
ومن أجل حبك أهوى بلادي على عنت الحاسد الكاشح

وفي الحب كان له شغل شاغل عن كل شيء حتى عن السياسة وعالمها يقول .. :

ولقـد وقفت أراقب الأحداث والـ
أحـداث لا تألو إلى فنونـا
ولقد نسيت من السياسة حولنا إعصارها وجحيمها الملعونا
والغيب أسرار ونور حبيبتي يمحو الظلام ويبرز المكنونا

ويرى الشاعر أن الحب هو أقوى حقيقة من حقائق الحياة ، فيقول :

تحملين الأعباء مثلى من الحب وكان الغــرام أقوى حقيقة

وهو السعادة الكاملة التى اهتدت إليها نفسه وروحه ، ومنه كان الشعر والبيان والبلاغة التى عرفها الناس فى شعر الشاعر ، فيقول فى موقف لقاء وتسليم :

وقد عرفت نفسى السعادة حينما تهلل بالتسليم كف وساعــد
وحن إليها طائر النفس إنهــا هى الدوحة الخضراء والظل بارد
وعيناك مصباح منــير وعالم كبير وإنسانى بعينيك ماجد
ألم تجدى أنى اشتهيتك فوق ما يكون اشتهاء الجنس والجنس مارد
تعــالى إلى مأواك لى وتأملى بيانك عندى إن شعرى خالد

ويقول كذلك يصف سعادته فى الحب :

وأبصرت إقبال السعادة حينما رأيتك يا ليلى وهب نسيمى

بل إن الشعر عنده عزاء عن الحب ، فيقول :

طالمــا غنيــت يا شا عر والشعر عــــزاء

ومن هنا كان مزجه بين الشعر والحب ، وبين الجمال والعبقرية حيث يقول :

وهى الجميلة لا نظـــير لحسنها أبدا ، وهذا الجيل أنت أديبه

والشاعر يعجب كيف مزج فى حياته بين الحب والتصوف ، فيقول :

ألا ليت شعرى أى عذريت جنة أتاحك هذا الحب يا بن المساجد
وإنك ذو قلب تضمن ثــورة على كل شىء فيــه تأمور مارد
تكبله هــذى القيود ولم يزل يحطمها بالعبقــرى الجالد
وإشراق نفسى بالبيان كأنه على لبة الحسناء در القلائد

والشعور بالعظمة عند الشاعر يقترن بالحب ، ويأتى فى أحاديثه عن الهوى والجمال ، يقول الشاعر متحدثا عن حبيبته :

قالت أرى أنك العظيم وأخـ ـشى الناس أن يجعلوك مفتونا
وأنت فخر البلاد والقائد الفكـ ـر ومن ذخره سيغنينا

ويقول كذلك ينقل إلينا حديث حبيبته له :

والغناء الرخيم فى شعرك الخا لد من وحى ربك القهار

ويتصور الشاعر أنه بفكره وشعره قد ملك عرش الحياة ، وليس تاج المجد :

ولى تاج أراه يضىء لما كسا الأفاق إظلام الليالى
وأنت عميق غور الفكر ماض على سنن العباقرة الأوالى

وليس للشاعر عن الحب من مفر ، يقول :

الحب يا صاح أمره قدر من قدر الله والنهى قسم

— ٣ —

والشاعر الدكتور عبد الله الطيب فى حديثه إلى حبيبته يسترسل فى قص ذكريات حبه العذاب ، ووصف مشاعره المفعمة بالسعادة فى الحب ، كل ذلك فى عذرية بريئة ، وخيال شائق ، وبساطة حلوة ، وتنقل بين مشاهد الطبيعة ومفاتنها ، يقول فيما يقول :

صديقة قلبى وراحة نفسى ومتعة روحى والمرتعا
وتفسح عمرى حتى الزمان يصير بإشراقها أوسعا
وحتى نكون معا واحدا بشخصين هاما ولن يفزعا
ألا حبذا جاسات لنا مهذبة كوبها شعشعا

فإن كنت تجهل أمر الهوى ... فعندى أسراره أجمعا
تعالى أعلمكه إننى ... تيقنته وسواى ادعى

وحول أن الحب يفسح عمر الشاعر يقول أيضا فى عذوبة صادقة :

وأشرقت الدنيا بنور أديمها ... وعيشى بها رحب وعمرى أفسح

وهى حقيقة نفسية واضحة ، فشعور الإنسان بالسعادة فى الحب مما يطيل فى حياته ، ويبعد عنه الآلام والأسقام ..

وليس هناك من وصف أجمل من هذا الوصف الذى يصور فيه الشاعر الدكتور عبدالطيب حبيبته ، إذ يقول:

وأبصرتها فى النيل وهى عبابه ... وأمواجه والريح تهدر هدرها
وأبصرتها قمراء ليل ترفعت ... وألبست الدنيا سناها وفخرها

ويقول أيضا :

حبذا أنت والجمال كساء ... الله والحب عصمة ووقار

أو يقول :

لها بسمر الياقوت والدر جلدها
صفاء وكانت تفضح الناس والكتبا

ويناجى حبيبته فى همس وسكون وخشوع فيقول :

أنا ياذات الفراشات أحاديث حسان
جيدك الناعم للحب أمان وأمان

ويقول فى وصف جمال خدها وتورده :

تورد خدها فأضاء فيها ... ربيع كان قبل له ذهاب

— ٤ —

وتتعدد المواقف والمشاهد ، وتكثر الصور والمناظر في شعر الدكتور الطيب وهو يتحدث إلى محبوباته ، وهن كثيرات ، وكأنه كما كان يقول عمر بن أبي ربيعة : « إني امرؤ مولع بالجمال أتبعه حيثما كان » .

وفي أغلب ظني أن الشاعر الدكتور الطيب يكني بتلك الأسماء الكثيرات عن حقيقة واحدة هي محبوبته التي يشيد بها في كل قصائده .

وأقرب إلى خلدي أن ندرجه في سلك الشعراء العذريين الذين يهيمون بالجمال من حيث هو الجمال ، لا من حيث لذات الجسد ، ومتعة الجسم ، ولنقرأ قصيدته « زوديتا » فسنرى الشاعر محبا صادق الحب ، خالص الهوى عذري النزعة ، بعيداً عن اللهو والعبث واللذة ، ويقول الشاعر من هذه القصيدة :

زوديتا تحية ياسعاد وألي فان قربك زاد
واعلمي أننا على العهد باقو ن ولازال شوقنا يزداد
ولنا الذوق والتجلي وفينا ماحبته آباؤنا الأوراد
ومرنا على الصيام عن الشهـ ـوة حتى كأننا زهاد
وعرفنا معنى الفناء الذي لا يطلب الوصل عنده الأجساد
وعشقنا العشق المقيم الذي تعـ ـجز عن درك كنهه العباد
مانسيناك قد رأيناك بالبـ ـلي ولازال منك يصبو الفؤاد
لاتضني بالقرب يا أم حسا ن كلانا إلى أخيه مراد
أنت حقا جميـلة ومحيا ك مضيء وعندك الاسعاد

ففي هذه القصيدة تلمس عذوبة الحب وصوفية الهوى عند الشاعر ، فهو قانع بالتحية ، طالب للزيارة ، مقيم على العهد ، شوقه في ازدياد ، وهو يعيش وكأنه من الزهاد ، يعرف الفناء في الحب ، الفناء الذي لاتطلب الأجساد

عنده وصلا ، وعشقه عشق عظيم ، حتى العباد لاندرك كنهه ، وهو لم ينس محبوبته ، ولايزال فؤاده يصبو إليها ويشتاق لها ، وهو يخاطبها فى توسل ظاهر أن لاتبخل عليه بالوصال ، إنها جميلة حقا ، محياها مضىء ، ولديها الإسعاد . . إلى غير ذلك من المعانى الثرية النبيلة التى يصورها الشاعر فى قصيدته .

وهو يشمل بحبه كل شيء : الوطن — الأهل — الديار — النيل . .

فى مصر لست غريبا إذ أكون بها لى الصديق وأنس كان كالراح

ومصر عنده هى وطنه أيضا ، ولها الهوى والحب والهيام :

ووقفت عند (سميراميس) أرى لكم طيفا ، وأبصر جيزة ونخيلا

والشاعر الدكتور الطيب من مدرسة الكلاسيكيين الجدد ، أمثال عزيز أباظة والشابى وعلى محمود طه ، ومن إليهم ، وهو يرى الشعر تجويداً وتهذيبا يقول:

والشعر أنظار فى تجويد أشطره للناقدين ، إذ التجويد من هممى

ويقول أيضا :

وقد نظمت قريض الشعر ، أحسنه والدهر يعجب من صوتى وإفصاحى

وهو يصوغ قوافيه نبيلة محكمة ، حيث يقول فيما يقول :

يارب نصرك فانصرنى وإنك إن لاتنتصر لى فمن نصحاك يحميها

ومن يفسر آيات الكتاب وبالإعـ ـراب معجزة القـــرآن يرويها

وهو بثقافته الواسعة يسير فى ميدان القريض مجودا ومجددا :

وأعاجيب عـــلوم وفنـــون حويت

وصنوفا من حديث حسن الجرس وعيت

وهو ينوه بمواهبه فى شعره فيقول :

وجربت ريب صروف الزمان   وقد ذهب الأخ والوالد
وأقبلت تبغى سبيل المروءة   يا صاح إذ سوقها كاسد
حفاظا كريما وكان الحفاظ   عندك من إرثه الخالد
وأحسب أن جميع الحياة   سراب وأنت له وارد

ولا أدرى ما إعراب « الخالد » هل هى مرفوعة أو مجرورة ولعل الشاعر استجاز هنا الاقواء على أنه معيب أو ضرورة .

ويؤكد الشاعر أن الشعر كان ميراثه عن والده فيقول :

ولقد ورثت أبى وكان مجودا   نظم القريض وبيته معمور

ويقول أيضا :

ولقد ذكرت أبى وكان مجودا   نظم القريض ويبدع الابداعا

وللمتنبى نصيب كبير من تأثره الفنى والفكرى ، وشاعرنا د . الطيب نراه يقول كما قال أبو الطيب :

وجربت هذا الناس حتى سئمتهم   وصابرتهم حتى سئمت مخارجى

ويقول أيضا :

وجربت أصناف هذا الأنام   وكم كان فيهم لك الحاسد

وهو يصرح بالأخذ عن المتنبى والرجوع إليه ، حتى ليقول له فى إحدى قصائده :

وقال أبو الطيب العبقرى إن الهوى كله فاسد .

واثنان من المفكرين الأدباء تأثر بهما شاعرنا د . الطيب : واحد فى القديم هو أبو عثمان الجاحظ الذى يذكره فى قصائده ، حتى تجده يقول فى بعضها :

وقال أبو عثمان: قد يذهب الهوى وتبقى صدوع منه هيهات رأبها

والآخر من المحدثين وهو الدكتور طه حسين ، الذى يقول فيه الشاعر :

وغرست الغرس الكريم من المجـ ـد وللدهر حوله إعصار
وسعيت المسعى الذى أعجز الطا لب إن الأصالة المضمار
ورأيت الرؤيا التى عميت عنها القلوب الغلاظ والأبصار

وللشاعر قصيدة غزلية عنوانها « فكر طه » يقول منها :

وهش إلينا فكر طه برأيه ومنه خلاصات السنين نقادها

بل لقد كتب قصيدة فى رثاء طه تعد من أجود شعره ، ويقول فيها :

شغفنا به فى زمان الصبا وذقنا التذوق من عذبه
قرأنا تصانيفه واستفدنا نمب السلافة من شربه
ونحن بها من تلاميذه وأى أولى الفضل لم تسبه
وأحزنني الناس لما نعوه إلى ، وجدى من سببه

ومع ذلك كله فالشاعر يتأثر الشعراء القدماء ويحتذيهم ، فنجد بعض قصائده تذهب مذاهب قصائد قديمة ، فقصيدته « رقة وشكاية » هى مثلا « نواسية » المذهب ، ومطلعها :

لعل الفتاة المشتهاة تزور وإنى إلى معروفها لفقير
وإن لها وجها عليه نضارة وفى طرفها طير الحياة أسير
وفى الشفتين رقة وشكاية إليك وإيماء معا وحبور

فهى على نهج رائية أبى نواس فى مدح الخصيب ، والتى يقول فيها :

أجارة بيتينا أبوك غيور وميسور ما يرجى لديك عسير

ومن ثم حسب بعض الدارسين أن نهج الشاعر الدكتور عبد الله الطيب نهج قـديم ، والشاعر يذكر ذلك ويرد عليه فى قصيدته الخيال الشعوبى فيقول :

ألا إن ـ لاتنظم «ألا إن» ـ إنهم يقولون هـذا الشعر نهج قـديم
وقد ملكتنا الأدعياء وساطت صنوف دعى بيننـا وزنيم

والحقيقة أن الشاعر الدكتور عبد الله الطيب يملك إلى جانب مايملك من مواهب وعبقرية شاعرة ثرة ، وفكراً رائعاً ، وخيالا خصباً ، ومقدرة لغوية فائقة الحد ، رفيعة المستوى ، لايملكها أحد من شعراء اليوم ، وهو بحياته مع التراث وإشاراته إليه فى شعره كثيراً ، يرمى بأن نهجه نهج قديم وما أجمل هذا النهج القديم إذا تحلى بالأصالة والشخصية والعبقرية ، وليس الشاعر الدكتور الطيب إلا واحداً من هؤلاء الشعراء من مدرسة الكلاسيكيين الجدد الذين أثروا نهضة الشعر بكل جـديد ورائع وعجيب ، مع محافظتهم على الأصول اللغوية الموروثة .

وعبد الله الطيب يعيش بعبقريته فى غربة ، ويقول :

إن العبقرى غريب دار وإن تبصره فى أهل ومال

وهو معتد بنفسه كل الإعتداد حتى ليقول

ولك السفلة والدون من الناس فداء

ويصور عقلية الجماهير فيقول :

وسواء لدى الجماهـير لوتعـ ـلم أهـل الصلاح والفجار

ويعلن ثورته على الانتهازيين فيقول :

وقد ضقت ذرعا بهذا العناء ووطنت نفسى على الواقع
وذقت الأمرين حتى دربت بتجـــربة الألم الناقع

وأحمل نفسي على المكرمات ويارب ذى رحم قاطعى

ويقول أيضاً :

وقد ضقت ذرعا بهذا النفاق والمين والكذب الشائع
وإنك انتهازية قد طغت على كل شيء بلا وازع

ويقول :

ألم ترني قد سهرت الدجى ومن حولى السأم المجدب

ويعلن تمرده على بعض الناس فيقول ويعرض للحديث عن الطبيعة فى السودان وجوه الحار :

ألم تر طول اليوم والحر زاده عناء وأبصرت الوجوه به جريا

ثم ينعى على الجامدين جمودهم فيقول :

وقد نفست لين المعيشة عندنا وحرية التفكير أهل جمود

ويقول أيضاً :

أيمنعنى حرية القول فاجر بلى إن ركني للفضال منيع

— ٦ —

وبعد فإن ديوان « أغانى الأصيل » للشاعر الدكتور عبد الله الطيب جدير بالدراسة والتأمل ، فهو كله أو جله شعر فى الحب والجمال ، والشاعر يكتب قصيدة الحب ، ويتخذ منها وسيلة للحديث عن حياته وذكرياته وآرائه ، فيجيد كل الإجادة . وفى هذا الديوان ثلاث ظواهر فنية تتصل بالأسلوب :

الأولى : التقديم فى الجملة وبخاصة تقديم المفعول من مثل قوله :

وشهدا من الهوى نشتار

، وكنا لك الغرام نسر

، والبـــذل تعطيفــا

وإن لى من غضبى مدية في الروح أعدائى بها أقتل

وكتاب الله أتــلو إذا الخطب نــزل

والثانية : كثرة إضافة المصدر إلى ضمير الفاعل أو المفعول ، مثل :

كراهيتيهم — هواناها — وريكم — إكراميك — حبيك . . إلخ .

والثالثة : وهى ظاهرة فنية واضحة فى شعر الشاعر كل الوضوح، وهى:

كثرة التشبيهات وجودتها حتى ليكاد الشاعر ينافس أمراء التشبيه فى الشعر

العربى القديم من أمثال: أمرىء القيس وذى الرمة وابن المعتز الخليفة العباسى،

وأغلب هذه التشبيهات أو كلها فى شعر الحب والجمال من مثل :

وفــى شفتيــــك التمــر والخمــر والعســل

أو قوله :

كأن محياها صباح وروضة وليل بآفاق السماوات مقمر

أو قوله :

وجيد « لميس » مثل تمثال معبد إذا التفتت بالجيد ، جل المصور

أو قوله :

وما أرسلت ليلى إلى بمرسل ولكنها جاءت تمشى الدياجرا

أو قوله :

إنك ريحـانة ونرجسة وتينـة لاتشبه التينا

إنك زيتونة منــورة من قبس الله ليس زيتونا

أو قوله :

أنت مثــل إقبال الغمامة بالحيا — ألا مقلتاك هما الكوثر — وثغر المليحة

كالسكر — جميلة كحسام السيف — مثــل بركان — وهى التبر والبلور .

أو قوله :

ولا يمل حديث معك يسكرنى وأنت وجهك ياحسناء كالعيد

أو قوله :

إنى أحبك ياليس محبـــة مثل الخريف بكردفان المعشب

ومن تشبيهاته القريبة كذلك قوله :

رب تاج أبهى من العاج فى اللو ن ومثـــل السراج وَالقِينة

ويأخـــذ أحيانا تشبيهاته من البيئة فيبعد عن جزالة العربية ، مثل قوله:

وهى الأرز الرشيد بسمن وعسل

وقوله :

خضراء كالرجلة النضيرة فى الرمـــ ـــل للألاء وجهها ضرم

وقوله :

لدن كان غضــا كالبقــــول شبابا

واكتناز البيت بالمعانى ، واستئناف الجملة الوصفية عن موصوفها ، والخيال المحلق ، الذى يتعلق بخيال القدماء من الشعراء ، والأسلوب الجزل. كل ذلك بعض خصائص أسلوب الشاعر الدكتور عبدالله الطيب فى ديوانه الجديد « أغانى الأصيل » .

وبعد فإن ديوان « أغانى الأصَيل » يضعنا أمام شاعر عملاق ، وأمام شاعرية ، تتسم بالأصالة . والموهبة والفائقة والشخصية الواضحه . . بل إنه يضعنا أمام أسلوب « المتنبى » وجها لوجه .

إنه ديوان شاعر الحب والجمال . . يفد إلينا من الخرطوم على جناح الفكر والسحر والخيال .

مبارك المغربى — شاعر من السودان

— ١ —

مازلت أذكره ، شاعرا رقيق الطبع ، وديع القلب ، كريم النفس ، رضى الخلق ، عف اللسان ، ساحر البيان ، لن أنساه إنسانا نبيلا ، حلو الكلمة ، يستمد الهامه من الطبيعة والكون والحياة ، ومن الجمال الذى هتف وغنى له طويلا ، ومن النيل نهرنا الخالد الملهم .

مبارك المغربى ، أو عاشق النيل ، هـذا الشاعر المبدع والساحر الفنان ، الذى قرأه الناس من كل ناحية فى دواوينه الشعرية : عصارة قلب — ألحان الكروان — عاشق النيل — من أناشيدى — صدحات صيداح — إليك المتاب — من الوجدان ، وفى مسرحيته «رجل من الجنة» وفى كتبه الأخرى من مثل : من الحصاد — مع الأصدقاء ، وسواهما . . . سيظل خالدا أبدا ، لأن ذكراه لن تموت . .

ومبارك شاعر كبير ، بل علم من أعلام الشعر السودانى المعاصر ، ورائد من رواده ، ودواوينه الكثيرة حافلة بآيات الإلهام والموهبة والفن ، وبمشاهد العبقرية المتألقة .

عاش محبا لوطنه ، عاشقا للنيل ، ونيا لمصر وتلك سجيته فى الوفاء والحب والإيمان بشعب وادى النيل فى الجنوب والشمال . .

— ٢ —

يقول فى ديوانه « ألحان الكروان » الصادر عام ١٩٦٠ من قصيدته « أخى فى الشمال » :

أخى فى الشمال حبيب القلـوب
أتسمع صـوت أخ فى الجنـوب

يناجي خيالك عنـد الشروق

ويهتف باسمك عنـد الغروب

أخى فى الجـوار ، أخى فى الدماء

أخى فى الكفاح ، أخى فى الخطوب

خطونا ، فحيـا خطانـا الزمان

وخـلد أمجـادنا فى الشعوب

وتفتنه الطبيعة على شاطىء النيل ، فيقول من قصيدته « الطبيعة على شاطىء النيل » من ديوانه « عاشق النيل » :

ليس هذى رؤى ولا ذاك ماء

شاطىء النيـل جنـة فيحاء

شاطىء النيـل جنـة الله فى

أرض يغنى جمالهـا الشعـراء

ويقول فى قصيدته « تحية الأشقاء » من ديوانه « صدحات صيداح وقد أنشدها فى سبتمبر عام ١٩٧٥ فى جمعية الأدباء فى القاهرة :

يا مصر يا أمل العروبة يا سلاح العزل

يا واحة الظمآن فى درب الحيـاة الممحل

يا موطن العـلم الذى بعطائه لم يبخل

كم من يد بيضاء قد أسديت دون تفضل

لولاك لم ترق النهى متن السماك الأعزل

يا مصر يا أغلى أمانينا ، وأقصى المأمل

تيهى بمجـد حافل بالتضحيات مؤثل

ويردد فى حب طاهر فى قصيدته « لقاء الشقيق » من ديوانه «صدحات» قوله ، بل أناشيده :

يا إخوة النيل يا أغلى أمانينا
طبتم ، وطابت بكم أمجاد وادينا
إنا لكم ، ولنا أنتم ، فلا انقطعت
منا الوشائج ما اخضرت روابينا
وما جرى نيلنا العملاق منحدرا
صوب الكنانة بسقيها فيروينا
إلفان ، صنوان ، أعددنا لأمتنا
جيلا جديدا صنعناه بأيدينا
يا جيرة القلب ما دام الهوى فينا
فلا نخاف أذاة من أعادينا
عاشت أخوتنا ترعى عروبتنا
وعاش فى قمة العلياء وادينا

— ٣ —

لقد عاش مبارك المغربى حياته على ضفاف النيل ، منزله على الضفة الغربية له فى حى « الموردة » بأم درمان . وعندما زرت السودان فى يناير من عام ١٩٧٥ لحضور مهرجان الآداب والفنون ، أقام لنا حفل تكريم عند « المقرن » بجوار النهر ، الذى أحبه ، وهام به . . نعم ، عاش يغنيه أجمل ألحانه ، ويستلهمه أروع أناشيده ، ويبهره جماله السنى ، ومنظره البهى ، وسحره الوضى ، كما تبهره الطبيعة فى بلاده ، يذكرها وهو مغترب فى انجلترا ، ويذكرها وهو يجوب الدنيا ويطوف بالدول فى الشرق والغرب ، ويذكر معها مجد بلاده السالف ، وطموحها السامى إلى القوة والعزة ، ويذكر مدنها

الجميلة . . يقول فى مدينة « سواكن » ذات المجد الحافل ، وقد زارها فبكى على أطلالها دموعة الحرى ، وذلك من قصيدته « سواكن » إحدى قصائد ديوانه « عصارة قلب » :

هذى سواكن قد بدت مثل العروس الباكية
يا موطن السحر المقيم أما شجاك رثائيه
وعلمت أنك فى دمى رغم الديار النائيه
هل من جديد مشرق يحيى الرفات الفانية
ويعيد أيام الصبايا الفاتنات كما هيه
يا غادة عصفت بها ريح الزمان العاتية
منى إليك تحيتي رغم الأسى وسلاميه

وحبه لبلاده ماثل فى كل بيت من شعره . . ويكاد مبارك فوق ذلك يذوب فى الحب هوى وافتتانا ، يقول من قصيدته « ديوان الهوى » من ديوانه « صدحات » مازجا بين الحب والطبيعة فى بلاده ، وبين هوى الغيد الرعابيب وهوى الوطن الخالد الحبيب :

أنت من أنت أنت دنيا من السحر رؤاها تعددت ألوانا
بالذى أوجد الوجود وآتاها رواء الشباب والريعانا
أى وصف ترى يحدث عنها ؟ وهى أوفت على البيان بيانا
يا لعينيك أى سحر تراه فيهما يجعل الشجاع جبانا
(عطبرا) يا نجية الروح والقلب وملقى الوفاء يوم دعانا
فى روابيك شب فينا غرام شديد الحب لم يزل بركانا
بالذكراك كلما طاف طيف وجد القلب ظامئا أسوانا
مرة يشتكى وأخرى يناجى وأحايين ينشد السلوانا

إلى شعره الإسلامى العالى ، كقصيدته فى تحية المحرم فى القرن الهجرى الجديد ، وهى أشبه بملحمة ، ومطلعها :

مرحى دعاك الهوى هـذى منائره
هشت إليك وقد شعت منائره

— ٤ —

لقد كان شوقى وعزيز أباظة وناجى وعلى محمود طه أحب الشعراء إلى قلبه ، وأكثرهم تأثيرا فى شعره وشاعريته ، هذه الشاعرية الحلوة الساحرة المثلة لوجدان طاهر ، وقلب مفعم بالحب والحنين ، بالأمل والألم ، بالسعادة والحزن ، بالبهجة والأسى ، حتى ليقول :

أنا راض بالهم والآلام أملى خالد خلود غرامى
من ترى يحمل الصبابة عنى
غير قلب قد بات بعض حطامى

وكان جميل والبحترى والشريف الرضى من الشعراء القدامى أثيرين لديه ، يصفيهم مودته ، ويصطفيهم بحبه ، ويؤثرهم بإعجابه ، قرأ لهم ، وتأثر بهم فى شعره ذى اللحن البديع ، والموسيقى الهادئة ، والفن الجميل ، كما كان يصطفى بحبه أستاذه عبد الله محمد البنا الشاعر .

مبارك وما أعزه من اسم ، فقدناه مبكرا ، فقدنا هذا العلم الشامخ ، الذى أحيا بكلاسيكيته الجديدة الشعر السودانى من الاغتراب والضياع .

واليوم ، ومع الذكرى نشعر شعورا قويا بأن مبارك المغربى معنا لم يفارقنا ولم نفارقه ، ولن يفارقنا أبدا . . إنه خالد على الايام

فى نماذجه الفنية الرقيقة ، وفى صورة الشعرية الجميلة الأنيقة ، وفى مضامينه الإنسانية النبيلة .

عاشق النيل ، وابن الوادي ، وأخو الضفاف وشاعر الهوى والخيال ، لن نبكيه ولن نرثيه ، فهو حاضر معنا ، وهو مع رفاقه الخالدين ، مع محمد المهدى المجذوب ، ومع التيجانى ، ومع العباسى ، ومع كل أحبابه ، ينعم بالمجد وبالخلود .

* * *

الحركة الأدبية فى ليبيا

— ١ —

فوق أرض ليبيا المعطاء ، هـذه الأرض التى قامت فوقها فى القـديم مدرسة مشهورة من مدارس الفلسفة والثقافة فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، هى قورينا — أو مدينة شحات — التى شهدت مواكب العلم والعلماء والطلاب فى زهو واعتزاز ... وذلك منذ خمسمائة وألفى عام ...

ثم قامت فوق أرض ليبيا مراكز كبيرة للثقافة الإسلامية فى درنة وبنى غازى وطرابلس ، وفى كل مكان أمه المسلمون الأولون المجاهدون فى سبيل الله .

ولقد كانت كل العوامل تعمل عملها فى ازدهار العلم والثقافة والأدب فى هذه الديار من قدم ، ومن بينها رعاية الملوك والأمراء والولاة فى الاسلام للعلم وللعلماء ، وبخاصة على عهـد الأغالبة والفاطميين والصنهاجيين والحفصيين .

وللأسرة « القره مانلليه » (١٧١١ — ١٨٣٥) فضل ما بعـده من فضل فى تأسيس المدارس والمعاهد ، وتشجيع العلماء ، ورعاية الثقافة وكانت البحرية الليبية فى أيامهم تجوب شواطىء البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسى ، تضيف مجـدا إلى مجـد ، وتـكسب الليبيين مكانة ونفوذا فى كل مكان . وكان لنشاطها آنذاك أثره الكبير فى زيادة الثراء والرفاهية للشعب، وفى تحسين الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، وقد تغنى الشعر الليبى ببطولات البحرية الليبية فى عهـد القره مانلليين ، كما تغنوا بأمجاد قادة الأسطول وانتصاراتهم على أساطيل الدول البحرية الأوربية ، وبحمايتهم الوطن من

الغزو الصليبي ، ووجد جيل من العلماء والأدباء في هذه الربوع أثرى بهم العلم والأدب ، ومن بينهم : أحمد اليربوعي (١٠٧١ هـ) ، وأحمد المكي (١١٠١ هـ) ، وأحمد بن عبد الحسن (١١٤٧) ، وابن غلبون المؤرخ (١١٧٧ هـ) ، ومصطفى الكاتب (١٢١٣ هـ) .

على أن الأدب الليبي الحديث لم يبدأ قيامه إلا منذ قيام حركة الكفاح الوطني ضد الاستعمار الايطالي منذ عام ١٩١١ ، وقد تركت الزوايا والمعاهد الدينية أثرا ملموساً في الوطن الليبي . وبتأثيرها ازدهر الأدب والشعر ، ومن بينها : الزاويا الدينية ببرقة ، وزاوية أحمد زروق بمصراته ، وزاوية الدوكالي بمسلاته والمعهد الأسمر بزليتين ، وكلية أحمد باشا القرمانلي ، وكلية عثمان باشا بمدينة طرابلس .

وأنشئت الجامعة الاسلامية في مدينة البيضاء ، وقامت الجامعة الليبية في مدينة بني غازي وطرابلس ، وقامت المدارس والمعاهد ، وشملت البلاد نهضة أدبية جديدة .

— ٢ —

وقد كانت مقاومة ليبيا للاستعمار الايطالي حركة وطنية كبيرة تردد صداها في كل مكان ، وذاع نشاطها في كل ركن من أركان الوطن الليبي . وعم أثرها شتى جوانب الحياة في ليبيا العربية المسلمة ، وبها ابتدأ الأدب الليبي الحديث ، واستمر هذا النضال أكثر من عشرين عاما (١٩١١ — ١٩٣٣) حتى أمكن لايطاليا الفاشستية بكل وسائلها البربرية القضاء على المقاومة المسلحة ، ولكن المقاومة السلبية ظهرت في شتى أنحاء الوطن الليبي الأبي ، واستمرت سبع سنوات (١٩٣٢ — ١٩٣٩) ، وقامت الحرب العالمية الثانية ، ونصب كل ليبي من نفسه جنديا يدافع عن مقدسات بلاده ويحارب

إيطاليا وجيوش الاحتلال بكل ما يستطيع ، وانتهت الحرب وبدأ جهاد الليبيين يتضاعف من أجل الاستقلال والوحدة . وفى ١٩٤٩ أعلن الشعب الليبى استقلال برقة ، وبعد ذلك وفى الرابع والعشرين من ديسمبر ١٩٥١ أعلن الادريسى استقلال بلاده بوحداتها الثلاث طرابلس وبرقة وفزان ، وبدأ منذ ذلك الحين عصر جديد فى التاريخ الحديث فى الوطن الليبى ، وبداية عصر ازدهار الأدب الليبى الحديث فى تلك البلاد .

وعلى ذلك يمكننا أن نقسم هذه الفترة الطويلة التى تمتد من عام ١٩١١ حتى اليوم إلى فترات : —

١ — الفترة الأولى : هى فترة نضال الأمة الليبية وجهادها المقدس ضد الغزاة الإيطاليين وتستمر هذه الفترة من بدء الغزو الإيطالى ١٣٢٩ هـ : ١٩١١ م حتى طرد الإيطاليين من الأراضى الليبية فى يناير ١٩٤٣ ، ثم يبدأ نضال الليبيين الأحرار من أجل الاستقلال ويستمر هذا الكفاح حتى سبتمبر ١٩٤٩ حيث أعلن استقلال برقة ، ولم يمض عامان اثنان حتى أعلن استقلال ليبيا بوحداتهم الثلاث وذلك فى ٢٤ من ديسمبر ١٩٥١ ، وبذلك التاريخ تنتهى الفترة الأولى .

٢ — والفترة الثانية : من عام ١٩٥١ — حتى قيام ثورة الفاتح من سبتمبر عام ١٩٦٩ .

٣ — والفترة الثالثة : من قيام ثورة الفاتح من سبتمبر حتى اليوم ونحن لا نعد الأدب فى ليبيا فيما قبل عام ١٩١١ داخلا فى نطاق الأدب الليبى الحديث — لأنه كان لا يزال متأثرا بكل المؤثرات التى تأثر بها الأدب فى عصر العثمانيين وكان حكم العثمانيين لا يزال موجودا له الصفة

الشرعية فى البلاد ، ولم تكن العقول قد فرغت بعد إلى الإنتاج الأدبى متأثرة بالعوامل الجديدة فى ظلال المقاومة الوطنية الباسلة .

فظهور الأدب الليبي الحديث على وجه الحقيقة ، وقيامه الفعلى ، إنما كان مع قيام حركة الكفاح المقدس ضد الغزاة الإيطاليين عام ١٣٣٩هـ — ١٩١١ م ، فقد بعث هذا الكفاح الحماس فى صدور الشعراء العرب فى كل مكان فنظموا القصائد الطوال فى الحرب الطرابلسية ، وتوحيد بطولة الليبيين العرب الأحرار ، واستماتتهم فى الدفاع عن وطنهم ، ومن بين هؤلاء الشعراء الرصافى وشوقى وحافظ ومحرم وسواهم ، كما بعث كذلك الحماس فى صدور الشعراء الليبيين فأخذوا يترنمون بالشعر يمجدون فيه حريتهم ويدافعون به عن وطنهم ويوجهون به مشاعر العرب الكريمة فى كل مكان نحو ليبيا وحقها فى الحرية والشرف والأباء والكرامة وحقها على العرب فى مساندتهم لقضيتها العادلة الشريفة .

وعلى ذلك فإن الأدب الليبى الحديث لم يبدأ من عام ١٨٤٢م إلا جذوره الأولى النامية ، أما بدؤه الحقيقى فكان عام ١٩١١ م ،

ولقد تجمعت منذ أوائل القرن العشرين شتى المقومات السياسية والاجتماعية والعقلية والأدبية ، فساندت الأدب الليبى ، ودعمت أصوله ، وقادته نحو القوة والازدهار ، وبدأ بعد قليل التاريخ الحقيقى لمولد الأدب الليبى الحديث ، هذا الأدب الذى يعبر عن الشعب ، يترنم بآماله ، ويتشرفيه صدى آلامه ويغنى للحرية ويدافع عنها ، ويشدو ببطولة الأبطال على أرض ليبيا العربية الحرة ، هذا الأدب الذى تظهر فيه كل الخصائص والمميزات التى لا بد من توافرها فى أدب — ينسب إلى ليبيا وينتهى إليها .

وفى صدر هذه المقومات ما يلى :

١ — البواعث القومية ، وهى التى بعثت الشعب الليبى كله على نضال المستعمرين والترنم بمجد ليبيا وحريتها ، وعروبتها وإسلامها ، والدفاع عن شرفها وسيادتها وحقها فى الحياة والكرامة والسؤدد والفخار ، ولقد عاشت ليبيا طول عصور التاريخ على الإسلام والعروبة ، وارتبطت بهما ارتباطا روحيا وثيقا مما نمى من شخصيتها وكيانها .

٢ — البواعث الاجتماعية : وتتمثل فى المجتمع الليبى العربى المتشابه النزعات المتقارب الأصول والعناصر ، المتحد دينا ولغة ومشاعر وآمالا وآلاما ، ولقد بلغ الوعى الاجتماعى فى ليبيا مداه من الشعور واليقظة والإدراك ، وإحساس الفرد بأنه مدفوع إلى قوة الترابط الجماعية ، يضم قوته الفردية إليها ، ويعمل من أجل المساهمة فى قوتها ، وهـــذا الوعى الاجتماعى يساند الوعى الوطنى ويذكيه ويعمل على دعم كيان الأدب الحديث فى ليبيا العربية وتنسيقه ، عمله على يقظة الأمة سياسيا واجتماعيا ، ولقد دأب الشعب الليبى على العمل من أجل تعزيز كيانه الاجتماعى ، يحفزه إلى ذلك الروح الدينية الإسلامية المتغلغلة فى أعماق الشعب ، وتدفعه الحركات التى قامت فى ليبيا آنذاك إلى جمع كلمته ، ونبذ الخصومات القبلية والأهواء الشخصية ، وإنماء روح التعاون والمحبة بين صفوفه وطبقاته وقبائله وأفراده ، ولقد نافست المرأة والشباب الرجل فى هذه المجالات ، وحمل الجميع عبء النضال الوطنى والدفاع عن حرية البلاد مما دعم الأدب الليبى الحديث وعزز أصوله : وهذه هى « مبروكة المقصية » التى حضرت معارك زنزور وكانت تحض المجاهدين وتحثهم على الاستبسال فى الدفاع ، وقد أعجب نشأت باشا بشجاعتها فأعطاها سيفا ، فكانت تنفلت وتذهب به إلى

المعركة ، وسماها مراسل جريدة (بارى جرنال) جان دارك الثانية ، وأثنت عليها الأديبة التركية فاطمة علوى بنت جودت باشا في مقال نشرته فى جريدة صباح التركية عام ١٩١٢ ، وهذه فتاة طرابلسية مجهولة تضرب المثل فى البطولة لبنات جنسها فى مقاومة الغزاة الإيطاليين والدفاع عن شرف البلاد ، ومواقف الأطفال والشباب والنساء والرجال فى حركة الجهاد المقدس كانت من أروع ما يتصوره العقل وفى ذروة ما يحلم به إنسان .

٣ — البواعث العقلية : فإن الفكر الليبى بدأ من أوائل القرن العشرين يتصل بالعروبة والدين والدعوة السنوسية اتصالا وثيقا ، على الرغم من وسائل الغرب ودعاياته ومدارسه وثقافاته ومن كل ما يعمل به لغرض واحد هو صرف الفكر العربى عن ماضيه وتراثه ومقوماته الأصلية من الدين واللغة وغيرهما . ولعدم اختلاط الشعب الليبى بغيره من العناصر الأخرى اختلاطا شديدا ، أثر واضح فى ذلك ، وقد قامت المدارس الإسلامية فى ليبيا بتعزيز روح الثقافة والدين والتفكير فى نفوس الشباب الليبى ، ولها فى هذا المجال رسالتها الكبيرة الضخمة الممتدة ، ولقد تطور الفكر الليبى بمسايرة الحياة المتحضرة ، وباتصاله بشتى الثقافات ، وبانتشار التعليم فى بلاده ، وبإنشاء الجامعات فيها ، وبقيام الإذاعة والصحافة والأندية الأدبية وغيرها .

٤ — قيام الجامعات الليبية فى بنغازى وطرابلس ، وتقوم فيها عدة كليات كالآداب واللغة والحقوق والزراعة والطب والهندسة والتجارة فتؤدى رسالة كبيرة فى تثقيف الشباب الليبى وإعدادهم لحمل الأمانة والمسئولية الملقاة على عاتقهم .

٥ — انتشار التعليم فى ليبيا : نهض التعليم فى ليبيا نهضة كبيرة ، وكان فى البلاد قبل الغزو الايطالى المعهد الأسمرى فى زليتن والمدرسة الاسلامية العليا (معهد أحمد باشا) والمدرسة الرشيدية فى طرابلس وكثير من المدارس الابتدائية والثانوية والصناعية ، وقد أراد الاستعمار الايطالى أن يحارب التعليم فى ليبيا حربا شعواء ، فأنشأ بعض المدارس الابتدائية ولغة التدريس فيها هى اللغة الايطالية ، ولم يتجاوز عدد التلاميذ الليبيين فيها عام ١٩٣٩ عشرة آلاف بينما بلغ عـدد طلبة الجالية الايطالية أكثر من ستة عشر ألفا ، وكانت مواد الدراسة فى هذه المدارس ترمى إلى تأكيد الايمان بالامبراطورية الرومانيـة وأن ليبيـا جزء منها ، واهتمت إيطاليا بعزل ليبيا عن العالم العربى والاسلامى ، فأنشأت مدرسة دينيـة إسلامية فى طرابلس لتمنع سفر الطلاب إلى مصر وتونس .

وفى عهد الاستقلال ثم فى عهد الثورة بدأت العناية بالتعليم العام وأنشئت المدارس والمعاهد الجديدة ، وشجعت حركة البعوث العلمية ، ولقى الأساتذة والطلاب ضروبا من التشجيع .

٦ — المطابع وأثرها : كان مطلع القرن الخامس عشر الميلادى بدء تطور فى العلم والحضارة ، إذ وصل العالم فيـه إلى اختراع الطباعة ، بعد تجارب ومحاولات عدة ، سبقت الوصول إلى هذه الغاية . . فقلبت الطباعة وجه الأرض ودفعت الحضارة دفعا عنيفا .

وقـد بدأت الطباعة فى طرابلس منـذ أوائل القرن العشرين ، وقامت فيها عـدة مطابع عربية حاربها الاستعمار الايطالى كما حارب اللغة العربية وبعد الاستقلال تعددت المطابع فى طرابلس وبنغازى ، ومنها للطبعة الليبية فى طرابلس(١٩٥٦) ، ومطابع كثيرة متعددة أخرى . .

٧ — انتشار الصحافة ، عرفت الصحافة عنـد الصينيين القدماء قبل الميلاد بألف عام ، وعند الرومان قبل الميلاد بسبعة قرون ، وظهرت الصحافة بمعناها الحديث فى أواسط القرن السادس عشر الميلادى ، وما زال أمرها يعظم حتى صارت من أولى عناصر الحضارة ، ولها الاثر البارز فى رقى الثقافة ، وتكوين الرأى العام . . والمجلات العلمية والأدبية من مقومات النهضة الأدبية فى كل أمة من أمم العالم . . .

وقد كان لقيام الصحافة فى ليبيا أثر فى نشر الثقافة ، ورقى النثر ، بزيادة المعرفة . والأساليب العربية التى تكتب بها الصحف و المجلات خير مدرسة لتلقين الأدباء وتخريجهم . وقد تركت ليبيا ما يربو على خمسين وثلاثين صحيفة منـذ أكثر من ستين عاما أى وآخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وإلى بداية عهد الاستقلال ، من بينها عدد قليل من المجلات . فقد صدرت بطرابلس ثمانى صحف ، من بينها مرحلة شهوية تسمى « ثمرة الفنون » وهى مجـلة علمية أدبية أنشأها داود أفندى عام ١٣١٩ هـ — ١٨٩٨ م .

ومنها جريدة الترقى التى أنشئت فى طرابلس عام ١٩٥٨ وشارك فى تحريرها عبد الرحمن البوصيرى وعثمان الفزانى وأعلام الأدب فى ليبيا ، ثم أصدر عبد الله عربى جريدة العدل عام ١٩١٩ فى طرابلس .

وفى عام ١٩٢٠ قامت جريدة اللواء الطرابلسية ولمواقفها فى الدفاع عن حرية الشعب أغلقت هـذه الجريدة عام ١٩٢٢ . وأسست بعد ذلك جريدة (الوقت) لصاحبها محسن ظافر المدنى ، ثم عطلت ، فزال آخر أثر للصحافة الوطنية فى ليبيا ، وأنشأ عمر المحيشى جريدة البريد ثم مجلة ليبيا المصورة ، وبعد الاستقلال قامت صحف ومجلات كثيرة تؤدى دورها فى

النهوض بالمجتمع الليبي وفي زيادة الوعي الفكري بين أبناء البلاد ، ومن بين الصحف التي صدرت مجلة المرأة ومجلة ليبيا ومجلة الإذاعة ، ثم صحيفة برقة وفزان وطرابلس والحقيقة والعمل ، ومن المجلات : مجلة الهدى الاسلامية التي تخرج عن الجامعة الاسلامية بالبيضا ومجلة الاذاعة ، والرواد ، ثم قامت جريدة الثورة وغيرها .

٨ — قيام الإذاعة : كان الايطاليون قد أنشأوا محطة إذاعية صغيرة في طرابلس . وقد نسفها جنودهم أثناء تقهقرهم أمام الجيش الثامن ، ونسفوا أعمدة الارسال القائمة ببلدة جنذور ، وفي عام ١٩٤٧ قامت إذاعة عربية في البلاد ، وبعد الاستقلال نهضت الاذاعة الليبية وقوى إرسالها وتعددت برامجها وزادت مخصصاتها ، وأدت رسالتها في تثقيف الشعب وتوجيهه توجيهات صالحا مفيدا .

٩ — الأنشطة الأدبية : وهي كثيرة في المدارس والجامعات ، ومنها النادي الثقافي الأدبي في طرابلس ، ونادي طلبة البعوث في البيضاء ، وقاعة المحاضرات في الجامعة الليبية ، والمركز الثقافي المصري في بنغازي ، ونظيره في طرابلس ، وغير ذلك من الأندية الأدبية الموفرة في البلاد .

١٠ — دور الكتب : من سنن الحضارة الاسلامية إنشاء خزائن الكتب في كل مدينة ومسجد ، وقد اشتهرت القاهرة والقيروان وطرابلس وقرطبة ودمشق ومكة والبصرة وبغداد وشتى العواصم الاسلامية في المشرق والمغرب بدور الكتب التي قامت بها . وحسبنا أن نعرف أن أبا تمام عوقه البرد في همذا فوجد في إحدى خزائن الكتب ما يسر له اختيار حماسته ، وكذلك أقام ياقوت الرومي (ت٦٢٦ هـ) في الشاهران ، وأفاد من اثنتي عشرة

عشرة خزانة بها . فى كل واحدة آلاف المجلدات ، ويقول فى مقدمة كتابه المشهور ، « معجم البلدان » : فكنت ارتع بها ، واقتبس من فوائدها ، وأنسانى حبها كل بلد ، والهانى عن الأهل والولد ، وأكثر فوائد هذا الكتاب وغيره ، مما جمعته ، فهو من تلك الخزائن . . . » .

١١ — إنشاء اللجنة العليا لرعاية الفنون والآداب : وتخصيصها جوائز سنوية لأحدث ما ينتجه الأدباء والشعراء الليبين ، فى البحوث والدراسات ، وفى الأعمال الأدبية من قصة ومسرحية وشعر ورواية طويلة ونثر ، إلى غير ذلك من مختلف التأثيرات الأدبية التى نهضت بالشعر والنثر والقصة والمقالة والمقامة والخطابة والرسائل وغيرها من فنون الأدب وألوانه . وظهر فى الوطن الليبى أعلام الأدباء والشعراء والكتاب ممن نهضوا بالأدب ورفعوا منزلته عالية بين آداب الشعوب والأمم العريقة التليدة مما سنتحدث عنه فى مجال آخر بإذن الله .

— ٣ —

وكانت مدرسة البعث فى مصر بزعامة الشاعر الكبير محمود سامى البارودى وتلاميذه ، تضفى على الشعر العربى الحديث الحياة واليقظة والروح والازدهار وأطلقته من قيوده ، وجددت فى موضوعاته ومعانيه وأخيلته وأفكاره .

وجاءت مدرسة الكلاسيكيين الجديدة الأولى بزعامة شوقى وحافظ . . . ثم المدرسة الكلاسيكية الجديدة الثانية بزيادة عزيز أباظة ، فأضافتا مجداً إلى مجد الشعر ، ونهضة إلى نهضته ، وتجديداً إلى ما شاده من تجديد وتطور .

وزاد نصيب الشعر الليبي من التجديد بقراءة الشعراء للنماذج الجديدة من شعر الزهاوى والرصافى والكاظمى وسواهم .

فنهض الشعر نهضة كبيرة ، وأصبح الشعراء يتمثلون وهم ينظمون القصائد الجياد ، جزالة البارودى وعذوبة شوقى ، وحماسة حافظ ، ويكتبون شعرهم بأسلوب فيه ما فيه من القوة والرصانة والجمال والطبع .

وكان لتعدد ثقافاتهم وكثرة رحلاتهم فى طلب العلم والأدب إلى الأزهر الشريف فى مصر ، وإلى الزيتونة فى تونس . وإلى مختلف البلدان والأمصار ، أثر كبير فى عقلياتهم وخصوبة أفكارهم ، ونضوج أخيلتهم ومعانيهم وتصوراتهم الشعرية .

ثم تأتى المدارس الشعرية الكثيرة ، وفى مقدمتها مدرسة الديوان ، العقاد وشكرى والمازنى ، ثم مدرسة أبولو ، ومدرسة شعراء المهجر فى بعض نماذجها وشعرائها . . فأثرت هذه المدارس تأثيراً ما بعده من تأثير ، فى الشعر الليبي الحديث .

وانتشار الثقافة والآداب الأوربية فى ليبيا جعل الشعراء يتذوقون الكثير من روائع الشعر الغربى ، ويحاكون فى بعض قصائدهم الخيال الأوربى الجامح ، كما فى شعر قنابة وفؤاد الكعبازى وأحمد الفقيه حسن ،

وكانت نماذج ابن شنوان (١٣٠٥ هـ — ١٨٢٥ م) يتمثل فيها التأثر بالأدب التركى ، من حيث كانت قصائد ابن زكرى (١٣٣٦هـ—١٩١٨)م يتمثل فيها التأثر بالبارودى وبالأدب الأندلسى واضحاً .

وكان ابن زكرى شاعر عصره ، وشيخ شعراء ليبيا ، ويقول عنه

أحمد رفيق المهدوى : إنه يشبه البهاء زهيرا فى شعره ، ويعد نقطة الإلتقاء بين الشعر القديم والنهضة الشعرية الحديثة. وكان الشاعر الليبى الكبير أحمد الشارف يقدم ابن زكرى على كل شعراء عصره .

وابن زكرى على أية حال من الأحوال هو رائد النهضة الشعرية الحديثة فى ليبيا ، وقد تأثر بمختلف التيارات الفكرية فى عصره ، ففيه من القدماء والعباسيين والأندلسيين ، ومن البارودى ، ملامح كثيرة .

ويخلف ابن زكرى أربعة شعراء كبار يمثلون اليقظة والحياة والتجديد فى الشعر الليبي الحديث .

أما أولهم : فهو الشيخ عبد الرحمن البوصيرى (١٣٥٤ هـ — ١٩٣٥م) وقد تأثر باستاذه الأزهرى محمد كامل مصطفى (١٣١٥ هـ) أستاذ العصر ، وجاهد بروحه وبيانه فى سبيل بلاده جهاداً دائباً ، وله نماذج وطنية ودينية بليغة .

وثانيهم : هو سليمان البارونى (١٩٤٠ م) الشاعر المناضل من أجل وطنه ، والذى قضى حياته رحلة دائبة وجهاداً وكفاحاً ما بعدهما من جهاد وكفاح . وقد عاصر جيلا كبيراً من العلماء والأدباء أو الشعراء فى بلاده ، ومن بينهم محمد كامل بن مصطفى (١٣١٥هـ) ومحمد بن منبع (١٣٣٠ ع) وابن شنوان (١٣٠١٥ هـ) وابن زكرى(١٩١٨ م) وأحمد الفقيه حسن (١٣٠٤هـ) والشارف (١٩٥٩) وسواهم .

وتأثر البارونى فى شعره تأثراً كبيراً ، وكان من تلامذة مدرسة جمال الدين الأفغانى والإمام محمد عبده .

وثالثهم : هو الشاعر الليبي الكبير أحمد الشارف (١١ أغسطس ١٩٥٩م)، وقد عاش جيلا كاملا فى النضال الوطنى ، وكان يلقب شاعر ليبيا وشيخ الشعراء ، وفى شعره مسحة من القديم وزخرف من الجديد ، ويعد من أضراب الكاظمى والرصافى ، وكان يرى أن شوقياً وحافظاً هما دعامتا الشعر فى عصرهما ، ولا يقدم أحداً من الشعراء المعاصرين فى ليبيا على رفيق المهدوى ، وقد اعترف له أمير الشعراء أحمد شوقى بالشاعرية حين مثل ليبيا فى حفل مبايعته أميراً للشعراء ، فقد عرضت على شوقى قصائد الشعراء فى تكريمه ، ولما عرضت عليه قصيدة الشارف قال : صاحب هذه القصيدة هو الشاعر حقاً ، ولا أنسى ما أضفاه : الشارف من تقدير وثناء سجلهما النقاد والدارسون، على رواد الشعر المصرى بعد شوقى كعزيز أباظة وغيره من الشعراء .

ورابع الشعراء : الكبار فى ليبيا هو الشاعر الكبير رفيق المهدوى (١٩٦١) شاعر ليبيا الوطنى ، وكان يلقب بشاعر الوطن الكبير ، وهو حقاً بمثابة الشاعر حافظ إبراهيم فى مصر ، وقد سار شعره فى كل مكان وحفظه الشباب العربى والليبى لقوة ما أودعه فيه من روحه الوطنى ، ولجمعه بين عمق المعنى وحلاوة اللفظ ، مع التناسب فى الرقة والجزالة ومع طبعه الشعرى الأصيل ، ومع خياله القوى ، وثقافته الواسعة .

ويعجبنى فى شعره تجاربه الشعورية العميقة ، وأصالته وعمق إحساسه وروحه الشفاف ، وبصيرته الثاقبة الملهمة ، وقدرته البيانية على تطويع اللغة لفنه . وكان يسير على عمود الشعر العربى ، مع التجديد فى الأفكار والموضوعات والأخيلة ، وكانت زعامة الشعر الليبى بينه وبين الشارف

كما كانت فى مصر بين شوقى وحافظ . وقد ذاق مرارة النفى من أجل وطنه كما ذاقها البارودى وغيره من الشعراء الأحرار العظام .

ولا ننسى قصيدة رفيق المشهورة « وطنى وحبيبى » التى نظمها فى المنفى عام ١٩٣٨ م ، ويقول منها : —

لم أكن يوم خروجى من بلادى بمصيب
عجباً لى ولتركى وطناً فيه حبيبى

وطناً فيه أناسى
وبه مسقط راسى
لست ما عشت بناسى
لذة العيش الخصيب
بين أهل وقريب
وصديق وحبيب

لم أكن يوم خروجى من بلادى بمصيب
عجباً لى ولتركى وطناً فيه حبيبى

إلى آخر هذه القصيدة الرائعة .

ولقد كان رفيق يدعو إلى الأخذ من المدرسة المهجرية باحتياط وتصرف ، ويحيل أدباء وطنه إلى أساليب المنفلوطى وطه حسين والزيات وأحمد أمين .

ولا ننسى شعراء مشهورين ، ناضلوا من أجل بلادهم ، ودعموا نهضة الشعر فى وطنهم ، من أمثال : الفقيه ، وقنابة ، والرفيعى وغيرهم .

وهناك شاعران مشهوران من شعراء المدرسة الحديثة ، حملا مع من حمل لواء التجديد فى الشعر الليبى الحديث :

أحدهما : الشاعر إبراهيم الأسطى عمر ، الذى توفى عام ١٩٥٠ م عن ثلاث وأربعين سنة ، وهو شبيه بالشابى والهمشرى والتيجانى بشير ، وفيه آثار من المدرسة الشعرية الجديدة ، وبخاصة المدرسة الرومانتيكية فى مصر والمدرسة المهجرية فى أرض العالم الجديد ، وقال بعض قادة ليبيا فيه : « أنا أعرف وطنية إبراهيم من يوم أن كان فى الجيش عند الكيلو رقم ٩ ، وقد فقدنا اليوم سيفاً من سيوف الوطن » .

ويمتاز شعره بجودة السبك ، وحلاوة الموسيقى ، وخصب الخيال وقوة العاطفة ، وغزارة الفكر ، وثراء اللغة ، وبالتزام الوحدة العضوية فى قصائده .

ومن شعره السياسى قصيدته « عودة الغائب » ، وكذلك قصيدته « نبأ » التي أعلن فيها فرحه العظيم بإعلان هيئة الأمم المتحدة لحق ليبيا فى تقرير المصير ، ومن قصائده المشهورة قصيدته « نشيد النصر » التى نظمها عقب انتهاء الحرب العالمية ومطلعها :

هتف الجندى من أعماقه : حيوا السلاح
يا رفاق الحرب هيا نحتسى أكواب راح
نخب نصر قد ربحناه بصبر وكفاح

والشاعر الثانى : هو الشاعر على صدقى عبد القادر صاحب التجارب الشعرية الجديدة ، والذى مثل ليبيا فى المؤتمرات والمهرجانات الأدبية والشعرية ، التى عقدت على مستوى جامعة الدول العربية ، وقصيدته « الفدائى » من أجمل نماذج شعره .

— ٤ —

وتتمثل نهضة الشعر الليبي الحديث فى ثراء الأفكار والمعانى والأخيلة ، وفى جدة الموضوعات ، والنظم من الأوزان القصيرة والمجزوءة وفى الاتصال بروح الشعب وصميم نضاله ، والحديث عن الطبيعة وأوصافها الخلابة ، كما تتمثل فى جوانب الشعر السياسى والوطنى والاجتماعى والتأملى ، والفكرى والقصصى ، وفى الشعر الإسلامى ، وفى شعر الثورة .

ولست أحب أن أطيل فى الحديث عن كل مظاهر الجديد والتجديد فى الشعر الليبي الحديث ، فيكفى من القلادة ما أحاط بالعنق ، ومن الكلام ما يصور المغزى الذى نقصده من هذه الكلمة .

وأقول كلمة موجزة وأخيرة ، لقد لقى الشعر والشعراء من الرعاية والتقدير فى ليبيا ، ما دفعهم إلى القول ، وما ألهمهم روائع القصيد ، ووجدوا من الشعب العظيم وحبه للأدب ، وتقديره للشعر وتشجيعه للشعراء وتذوقه لجيد الكلام وبليغه ، ما أوحى إليهم بكل جيد ورائع من القصيد .

وارتفاع مستوى الثقافة فى هذه البلاد أتاح الشعراء أن يتصلوا بالقديم والجديد وأن يبلغوا ما فى وسعهم أن يبلغوه من جودة السبك وعذوبة الأسلوب وحلاوة الموسيقى وخصب الخيال ، مما رفع من نماذجهم الشعرية فى أعين النقاد والدارسين جميعاً .

ولقد سجل الشعراء فى الوطن العربى وفى الوطن الليبى ، كل ما ناله أبطال ليبيا الميامين من نصر مبين ، وكانت بطولات الليبيين فى الحرب الطرابلسية أغنية الشعراء فى كل مكان .

وحين أعلن بكفاح الشعب المجيد فى الرابع والعشرين من ديسمبر ١٩٥١ استقلال ليبيا نهض الشعراء ينظمون القصائد الرائعة فى تحية هذا الحدث العظيم ، فى تاريخ ليبيا والليبيين .

كما هز وجدان الشعراء الليبيين أحداث عربية كثيرة أخرى ، من بينها قيام الجامعة العربية ، وثورة المغرب ، وتونس والجزائر ، وأحداث العرب فى كل قطر عربى ، ثم قيام ثورة الفاتح من سبتمبر عام ١٩٦٩

وكتب الشعراء فى أحلام الشباب العربى وتصوير أمانيه ؛ وما أجمل ما قاله الشاعر الكبير أحمد الشارف رحمه الله :

بتنا على ظمأ وفينا المنهل ... وحى النبوة والكتاب المنزل
يا أيها العرب الكرام ومن لهم ... شرف العروبة والمقام الأكمل
إن الروابط بينكم سيرى لها ... أثر يسجله الزمان المقبل
أثر مدى الأيام ينشر ذكره ... ويذيع فى كل البلاد وينقل
يقف الخطيب به ويهتف شاعر ... ويقوم فيه مصور وممثل

أجل ياشاعر ليبيا الخالد :

بتنا على ظمأ وفينا المنهل ... وحى النبوة والكتاب المنزل

الحركة الشعرية فى الخليج العربى

إذا علمنا أن منطقة الخليج العربى واسعة . تمتد من الكويت شمالا إلى عمان جنوباً ، وأن الحركة الشعرية فيها كبيرة وغزيرة وأن مصادر البحث عنها عسيرة ونادرة . وبخاصة أن شعر الشعراء فيها لا يزال أكثره مخطوطاً . ادركنا مدى الصعوبة فى كتابة مثل هذه الدراسة الجادة العميقة المتزنة .

والأحداث السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى هذه الرقعة من الأرض متعددة ورصد تأثيرها فى حركة الشعر فى هذه البقعة الكبيرة من البلاد يتطلب — دون ريب — جهداً ضخما . وهو جهد بذلته الدكتورة نوزية الرومى حقاً فى كتابها «الحركة الشعرية فى الخليج العربى» ، ويتجلى فى كل فصل من فصول الكتاب . بل فى كل صفحة من صفحاته .

والكتاب بعد المقدمة بابان :

فالباب الأول : فى تيار الشعر التقليدى وهو دراسة موضوعية وفنية معاً . ويقع فى تمهيد موجز وخمسة فصول .

والتمهيد يدور حول الحروب التى سادت منطقة الجزيرة . واتسعت لتشمل مناطق الخليج المجاورة . وما نشأ حول هذه الحروب من حركة شعرية واسعة .

والفصل الأول من هذا الباب يدور حول شعر المديح الدينى وظواهره واتجاهاته وتخيرت المؤلفة الدكتورة نورية من شعراء المنطقة كلها ثلاثة دواوين لثلاثة شعراء ، ارتبطت حياتهم وآمالهم أكثر ما ارتبطت بآل سعود ، وهم :

١ — أحمد بن مشرف (—١٢٨٥ ﻫ) ،

٢ — محمد بن عثيمين (— ١٣٦٣ ﻫ)

٣ — خالد الفرج (— ١٣٧٤ هـ: ١٩٥٤ م) .

فدرست صوراً من حياة كل شاعر منهم ، وملامح شاعريته وشعره ، وأثر البيئة فيه ، دراسات تحليل ونقد .

وأما الفصل الثانى فهو دراسة لشعر المديح السياسى . وقد تخيرت المؤلفة نموذجا أصيلا لشعراء هذا الفن ، وهو خالد الفرج .

أما الباب الثانى من أبواب الكتاب فهو عن تيار التطور فى الشعر الخليجى . ويقع فى ثلاثة فصول : الفصل الأول فى عودة الذاتية إلى الشعر الخليجى ، كما نرى فى شعر صقر الشبيب (— ١٩٦٣ م) ،

الفصل الثانى فى التيار الوجدانى والرومانسى ، ممثلا فى شعر أمثال : صقر الشيب . وإبراهيم العريض، وفهد العسكر ، وأحمد العدوانى وغازى القصيبى.

والفصل الثالث: فى الاتجاه الواقعى بين الفن والالتزام، ويتمثل فى شعر على السبتى . ومحمد الفايز وعلوى الهاشمى وغيرهم . تمثلا واضحا .

إن دراسة الظواهر الشعرية والحركة الشعرية الخليجية . هذه الدراسة المستوعبة الجادة المحيطة بشتى التيارات ومختلف ألوان التطور فى الشكل والمضمون والمذهب ، ليعد عملا ممتعا حقا .

الأدب الحديث فى نجد

— ١ —

« الأدب الحديث فى نجد »

كتاب بقلم الأديب الدكتور محمد بن سعد بن حسين . ولقد أكبرت جهد المؤلف وما بذله فيه من دأب ومثابرة . وحرص على أن يفى تاريخ بلاده الأدبى حقه من البحث والدراسة . والكتاب فى كثير من موضوعاته جديد بحوثه فى أغلبها غير مطروقة وهو يضيف إلى تاريخنا الأدبى الحديث إضافات غنية . يوضح صورة الأدب العربى فى بيئة من أكبر وأقدم بيئاته وهى بيئة نجد العربية الخالصة . قد يلتقى فى بعض الأحايين مع كتاب جليل وآخر سبقه بالصدور وهو كتاب «شعراء نجد المعاصرون » للأديب الشاعر عبد الله بن ادريس . ولكنه التقاء الفكر بالفكر . والرأى بالرأى . وهذا الالتقاء من شأنه أن يثرى الأدب وأن يوضح الصورة وأن يرسم الأبعاد وأن يجلو ماغمض أو خفى من جوانب حياتنا الأدبية .

— ٢ —

تناول المؤلف ابن سعد فى كتابه دراسة الشعر والشعراء فى نجد من منتصف القرن الثانى عشر إلى اليوم فى محاضرتين ضخمتين : أولاهما عن عن الشعر والشعراء فى نجد من منتصف القرن الثانى عشر الهجرى إلى منتصف هذا القرن الرابع عشر ، وثانيتهما عن الشعر فى نجد بعد منتصف القرن الرابع عشر ، وتتسم هذه الدراسة بالدقة والشمول والعمق وقد تحدث فى مقدمتها عن الامام محمد بن عبد الوهاب وأثره فى تاريخ نجد الحديث وعن أحفاده الذين بنوا دولة حضارية كبيرة صارت موضع عطف

المسلمين وتقديرهم . . وتحدث عن ظهور الشعر فى نجد فى العصر الحديث، وعن بعض أعلامه ومن بينهم : عبدالعزيز بن طوق . والشيخ / عبد اللطيف ابن عبد الرحمن الأزهرى وسليمان بن سحمان / وأفاض فى الحديث عن أغراض الشعر ، وعن شاعرين من أشهر الشعراء فى نجد وهما : ابن عثيمين وابن بليهد .

وعندما يدرس الشعر بعد منتصف القرن الرابع عشر الهجرى يذكر أهم المدارس الشعرية الحديثة :

مدرسة خليل مطران — مدرسة الديوان — مدرسة المهجر — وإن كنت أحب أن يضيف إليها مدرسة أخرى مشهورة هى مدرسة أبولو التى قامت بجهود الشاعر الدكتور المرحوم / أحمد زكى أبو شادى(١) ويذكر المؤلف أثر هذه المدارس فى الشعر الحديث فى نجد ، ويعرض أثرها فى الشعراء المعاصرين من أمثال النواردى وخالد الفرج وعبد الله بن خميس وحمد الحجى الذى أشبهه بشاعر مصرى أصيل هو المرحوم عبد الحميد الديب الذى يسمى شاعر البؤس والحرمان ولا يزال ديوانه مخطوطاً حتى اليوم وإن كان قد ظهر عنه دراسة فيها الكثير من شعره وهى بقلم الدكتور عبد الرحمن عثمان .

والدراسة التى كتبها المؤلف ابن سعد عن حمد الحجى وشعره وشاعريته دراسة خصبة مطولة وجديدة وهى المحاضرة الثالثة من المحاضرات التى اشتمل عليها الكتاب .

---

(١) راجع عن هذه المدرسة كتابى ، رائد الشعر الحديث ، وماكتبته عنها فى كتبى ، الأدب العربى الحديث ومدارسه ، وقصص من التاريخ ، ودراسات فى الأدب المقارن الجزء الأول ، وقصة الأدب فى ليبيا العربية .

وتجيء المحاضرة الرابعة عن الخطابة فى العصر الحديث فى نجد . وهى تضيف إضافات جديدة فى دراسة الأدب فى نجد . وقد عرض فيها للخطابة وأثر الإمام محمد بن عبد الوهاب فى تطورها . كما عرض للكتابة بجميع أقسامها من كتابة ديوانية ، وكتابة فنية تشمل الرسالة والمقالة والقصة ، ويذكر أن الرسائل الاخوانية قد كان للشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن الملقب بالأزهرى لكونه درس فى الأزهر أكبر الأثر فى نشأتها وتطورها وقد توفى هذا الشيخ الجليل عام ١٢٩٣ هـ — ١٨٧٥ م رحمه الله .

وفى آخر هذه المحاضرة يدرس حياة الأمير محمد بن سعود وأثره فى تاريخ نجد الحديث وفى قيام الإمام محمد بن عبد الوهاب بدعوته الكبرى .

— ٣ —

دراسات طويلة مرهقة فيها خصوبة وجدة وثراء وفيها أضواء كاشفة لمعالم الأدب الحديث فى نجد ، شعره ونثره لا بد للدارسين أن يستضيئوا بها لكشف الطريق ومعرفة الأبعاد وإيضاح الصور ، ومن ثم كان لابن سعد فضل وأى فضل بما قدم لقراء العربية وآدابها من زاد خصب ودراسات شيقة مفيدة . وأشهد المؤلف بجمال الأسلوب وحسن الذوق وسعة الادراك وعمق الفهم للقضايا التى درسها فى كتابه وهو منصف فى كثير من أحكامه مجيد فى كثير من جوانب دراسته متأن غاية التأنى فى ابداء الرأى حتى يقدم له الحجج ويمهد له الأسانيد . ولا أترك ملاحظة عابرة وقفت عندها طويلا هى ما ذكره المؤلف من موقف مصر من الوهابية والوهابيين وقد كرر ذلك فى مواضع ثلاثة من كتابه : فى صفحة ١٣ يشير إلى ما أصاب البلاد من المحن الجسيمة التى جرها الأتراك والمصريون للقضاء على الوهابيــة ، وفى صفحة ٩٩ من الأصل المخطوط يذكر ان (العالم العربى والإسلامى وقف من

الحركة الوهابية موقفا عدائيا وحمل لواء المناهضة والحرب أكبر البلاد الاسلامية والعربية آنذاك (تركيا ومصر) ، وفى الصفحة الخامسة يذكر استخدام تركيا لمحمد على حاكم مصر لضرب الوهابية والوهابيين .

والمؤلف هنا صادق لأنه يسير مع أحداث التاريخ الظاهرة ولكنه بفطنته وذكائه والمعيته يدرك تمام الادراك الحقائق الآتية :

١ — كانت تركيا دولة الخلافة الإسلامية وكانت مصر آنذاك تابعة لها تبعية كاملة وحاكم مصر ، محمد على ، هو حاكم تركى معين بقرار من الخليفة العثمانى — وهو منفذ لأوامر الخليفة ولسياسته .

٢ — فرض محمد على نفسه على مصر والمصريين فرضا بما أنشأه من جيش ضخم كونه من كل العناصر الغريبة عن المصريين .

٣ — ليس للمصريين — فى الموقف الذى وقفه محمد على وجيشه فى حربه للوهابية — خيار ولا رأى ولا مشيئة لأن الأمر كان بيد الخليفة العثمانى أولا ، وبيد حاكمه التركى (غير المصرى) ثانيا — ولو كان الشعب المصرى آنذاك مستقلا عن دولة الخلافة ولو كان هو المسئول عن حكامه وسياستهم لصح أن تنسب ماصنعه محمد على الحاكم التركى فى مصر إلى المصريين .

ولقد كتب الإمام محمد عبده فصلا طويلا عن سياسة محمد على فى مصر وأنها كانت سياسة تخالف كل رغبات وآمال وتطلعات المصريين وأنه كان حاكما تركيا لا ملكا مصريا وهذا الفصل منشور فى كتاب (تاريخ الإمام محمد عبده) الذى ألفه الشيخ / محمد رشيد رضا رحمه الله .

٤ — وليس هناك صلات من الحب والتقدير والأخوة الإسلامية الصادقة والمسالمة الفكرية والروحية أكثر مما بين المصريين والسعوديين .

— ٤ —

ولماذا بعد ذلك كله ـ الحديث عن الأدب الحديث فى نجد وحدها ؟ والمملكة العربية السعودية وحدة سياسية كاملة . ولم يعد هناك مجال للفصل بين جزء من أجزائها وجزء آخر . وقد عاشت كما تحب أن تعيش . وكما كانت تعيش فى الماضى أمة متحدة ، وشعباً متلاحما ، ودولة قوية متماسكة ولو أن مؤلفا معاصراً أراد اليوم أن يكتب كتابا فى الأدب المصرى فى اقليم الصعيد مثلا لما استطاع من جانب ولكان مثاراً للنقد الشديد من جانب آخر .

ولكن الأمر هنا مختلف تماما فالدراسات عن الأدب فى نجد وبخاصة فى العصر الحديث قليلة ونادرة وشبه معدومة ولا يمكن الوقوف على أدب المملكة كله إلا إذا اتضحت صورة الأدب فى نجد ، بعد أن اتضحت صورته فى الحجاز وأود أن لا يطول عصر الكتابة عن الأدب فى أقاليم المملكة .. نجد والحجاز ، وعسير والاحساء . . وأن تبرز صورة الأدب فى هذه الأقاليم كلها على أنها وحدة أدبية واحدة فى القريب من الزمن على أيدى الدارسين المتخصصين من أبناء الشعب العربى السعودى العريق فى المجد والتاريخ والفضل كل الفضل فى كل خطوة بناءة راجع إلى حماس العلماء والأدباء السعوديين إلى نشاطهم المحمود فى خدمة الثقافة الإسلامية العربية . وفى خدمة الأدب العربى فى مختلف عصوره وبيئاته .

شاعر من سوريا :

عدنان مردم .. شاعرا

— ١ —

عرفت عدنان مردم منذ سنين طوال ، من دواوينه الثلاثة التي صدرت له : نجوى (١٩٥٦ — دار المعارف بالقاهرة) — صفحة ذكرى (١٩٦١ — عن الدار نفسها) — عبير من دمشق (١٩٧٠ — بيروت — عويدات) .

وقرأت له مسرحياته الشعرية بعد ذلك : غادة أفاميا (— بيروت) — العباسة (١٩٦٨) — رابعة العدوية (١٩٧٢) — مصرع غرناطة (١٩٧٣) — فلسطين الثائرة (١٩٧٤) — فاجعة ميرلنغ (١٩٧٥) — ديوجين الحكيم (١٩٧٧) — وكلها من طبع بيروت .

وبين يدى ديوانه الأخير « نفحات شامية » الذى صدر فى بيروت عام ١٩٧٩ ، مضمخا بعبير الحب للشام ، ولمدينته العريقة دمشق ، ذات التاريخ الطويل الحافل .

وعدنان مردم بك من أسرة المردميين ذات الماضى العريق فى التاريخ والأدب واللغة والشعر وعلوم الدين . وبحسبنا والده خليل مردم بك رئيس المجمع العلمى العربى بدمشق من قبـــل ، وصاحب الآثار الأدبية الخالدة المشهورة .

وعدنان مردم من طبقة جيل الرواد فى الأدب السورى الحديث من أمثال : أبو ريشه ، وأمجد الطرابلسى ، وأنور العطار ، وزكى المحاسنى ، وسواهم ، شوقى النزعة ، ينتمى إلى مدرسة البعث الجديد ، ويشبه عزيز أباظة فى الشعر المصرى المعاصر ، واتجاهاته الفنية والأدبية : وموسيقاه الحلوة ، وخياله التصورى البديع ، شهود له على رفعة محله فى الشعر ، وتميزه فيه .

وسأ كتفى فى هذه الكلمة بالحديث عن ديوانه الأخير « نفحات شامية » الذى يمثل الكلاسيكية الجديدة خير تمثيل بكل خصائصها وسماتها الفنية والفكرية .

— ٢ —

و « نفحات شامية » يمثل شاعرنا الكبير عدنان مردم بك خير تمثيل ، فهو يحمل روحه الوطنية المتأججة ، ويحمل طابعه الشعرى البديع الجديد ، ويحمل موهبته التصورية الرفيعة الأصيلة ، ويحمل منهجه فى نظم القصيد وموسيقاه ، ويحمل قبل كل شىء فكره وثقافته وطابع فهمه للحياة .

وابواب الديوان الكبرى هى : الوصف والطبيعة — صور فنية — المعذبون فى الأرض — شىء من القلب — تأملات — صور من التاريخ .

١ — فالوصف والطبيعة تسع قصائد جميلة مؤثرة : دمشق القديمة — سوق الحميدية — برك الماء فى بيوت دمشق — قاسيون فى الثلج — وصف ليالى الحوم — النارجيلة — القرية فى الليل — وصف الجفاف والمحل .

ولنأخذ قصيدة من هذه القصائد لنتعرف إليها و إلى الشاعر ، ولتكن قصيدته « الليل فى دمشق القديمة » بأبياتها الثلاثين ، وبموسيقاه الحلوة التى من بحر الخفيف ، وبقافيتها الدالية المدودة ، وبخصائصها الفنية المتميزة .

القصيدة تدل على ملكة الشاعر الرفيعة فى التصوير والوصف والخيال ، ويكاد الشاعر يمثل لنا الليل فى رهبته وسطوته فى دمشق القديمة أروع تمثيل . ودمشق القديمة قد تختلف عن الجديدة فى هبوط الليل عليها ، فلا شك أن لقدمها وأطلالها وحاراتها وشوارعها الضيقة ، ولأهلها المكافحين أثرا

متميزاً ، ومن منا لا يقف مذهولا أمام روعة الليل فى حى الحسين بالقاهرة ، وهو الحى القاهرى الفاطمى القديم ، الذى يأخذ بالليل زينته وجماله وبهاءه كأنه عروس تتزين فى ليلة زفاف ، مما لا نجد شبيهه فى ليل القاهرة الجديدة ، من أحياء الزمالك أو جاردن سيتى ، أو مصر الجديدة أو مدينة المهندسين مثلا .

والشاعر يبدأ قصيدته بوصف الظلام ، الذى يلقيه الليل على الكون رهيناً ذا سورة وسلطان :

عصف الليل فى الفضاء البعيد   بغواش مـل البسيطة سود
وترامى فى شاسع كعباب   تترامى اطباقه عن وعيـد
وقتام الظلام فى كل أفق   يتراءى (كبيرق) معقود
نشر الرعب فى النفوس فجاشت   خوف رعب أضالع كجنود

وهو هنا يمثل رهبة الليل وسطوته ، وحلوله على الكون ، وكأنه البحر اللجى تثور أمواجه بوعيدها وتهديدها . وسواد الظلام يبدو فى كل افق ظاهرا مرفوعا ، وكأنه العلم المرفوع والراية المعقودة .

ثم يعود الشاعر إلى دمشق التي لا تهرم أبداً ، ولا تعرف فى الليل الرهيب غير الوداعة والسكون والمهادنة :

واستكانت دمشق تحت جناح   لظلام على الورى ممـدود
نعمت دونه دمشق بفيء   من ظلال ، واستسلمت لهجود
من رآها فى غمرة حين ألقت   بذراع على التراب ، وجيد
خالها الرود اطبقت بجفون   لمنام على سراب الوعود

إلى أن يقول :

وتراءت دمشق خلف نقاب من جـلال لغابر من خلود
جثمت كالقضاء ما ثم ريب وهى ترنو بمقلة لبعيـــد

فدمشق تستسلم للسكون فى الليل ، وتنام ملء جفونها ، كأنها الغادة الهيفاء ، تستسلم للنوم فى سراب الوعود .

وكنت أظن أن الليل فى دمشق القـديمة يبعث فيها الحياة والحركة والنشاط ، كما نرى فى حى الحسين ، أو حى السيدة مثـلا فى القاهرة ، ولـكن الأمر هنا بالعـكس كما يصوره الشاعر .

ويستمر الشاعر فى وصف الليل فى دمشق القديمة ، فيصفه بالطرافة ، ويصفها بالصمت المطبق ، حيث يقول :

تجد الليل فى دمشق طريفا يبهر العين بالطريف الجديد
ويطول الصمت العميق ويحلو بالأمانى من طارف وتليد
تجد الصمت ضاربا بجران دون ليل أطباقه من حديد

ثم يعود إلى دمشق وتاريخها التليد الحافل وكفاح ابنائها على طول العصور فيقول فيما يقول :

ودمشق التاريخ همس نشيد عبقرى على شفاه الخـــلود
ذكريات من عبد شمس أراها بظنونى وخاطرى ونشيدى
سطعت كاليقين فهى ضياء لنفوس حيرى وطرف جحود
وأراها تلذ فى كل سمع كلحون علوية العرديد
يا بلادى وما ترابك عندى برخيص ولم يـكن بزهيد
طاب عندى (كالبيت) طهرا وطـ ـابت ذكريات عزيزة من جدود

وهنا ننوه بأمرين : موسيقى الشاعر الرائعة ، وملـكته التصويرية

الرفيعة ، ثم بطبعه الشعرى الجميل وموهبته الأصيلة فى نظم القصيد ، ونجد هنا قاموس الشاعر اللغوى ، هذا القاموس الذى ينم عن إحاطة بالتراث ورجوع إليه ، واعتزاز به ، وعن ثقافته اللغوية الواسعة ، وأشير هنا إلى أن المقطع الأخير فى هذه القصيدة ، قد صدر به الشاعر ديوانه ، تحية لدمشق ولتاريخها الطويل العريق . وقصائد هذا الباب كله تعود إلى بحر الكامل ، والخفيف والرمل والمتقارب .

٢ — وباب الصور الفنية يشتمل على ست قصائد هى: راقصة آه يازين — المتحلقون حول النار — ثور السانية أو الساقية — وصف هرة — مدرب الحمام — شارب النارجيلة .

ولنخص بالحديث هنا قصيدته « شارب النارجيلة » التي تعود إلى بحر الوافر ، والتى يصف فيها سحب الدخان ،التى تخرج من فم شارب النارجيلة ، ويصف ما يعتريه من آلام وعذاب وادواء . ثم يصف طرحها فى ركن من الدار ، ويصف رقة زجاجها وصفاءه وعزتها عند صاحبها ، ويصف القوم الذين يجلسون إليها للشراب .

يقول فى مطلع هذه القصيدة :

أطال يعب من سؤر الندامى	لظى ويمجها سمـا زؤاما

ثم يقول :

اعذبا عب شاربها وشهـدا	أم الاسقام يـكرعها لماما
اطـال عذابه بيديه لمـا	عن الأصباح من عنت تعامى

ويقول فيها :

ثوت (نرجيلة) فى عقر ركن	وقرت كالاذى سكن العظاما

مطارفها الزجاج صفت وراقت   كما صفت المدامع من يتامى
تـكاد لرقـة ولفرط صقـل   تسيل كغرب سارية ترامى

يريد كماء سحابة ممطرة بهطل .

وما ينفـك شاربها حفيـا   كأن بهـا يرى بدراً تماما

إلى آخر هذا الوصف العميق الجميل ، ثم يسترسل إلى شاربيها فيقول في وصفهم :

ترى سمارهـا رقوا وراحوا   بحليتها على ضغن كراما
يطيلون الحديث بلا عتاب   ويخفون العـداوة والخصاما
رضوا بالدون من عمر ذليل   وعاشوا دهرهم أبدا نياما

وإذا عدنا إلى قصيدته « النارجيلة » في باب الوصف والطبيعة ، التي تعود إلى مجزوء بحر الـكامل ، والتي مطلعها :

تاج لها فوق الجبين   يذكو على كر السنين

ويقول فيها :

ضمت من البـلور ثوبا   سال من هيف ولين
شفت طرائق نسجـه   كأشعة الفلق المبـين
بلورهـا من رقـــة   همس الوساوس والظنون
والمـــاء في أحضانها   صخب ، وطورا مستكين
يتـلو أقاصيص الهوى   ويقصهـــا للسامعين
تلفـــاه يسهب تارة   وتراه يوجز من شجون
هو واللظى متجاوران   معـا على كر السنين
ضمتهما « نرجيـلة »   ضـم المتيـم بالـيمـــين
خرطومها عبق الشـذا   للطامعين الحالمـين

ثم يتحدث عن شاربها حديثا عذبا رقيقا رفافا . وقد استوقف نظرى في البيت :

أنفاسها حكت السلافة رقـــة للظامئين

واظن فيه خطأ مطبعيا ، ولعله :

أنفاسها حكت السلافة رقـــة للظامئين

تجد هذه القصيدة أكثر عذوبة ، واروع تصويرا ، وأحلى موسيقى ، وإن كانت مضامين القصيدتين واحدة .

وقصائد الباب الثانى تعود إلى بحر الكامل والمتقارب والوافر ، ويشبه الباب الثانى فى الاعتزاز بالقاموس اللغوى ، ويشترك معه فى الطبع الشعرى الأصيل ، وفى قوة ملكة الوصف والتصوير ، حتى لنكاد نحسبنا أمام ابن المعتز الشاعر الخليفة العباسى (٢٤٧ — ٢٩٦ هـ) من جديد .

٣ — والمعذبون فى الأرض عشر قصائد هى : بائع الصحف ـ الجزار ـ موزع البريد ـ الخباز ـ الفلاح ـ الحداد ـ الراعى ـ ضاوبة الودع ـ مسحر رمضان ـ بائع الصبار .

ولنأخذ قصيدة من هذه القصائد ، ولتكن « الفلاح » ، لنتعرف عليها وعلى الشاعر من خلالها ، ولنرى كيف نظر شاعرنا الكبير إلى هذا الرجل المسكين المعذب فى الأرض ، الذى عنى بوصفه ، عنايته بوصف أشباهه من المعذبين فى الأرض فى هذا الديوان ، وفى ديوانه الآخر ، عبير من دمشق .

يقول الشاعر الكبير فى مطلع هذه القصيدة التى نظمها من بحر الرمل :

صامت والحقل همس ونداء ... واجم والصنبج فتح وعطاء

ثم يصف املاقه وكدحه وسقمه وكفاحه ، كما يصف بكوره وشقاءه بمحراثه وبالأرض التي يزرعها فيقول فيما يقول :

هب يسعى ضاربا فى شاسع ... بيمين هى والصخر سواء
ايقظ المحـــراث من غفوته ... فانبرى المحراث يحدوه الرجاء
نخب الأرض ، ولم تأل يد ... تنخب الأرض له كيف يشاء
صدره فى صـــدرها لا يأتلى ... عالقا ما كر صبح أو مساء
كمحبين التقـى ثغـراهما ... بعـد أن برح بعـد وجفاء

ثم يصف الشاعر صبر الفلاح وهمته وعفته واسماله الباليات يقول :

تجـد الفلاح لم تغرب له ... همة ما أشرقت يوما ذكاء
لبس الصبر على المر ولم ... يعبه فى العيش مر أو بلاء
هو كالطير على السعى هوى ... كلما يخفق للفجـر لواء
ما على الفلاح لو رثت له ... شملة ،والعرض فى الطهر سماء

هذه القصيدة الرائعة التصويرية لاحد لجمالها ولا لبلاغتها ولالروعتها ، وفى آخرها يقول الشاعر :

يده العجفاء سالت فى الربى ... رحمة ، فالنفح منها والعطاء
سقت الأرض دما من جرحها ... بسخاء لا يداتيه سخـاء
ونضت أحلامها الغر التى ... فاح منها الطيب وانهل الضياء

وقصائد هذا الباب ترجع إلى بحر الخفيف والكامل والرمل وموسيقاها حلوة ، وتتميز هى والقوافى بالرنين الجهورى الصدى ، لا الهامس اللحن .

٤ — وباب « شيء من القلب » يحتوى على ست قصائد هي: الشباب

على الطريق — دون الرصيف — المغني المقفر — غصص الذكرى — الذكريات الأليمة .

ولنأخذ من هذا الباب قصيدته « الشباب » لنرى ما تحتوى عليه من قيم فنية أو فكرية ولتكون مادة لفهم الشاعر كذلك . . . فماذا فيها ؟ وما هو المعنى الخفى بين حواشيها ؟

يقول الشاعر فى مطلع قصيدته هذه التى نظمها من بحر الخفيف :

زيف حلم ، وعالم مسحور ... ملؤه التيه والرؤى والغرور
تجد الصعب دونه غير صعب ... وسواء لديه ليل ونور
ولياليه فتنة وعطور ... وصحاريه جدول مسجور

ثم يستمر فى وصف الشباب فيقول :

الشباب الفينان فيض نعيم ... فاح منه الشذى ورف العبير
يتراءى فى أعين الغير حلما ... سرمديا ، لا ينتهى ويغور

ثم يقول فى كفاح الشباب وجلاده للأيام وسعيه فى الأرض :

والشباب الفينان جذوة نور ... وانطلاق إلى العلا ومسير
جعل الأرض حلبة لصراع ... مستمر يصول فيها المغير
وأتى النجم غازيا حين ضاقت ... سبل الأرض دونه والبحور
وتحدى الأقدار طيشا وجهلا ... وهو ذر فى الكائنات صغير

ويتحدث عن قصر أيام الشباب ومعجزاته كذلك فيقول :

ما الشباب الفينان غير شهاب ... يتراءى لفترة ويغور
تتحلى به الحياة ويحلو ... شظف العيش والشقاء المرير
كيف أوفى الشباب حقا ومدحا ... وهو دنيا وعالم مسحور

والقصيدة تصويرية جميلة ، وفيها نغمة للحزن على أيام الشباب ، وفيها كذلك صور من كفاح الشباب ومعجزاته وعبقريته ، ولكنها تخلو من العنصر الذاتى المثير . والشاعر قلما يتحدث عن نفسه فى شعره إلا عرضاً ورمزاً .

وقصائد هذا الباب من الخفيف والوافر والكامل والرمل . ومن قصائده الجميلة الرائعة العميقة قصيدته (غصص الذكرى) يذكر فيها ماضى وصال مشرق بالحب والحنين واللوعة ، وهى قصيدة عالية الطبقة فى الشاعرية . ويقول فيها الشاعر :

قدحت ذكراك فى النفس لظاهـا
وأعادت لوعــــة طال شجاها

جئت مغناك ضحى أسأله عن ليال وأد البين صباها
نشرت ذكراك أياما لنا غالها ريب العوادى وطواها
ليس فى الذكرى التى نشتاقها ما يسلى النفس أو يشفى صداها

٥ — وفى التأملات بست قصائد كذلك : الشمس ـ السمكة السجينة فى قفصها البلورى ـ عالم القمر ـ وصف ليالى رمضان ـ أيتها الأرض ـ الفيع المتقطع ـ وتعود هذه القصائد إلى بحر الكامل والرمل . . . وهى قصائد رقافة دقيقة التصوير .

٦ — والباب الأخير فى الديوان هو « صور من التاريخ » ، ويحتوى على ثمان قصائد هى : وقعة عين جالوت ـ جلنار ـ وهى زوجة الملك قطز التى حاربت معه المغول فى عين جالوت وقتلت دونه لترد بنفسها عنه سهم أحد المغوليين فقضت شهيدة فى ساحة الحرب ـ الحرب فى الجولان ـ الدمار فى

القنيطرة ـ ابن زيدون ـ محنة بيروت ـ بيروت بعد عام من الفتنة ـ سقط تل الزعتر .

والقصائد من بحر الخفيف والوافر والكامل والبسيط الذى نظم منه قصيدة واحدة فى الديوان هى قصيدة الحرب فى الجولان .

وهذه القصائد يمتزج فيها وهج الفن بعبق الذكريات التاريخية الحافلة .

— ٣ —

وبعد ، فماذا أقول عن شاعر بردى الكبير ، عدنان مردم بك ، هذا النغم الشجى ، الذى يعيش مع الإلهام فى ذرى الشام وذكرياته العبقات ، والذى يحول كل شىء الحياة إلى نغم جميل ساحر ، والذى أمسك بعصا الشاعرية ، فتحولت فى يده إلى معجزة من معجزات الفن ، قل أن نجد مثلها عند الكثير من الشعراء . . إن ديوانه « نفحات شامية » وحى من الشاعرية .

* * *

عمر أبو ريشة شاعر سوريا الكبير

شاعر طبقت شهرته الآفاق ، وذاع شعره فى كل مكان ، وألقى فوق كل محفل ، وشهر بديباجته الجميلة ، وموسيقاه العذبة .

وهناك ثلاثة أقطار عربية جاذبت (عمر أبا ريشة) حبل الوصل ، وادعت بنوته ، وفاخرت بأنه درج فى منابتها · فسورية تباهى بولادته فى « منبج » مدينة البحترى وأبى فراس الحمدانى ، ولبنان يفاخر أن (عمر) رأى النور فى « القرعون » الغافية على سهل البقاع ، وفلسطين تدعى ولادته فى « عكا » على البحر الأبيض المتوسط .

ولكننا نعلم أن والده شافع أبو ريشة ، كان يشغل وظيفة قائم مقام فى « منبج » ، من أعمال سورية ، واشتهر بين الناس بالصلاح والتقوى والورع ، وفى يوم من أيام عام ١٩١٠ أطل عمر على الوجود هناك .

وخلال الحرب العالمية الأولى خف والد شاعرنا إلى الآستانة بطلب من ذوى الحل والعقد هناك وكلف أداء مهمة سرية هى افناء قوافل الأرمن التى توجه إليه ، وحرصاً على سلامته من غدر المسؤولين وأذاهم تظاهر بانجاز المهمة وعاد إلى « منبج » مقر عمله ، وبعد فترة بعث إليه حكام الآستانة بأفواج من الأرمن ليذيقهم العذاب ، لكن الحاكم الصالح قابل أولئك المناكيد بالحفاوة وزودهم بالغذاء والكساء ، وظل هذا ديدنه إلى أن أحس المسؤولون الأتراك بخدعته ، فاعتقلوه وساقوه إلى الآستانة بتهمة الخيانة العظمى ، وحكموا عليه بالإعدام إلى أن شفع له حمو والدى المرحوم الشيخ أسعد الشقيرى ، مفتى الجيش الرابع وصديق جمال السفاح · فيمم الشقيرى استانبول وبلذ

جهودا مشكورة لإنقاذ الحاكم المثالى شافع أبى ريشة ، فاستبدل حكم الإعدام بالنفى إلى مجاهل الأناضول !

وتلفت صهره الشيخ اليشرطى إلى كريمته وحفيده (عمر) فاصطحبهما من « منبج » إلى « عكا » وعاش شاعرنا الفتى فى كنف جده ، وتلقى دروسه هناك . وبعد أن نال الشهادة الثانوية انتسب إلى الجامعة الأمريكية فى بيروت ، وعرف بين أقرانه بتوقد الذهن والشغف بالرياضيات والكيمياء . وفى عام ١٩٣٠ نال شهادة « بكالوريوس علوم » بامتياز ، فيمم مدينة « منشستر » ليدرس صناعة النسيج . ولكن الشعر كان أغلب فى نفسه من دراسة صناعة النسيج(١) ، فقد نشأ فى بيت يقول أكثر أفراده الشعر ، كان أبوه شاعرا أشرب تلبه الشعر ، وكذلك كان جده ، وإذا كان للوراثة أثرها فى نشأة الإنسان ، ففى وسعنا أن نقول إن الملكة الشعرية قد انتقلت إليه بالوراثة ، وقد مست جذوة هذه الوراثة أكثر أفراده العائلة ، فأخوه شاعر ، وأخته شاعرة ، وأمه تتذوق الشعر وتحفظ عشرات القصائد لأكابر الشعراء ، فنشأ عمر وهو ابرز أفراد العائلة فى رفع راية الشعر ... وهذا ، دفعه أن يهجر دراسة صناعة النسيج ليعيش فى أجواء الأدب الانكليزى خلال إقامته فى منشستر ، حيث فتحت أمامه آفاق جديدة فى تفهم الأدب !

نظم « عمر » الشعر فى سن مبكرة ، وكان يعتمد على حسه الذاتى فى تصوير الكثير من مظاهر الحياة ، وعكف يدرس الأدب على أساتذته المدرسين ويتحدث عمر عن هذه الأدوار التى مرت من حياته بقوله :

هناك أدوار متباينة النزعات مرت على تركت فى حياتى الأدبية أثرها

---

(١) « الأدب العربى المعاصر فى سورية » ص - ١٦٥ - ١٦٦ : سامى الكيالى .

العميق ، أحببت فى أول نشأتى شعر البحترى وأبى تمام وشوقى وأضرابهم ؛ لأن أساتذتى ، سامحهم الله ، كانوا يغرقون فى امتداحهم ولا يشدو لسانى إلا بشعرهم ، فكم رقصت طربا عند سماعى :

ريم على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمى فى الأشهر الحرم

ولما أخذ المعلم يشرح ما بهذه القصيدة وأمثالها من جناس وطباق واستعارة إلى ما هنالك من « ألاعيب » بيانية ، خيل إلى أن القصيدة التى لا تضم شيئا من هذه « الألاعيب » ليس لها قيمة ، وتحت تأثير هذا الرأى أخذت أنظم ، وإنى أذكر مطلع قصيدة قلتها فى هذا النحو :

« سلاها » ما الذى عنى ثناها وقلبى فى التفانى ما « سلاها » !

ولم أكتف بهذا بل تعديته وأخذت أعارض « بائية » أبى تمام و « سينية » البحترى ، وأنى وإن استفدت شيئا من هؤلاء فإنما استفدت اللغة والتراكيب ، أما الفكرة الشعرية فقد كبا دونها خيالهم الكسيح !

ولقد سئمت هذا الشعر ، وهذه الزمرة من الشعراء ، فعدت أبحث فى كتب الأدب على أجد ما أروى به ظمئى فعثرت على شعر جيد مبعثر هنا وهناك ... كأبيات لأبى صخر الهذلى ، وأبيات لعبدة بن الطبيب وابن زريق البغدادى والوليد الأموى والأسدى صاحب القصيدة الرائية :

نأت دار ليلى وشطر المزار فعيناك ما تطعمان الكرى

ثم ساعدنى الحظ فسافرت إلى انكلترا لإتمام دراستى فشغفت بشعراء كثر كشكسبير وشلى وكيتس وبودلير وبو وموريس وملتون وتنسون وبراوننغ . وأحب هؤلاء إلى اثنان : « بو » و « بودلير » اللذان صرفت الساعات الطوال فى مطالعة آثارهم ، فهما أشبه بمتحف صور فى حانوت رسام ، كيفما حركته وجدت صورا جديدة ، تختلف كل صورة عن أختها

وفى كل منها رمز ينقلك من أفق إلى أفق فلا تشعر بملل ولا تحس بتعب !

وعاد «عمر» إلى الشهباء متسلحا بثقافة عالية وتولى إدارة «دار الكتب»

وبعد مدة دفع مسرحيته الشعرية (رايات ذى قار) إلى نفر من هواة التمثيل فى حلب ، فإذا بها شعر قومى طريف يفيض بالألفاظ الموسيقية والصور الرائعة وإذ بعميد الأدب العربى الدكتور طه حسين يقول عندما زار حلب لأول مرة : « جئت إلى حلب لأسمع (عمر) يلقى قصيدة ! ».

وفى عام ١٩٤٨ قدر (المجمع العلمى العربى) بدمشق موهبته الشعرية فانتخبه عضواً مراسلا ، وفى عام ١٩٤٩ عين شاعرنا ملحقاً ثقافيا لسورية فى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية مندوباً لمؤتمر اليونسكو ، وفى عام ١٩٥٠ عين سفيراً لسورية فى البرازيل فالأرجنتين والشيلى .

وبعد أن تمت الوحدة بين سورية ومصر عين سفيراً للجمهورية العربية المتحدة فى الهند فالنمسا ، وبعد أن أعلنت سورية انفصالها عن مصر عين « عمر » سفيراً للجمهورية العربية السورية فى واشنطن ، ثم فى باكستان وغيرها ، ولا يزال يعطى عطاءه الجم للأجيال العربية .

وقد صدر للشاعر دواوين عدة منها ديوانه ديوان عمر أبو ريشة ».

وفى فضاء الله الذى ذرعه عمر عرضا وطولا ، حمل قيثارة فنه ، وشدا على فنن الشعر فى البرازيل ... فى الأرجنتين .. فى الهند .. فى النمسا .. وكان أروع ماشاهده عمر فى الهند صرح (كاجوراد) ، وقد مثل الانسان فى شتى مجاليه ، بين تساميه وتدنيه . وقال الشاعر يصف هذا المكان الغريب بروعته بقصيدة منها :

من منكما وهب الأمان ... لأخيه ، انت أم الزمان
شقيت على أعتابك الغارات ... وانتحرت هـــوان
وبقيت وحدك فوق هذا ... الصخر وقفة عنفوان !

ياهيكلا نثر الفنون ورنح الدنيا افتتان
وثب الخيال إلى لقاك ورد وثبته العيان
وتكلمت احجارك الصماء مشرقة البيان !
وتلفتت منها الدمى بين افتراق واقتران !

* * *

عينى ، ماتقأملان وأى دنيا تجلوان
مسح الذهول عليكما يده . فما تتحولان
كم دمية ، ذل الزمان على انقاضها وهان
طليت فأعطى ، واشرأبت فانحنى ، وقست فلان !

وأوحت فينا مدينة السحر الحلال ، والعطر والجمال ، للبلبل العربى الغريد ، بشعر يفيض رقة ، ويعتزى عذوبة ، فطرز فى ليلة من لياليها الجميلة معلقته الرائعة (مارد الشعر) بمناسبة مهرجان الأخطل الصغير الذى أقيم فى بيروت عام ١٩٦١ . ومن (فينا) طار النسر إلى مهرجان صاحب الهوى والشباب والأمل المنشود ، ووقف على جبل من أمجاده ، إذ شنح من قلبه قطعا على مهاوى القلوب والآذان ، وتدفقت عواطفه وكأنها حمم من فوهة بركان ، ولما مال إلى جانب الغزل ، وكان رقيقاً مس شغاف الروح ، ولنسمعه يقول فى قصيدته العصماء هذه :

هل فى لقائك للخيال الزائر إغضا سال أم تلفت ذاكر
أشقته غربته ووثبة ظله عبر الأصيل على ثراك العاطر
وحكاية السمار عن أوتاره المتقطعات وشمله المتناثر
كفت الحفى به وكان ولاؤه وهواك قادمتى جناحى طائر !
كم فى نديك من شموع شبابه ماذاب بين مزاهر ومجامر !

لاتجرحن له بقيـــة زهوه   إن لم يهزك بالطريف النادر
عبث الليالى لم يدع فى حقـله   إلا ادكار خمائل وأزاهر

إلى أن يقول :

لبنان ما خبأت عنك نوازعى   أتراك فيما عاذلى أم عاذرى !
يغنيك عني أخوة ماغردوا   ألا ومل، رباك ذوب حناجر
شربوا جمالك فانتشوا وتأنقوا   فى بث نشوتهم تأنق قادر
ولربما صاغوا سناه أساورا   لمعاصم ، وخواتما لخناصر
جمعتهم شيم الوفاء لمارد   فى الشعر جواب الأعالى قاهر
ضفروا له من دوح أرزك غاره   أكرم بمضفور له وبضافر
هز الشذى أعطافهم فتساءلوا   من أى مخضل الكمائم ناضر
باليد البيضاء فى مر النـدى   من زنبق فى الغبر نضو هواجر
كم مطبق باب الخلود وراءه   وشجونه فى الدرب زاد مسافر
ما اعتاد هذا الشرق أن يعطى إلى   نبغائه الأحياء زند مناصر

شاعرة من العراق :

الشاعرة عاتكة الخزرجي

- ١ -

الدكتورة عاتكة الخزرجي :

من أعلام الشاعرات والأديبات العربيات المعاصرات . .

انها كاتبة وقصصية ومحدثة ومحاضرة وأستاذة من طراز رفيع .. فوق أنها شاعرة وناقدة كذلك

وسأتحدث عنها هنا شاعرة ، فهي - كما أراها - من أصفى الشاعرات العربيات لغة ، وأجملهن خيالا .

وما قرأت شعراً نسائياً معاصرا ، إلا وبدت أمام عيني صور كثيرة من تخاذله الفني ، ومن ضعفه في الفكرة أو الخيال ، إلا شعر عاتكة فهو نسج متكامل ، وموسيقى حلوة أخاذة ، وطراز رفيع من الأداء . والتجربة الشعرية الرفافة ، ومن التفوق اللغوي والأدبي البارز ، مما ينم عن شاعرية أصيلة موهوبة .. والشعر ليس من الفنون التي تحسنها النساء إحسانا كبيرا ، كما يقول عزيز أباظة في تقديمه لديوان الشاعرة « أنفاس السحر » ، وفي رأيي أن ذلك حكم صحيح .

- ٢ -

وعاتكة شاعرة محافظة مجددة معا :

فهي محافظة على عمودية القصيدة ، وعلى موسيقيتها وغنائيتها وتقاليدها الجليلة .

وهي مجددة في تجاربها ومضامينها وأفكارها وروحها الشاعرة ، وأخيلتها وصورها ومعانيها جميعا .

وعاتكة شاعرة وناقدة معا :

شاعرة بما تضمنته دواوينها من شعر فني خلاق مطبوع . يقول فيه عزيز أباظة في تقديمه لديوانها « أنفاس السحر » مخاطبا الشاعرة : « إن الشاعرية مركوزة في طبعك ، وإنك لشاعرة من فرعك لقدمك - «مقدمة أنفاس السحر » .

وهي ناقدة بما كتبته عن أصول الأدب في مختلف دراساتها ، وبما سجلته من آراء نقدية أصيلة في نقد شعر العباس بن الأحنف (- ١٩٢ هـ) شاعرها البغدادي القديم المفضل دائماً .

وعاتكة أديبة ودراسة للأدب : وهي أستاذة للأدب الحديث في كلية التربية بجامعة بغداد ، وبحوثها ومقالاتها حافلة بألوان عديدة من الدراسة الأدبية الناضجة العميقة ، ومسرحيتها « مجنون ليلى » المطبوعة تدل على ذوق فني رفيع في رسم الشخوص ، وتحليل النماذج ، والوصول بالمشكلة إلى الذروة وفي الحوار والصياغة والالتفات للدقائق .

وتستمد عاتكة الكاتبة موضوعها من الحقيقة التي يثبتها العلم ، ويؤيدها المنطق ، ويصقلها الطبع ، كما يقول الزيات (١٤ لألاء القمر - تقديم الزيات) .

وعلى الجملة فإن عاتكة مفخرة من مفاخرنا العربية العالية ، والتي نعتز بها اعتزازاً كبيرا . وتعد من أولى الأذواق الخالصة ، والثقافة الواسعة ، وتقول هي من قصيدتها « يا كتبي » (ص ٣٣ أنفاس السحر) ، وهي تعلن اندماجها مع كتبها ، التي هي قطعة من حياتها ، وجزء من روحها :

بوركت كم وفيت لى يا كتبي أفديك بالروح وأمى وأبى
أنت هواى الفرد ، أنت ملهمى أنت جنى الشعر وروض الأدب
باركتنى إذ أنا غـر طفلة أجهـل ما أجهل غير اللعب
وطرت بى من عالم لعـالم شتان بين ملعب ومكتب
باركتنى أن باسم ربك اقرئى وباسمـه عز وجل فاكتبى

وهى قصيدة محلقة جيدة تدل على شاعرية أصيلة .

— ٣ —

وعاتـكة الخزرجى : خزرجية الأصل ، عراقية الجنسية ، بغدادية المولد والنشأة ، تحمل دكتوراه الدولة فى الآداب من السوربون بدرجـة الامتياز منـذ عام ١٩٥٦ م ، وهى أستاذة الأدب الحديث بكلية التربيـة بجامعة بغداد ، وقد نظمت الشعر وهى فى الثانية عشرة من عمرها ، ونشرته وهى فى الرابعة عشرة ، وأذيع شعرها من إذاعات بغداد والقاهرة وسورية وباريس ولنـدن ، ونشرت قصائدها ومقالاتها فى الصحف والمجلات العراقية والمصرية والسعودية والسورية والكويتية واللبنانية والسودانية .

ولها : ديوان « أنفاس السحر » المطبوع فى القاهرة ، وديوان مخطوط

يطبع بعد بعنوان « أفواف الزهور » ، ومسرحية شعرية مطبوعة هى « مجنون ليلى » .

ولها دراسة عن حياة العباس بن الأحنف وشعره بالفرنسية ، وترجمت فصولا منها نشرتها فى مجلة الرسالة القاهرية ، ومجلة العربى الكويتية ، ومجلة الأستاذ العراقية ، وتترجم حاليا الفصول الباقية منها .

وحققت ونشرت ديوان العباس بن الأحنف ، وهو مطبوع بدار الكتب المصرية ، والدراسة والتحقيق نالت بهما درجة الدكتوراه .

ولها مقالات وقصص وبحوث أدبية لم تنشر بعد ، ودراسة مخطوطة عن « مى » ومسرحية شعرية عن علية بنت المهدى لم تطبع بعد .

— ٤ —

وفى شعرها تبدو لنا تيارات متعددة :

الأول : التيار الذاتى ، الذى صورت فيه ألوانا من حياتها التى أحاطتها بضباب كثيف ، ورموز كثيرة ، وفهم هذا التيار ضرورى ، لتوثيق الصلة النقدية والأدبية والفكرية بالشاعرة ، ولدراسة حياتها وأدبها على أساس مكين من الفهم والعمق .

والثانى : التيار العاطفى ، ويتجلى لنا فى قصائدها العاطفية العذرية ، التى تمتلىء بصوفية عميقة ، وروحية أصيلة . ويعلل ذلك الزيات فى تقديمه لديوانها « لألاء القمر » بأنها « نشأت فى الرصافة وفى الكرخ تعيش » ، والرصافة بيئة الأزل الصوفى . . ثم يقول الزيات : إن عاتكة عريقة فى

النزعة الصوفية ، نجدها كان يقرض الشعر الصوفى ، وأبوها كان يكثر من المحفوظ منه .

والثالث : التيار الإسلامى ، بما تضمنه من قصائد إسلامية وصوفية عميقة فى النزعة الروحية قوية الإيمان بالتراث والتاريخ الإسلامى والمفاخر الإسلامية .

والرابع : التيار العربى والقومى والوطنى والاجتماعى ، وهو تيار واضح قوى فى شعرها ، وفى كلام الزيات فى تقديمه لديوانها « لالاء القمر » ما يفسر سبب ذلك . . فعاتكة « صريحة النسب فى العروبة ، أبوها خزرجى ، وأمها عبيدية » . وقد أثر ذلك فى شاعريتها تأثيرا كبيرا ، فهى كما يقول الزيات فى تقديم « لألاء القمر » : « قوية الفطرة بحكم الطبع والوراثة والبيئة » .

واقرأ لها من ديوان « أفواف الزهر » الذى نشرت الكثير من قصائده فى الصحف والمجلات ، تقول من قصيدة بعنوان « قومى العلا والعز والشرف » :

إنى لمن قوم بهم شمم — قومى العلا والعز والشرف
سل عنهم الأيام غابرة — ولتشهد الآثار والتحف
قومى هم التاريخ إذ كتبوا — أمجاده فلتقرأ الصحف
فرع أنا من دوحة بسقت — وزكت ، فطاب العذق والسعف
قومى هم قومى هموا أبدا — سلف يجدد ذكره خلف
قولوا لمن جهلوا ، لمن عرفوا — نحن الألى عزوا ، الألى شرفوا

إنا ، وأن كاد العداة لنـا والدر قد يزرى به الصدف
نبقى ، وتبقى الدهر رايتنـا شمسا توهج ليس تنكسف

ولاصالة الشعور العربى فى نفسها نجدها تهدى ديوانها « أنفاس السحر » إلى كل ناطق بالضاد ، ومؤمن بلغة القرآن » . ومبارك لوحدة العرب . وتهدى مسرحيتها « مجنون ليلى » لـكل من يهوى حياة البيد أو يهوى العرب .

وقبل أن نتحدث عن هذه التيارات نقول إن المضمون الشعرى عنـد الشاعرة ممتد واسع طويل ، وهى — كما يقول الزيات فى تقديم « لألاء القمر » — « يتصرف فيه تصرف الفنان المتطور الحر » .

والشـكل عند عاتـكة يقف عند الخصائص التى تميز أدبا عن أدب ، وتنفصل جنسا عن جنس ، فهى تعدد فى الأوزان ، وتنوع فى القوافى ، فى حـدود الأوتار الستة عشر التى يتألف منها قيثارة الشعر العربى كما يقول الزيات (١٢ و١٣ لألاء القمر) .

وأسلوبها نسق مطرد من الفـكر والخيال والعاطفة ، يصقله طبع وذوق ، ويقومه درس واطلاع ، فلا تجد فيه ما تجد فى أكثر الشعر النسوى ، من قلق فى لفظ ، أو نبو فى قافية ، أو غموض فى معنى ، أو تجوز فى قياس ، أو شذوذ فى غرض (١٢ لألاء القمر ـ مقدمة الزيات) .

فشعر الشاعرة فى مجموعه طراز واحد من التأليف الفنى الإنسانى الصادق ، يتدافع فى أساليب حية شريفة ، لها ترسلها ولها موسيقاها الحلوة التي تلائم موضوعها أكمل ملاءمة ، وهو ذو وحدة تعبيرية يقترن فيها

الفكر بالأحاسيس ، وهو نابع من تجارب الشاعرة ، متصل اتصالا وثيقا بحياتها وكيانها ومزاجها وذاتها — كما يقول عزيز أباظة فى تقديمه لديوانها « أنفاس السحر » .

ويقول ر . بلاشير فى تقديمه لتحقيقها لديوان العباس بن الأحنف ، يخاطب الشاعرة :

لقد أثبت أنك تعيشين الفن والعلم معا ، قد اجتمعا فيك ، وأنك ككثير من شعراء العرب عرفت كيف تغذين شاعريتك بمعرفة عميقة للغتك ، ودراسة دقيقة لامكاناتها ،.

— ٥ —

وننتقل إلى الحديث عن التيار الذاتى فى شعر الشاعرة ، هذا التيار الذى ترجمت فيه عن ألوان من حياتها المغلفة بالضباب .

١ — فى قصيدتها « اليتيم الشاعر » - ٧٥ أنفاس السحر - تذكر الشاعرة أنها ولدت بمأتم ، ويبدو لنا من ذلك أنها ولدت وقد رحل أبوها من الدنيا ، إلى الدار الآخرة ، وترك أمها بدموعها وأحزانها . . .

تقول الشاعرة :

بلوت من الأيام كل عظيمة وحسبى أنى قد ولدت بمأتم

وكانت أغانى المهد لى رنة الأسى ووقع نحيب قد برى قلب أيم

ولقنت من مهدى سجل مآتمى وكم هالنى فصل الشقاء المجسم

وفصل الشقاء هنا هو عهد طفولتها الحزينة الباكية ، ثم تصور أمها المجروحة الفؤاد ، فتقول :

وأبصرت عن قرب خيالا مهدما يغالب دمعا بين جفن مورم

وخد له قد جفف الحزن ماءه وغاض به نبع الشبيبة والدم
عرفت به أمي فضاعف لي الأسى فأجهشت إجهاش الجريح المكلم
وكفكفت دمع اليتم عطفا على التي رعتني وضمتني بكف ومعصم
وراحت تقضي الليل في جنب مضجعي
فترعاه في جفن وقلب مهدم

إلى آخر هذه القصيدة الجميلة التي تمتزج فيها العاطفة بالتصوير ، والخيال بالحقيقة ، والدمع بالألم .

٢ – وللشاعرة قصيدة بعنوان «انت يا أماه – ٣٧ أنفاس السحر – أعدها من عيون الشعر ، وفيها تعبر عن عاطفتها نحو أمها الحنون ، بل عن عاطفة كل فتاة نحو أمها ، تقول الشاعرة في مطلعها :

أنت معنى الحب بل معنى الحياة أنت نور فاض من نور الإله

وهي قصيدة إنسانية جميلة .

٣ – وحين تذهب الشاعرة إلى باريس في طلب العلم ، وتبدأ حياتها فيها ، تكتب إلى أمها قصيدتها التي استوحتها من غربتها – بعد الرحيل ٢٧ أنفاس السحر – ، وتقول فيها :

هذي فتاتك تشتكي فقد الأحبة والديار
حيرى تقاذفها الدروب ، غريبة من غير جار
أواه لو تدرين ما تلقى وقد بعد المزار
أواه يا أماه هل لي أن أزور وأن أزار ؟
كيف السبيل وبيننا البعد الرحيبة والبحار ؟

وهي من أجمل قصائد الديوان : عاطفة وموسيقى .

٤ — وفى قصيدتها « أحييك من بعد » يبدو لنا أنها ترثى أمها ، فهى تقول فيها :

وخف بها ركب من الموت مسرع   إلى ظلمة لا نجم فيها ولا بدر
وباعد مابيني وبينك عالم   خفى عن الأحياء ظاهره ستر
إذا ماحدانى الشوق نحوك صدنى   وجوم ضريح فيه قد كمن الشعر

ومن هذا البيت نفهم أن أمها كانت شاعرة مثلها .

أحييك عن بعد عن الدار كلها   وقد حل فيها الحزن وارتحل البشر
فبعدك أمست جهمة مكفهرة   وفى الليلة الظلماء يفتقد البدر

٥ — وفى قصيدة « قبل الرحيل » — ٢٥ أنفاس السحر تتحدث الشاعرة عن عواطفها نحو مدينتها بغداد ومسرح ذكرياتها وفيها تقول :

ووقفت ألقى المنازل نظرة   وأزود العينين من مغناك
فيلوح لى مهدى وعش طفولتى   وعرائسى وملاعبى رؤياك
ويمر بى ركب الشباب وحوله   كتبى وأقلامى ووحى هواك
ومعاهد أشعلن لى سرج الهدى   وبها تلمست الخطا لهداك
لولاك يابغداد ماأخترت النوى   وتركت أمى والحمى لولاك

والقصيدة تحمل عاطفة قوية ، وأصداء جميلة لمسرح طفولتها وشبابها .

٦ — وتعيش فى باريس ، تشقى بالغربة ، وتنظم قصيدتها « أحبابى فى بغداد » — ٣٢ أنفاس السحر ، وتقول فيها :

أحباى فى بغداد لا كانت النوى   فيا ويلتا ماذا لقيت ويا ليا
ومن حبكم طفت شرقاً ومغربا   وأفنيت فيه زاهرا من شبابيا

٧ — وتسافر الشاعرة إلى القاهرة لطبع تحقيقها لديوان العباس بن الأحنف

ويهتاجها الحنين إلى بغداد فتنظم قصيدتها « أين منا اليوم بغداد ؟ » ـ ٣٠ أنفاس السحر .

٨ ـ وفى قصيدتها «ثورة نفس» ـ ٥٩ أنفاس السحر، تعلن عزلتها عن الناس ، ونفورها منهم ، وخيبة أملها فيهم ـ وهى تشبه قصيدة الشاعرة المصرية جليلة رضا « إلى الشعراء .. » التى كتبتها تعيب على الشعراء سوء أوهامهم ، وفساد طواياهم ، ونفورها منهم .. تقول الشاعرة عاتكة فى هذه القصيدة :

ويا خيبتي بالناس حين بلوتهم ... فلله درس ما أشد وما أقسى
توهمت فيهم كل خير وليتنى ... جهلت فلم أدرس حقائقهم درسا
فمن طيب أمسى الخبيث ، وطاهر ... بدا بعد طول السبر أخبثهم نفسا
فيا ويلتا ما للانام ومالنا ... لقد خبثوا نبتا وما كرموا غرسا
ويا خيبتى بالعيش حين وجدته ... خضما به تاه السفين فلا مرسى

٩ ـ وفى قصيدتها « أبناء آدم » ـ ١٤ أنفاس السحر ، تظهر تخوفها الشديد ، وحذرها الدائم منهم ، وتراهم ذئاباً فى ثياب أناسى :

أبناء آدم جلدها ... والجوف تملؤه ذئاب

وتقول منها كذلك :

يا للذئاب تراجعت ... مخذولة يا للذئاب ! !

وفى هذه القصيدة تتصورهم زاحفين عليها ، بأظفار وناب ، ولكنها تنتصر على زحفهم .

وتكرر فى قصيدتها « خطرات » ـ ١٣١ أنفاس السحر ـ وصفها لهم بالذئاب أيضاً ، فتقول :

وتنكروا فجلودهم ... بشر ، وجوفهمو ذئاب

١٠ — وفى قصيدتها « إلى أين يادنياى » — ١٠٦ أنفاس السحر ثورة نفسية على تعاسة ـ حظها من الأيام .

ألا ما أضل الدهر ، وماأضيع المنى   وما أخيب المسعى بجوف مضيق
أكاد من الأشجان أخفى عن الورى   وأشرق من فرط السقام بريقى

وهذا المعنى يتردد فى شعر المتنبى والمعرى كثيرا ، وفى صياغة الشاعرة له جمال ولطف .

فياليتنى شوك الورى لازهوره   وياليت أن الدهر كان صديقى

و « شوك الورى » هنا تعبير ضعيف غاية الضعف ، ولا يبين منه المعنى المقصود .

١١ ـ وهى فى قصيدتها ، هوى الوطن » ـ ٦٣ أنفاس السحر ـ ترتد أن تهجر وطنها إلى الغرب ، ولـكنه حب الوطن .

١٢ ـ وفى قصيدتها « وداع الدار » ـ ٨٥ أنفاس السحر تودع معهدها دار المعلمين العالية ببغداد ، يوم تخرجها منه ، وحصولها على اجازة التخصص فى الآداب :

ولقنت فيك العـلم ريان نادىا   وألهمت فيك الشعر منسكبا سكبا
وكنت بدنيا الشعر أترع أكؤسى   وكنت بدنيا العـلم ألتهم الـكتبا

وتصور فى القصيدة أن دخولها هذا المعهد كان على غير رغبة من أهلها. فتقول :

تحملت دار العـلم فيـك ملامة
من الأهل ، بل جورا ، وان شئت ، بل حربا

١٣ ـ وقصيدتها « إلى يثرب » ـ ٧٠ أنفاس السحر تذكر زيارتها لطيبة الحبيبة ، ووقوفها بأرض النبوة ، وتقول فيها :

وكانت بها آى الكتاب نوازلا باقرأ بدءا وافتهاء باكتب

وصياغة البيت ضعيفة ، وإن كان معناه جميلا ، وفى القصيدة تخاطب رسول الله ﷺ ، وتذكر له حال أمة الضاد ، ومادية أمم الغرب وتسابقها فى ابتكار وسائل الفناء والتدمير ، وأن لاملاذ إلا بنور من هدى محمد — عليه الصلاة والسلام — ليضىء سبيل العالمين ويعرب ، وهى قصيدة جميلة .

* * *

ونترك هنا شعرها فى العتاب ، وشعرها فى الطبيعة ، التى صورت فيه اندماج نفسها بها ، وهيامها بمشاهدها ، وفتونها بمرائيها وصورها — إلى الحديث عن التيار الثانى فى شعرها .

— ٥ —

والتيار الثانى فى شعر عائكة الخزرجى ، هو التيار العاطفى ، وهو من أجمل شعرها وأعذبه ، ويتسم بصوفية عميقة ، وفن عذرى أصيل ، مع تأثر بشخصية العباس بن الأحنف ، ونسيبه .

وهذه صور من غزلها ، ومن ديوانيها : لألاء القمر ، وأنفاس السحر ، ويكاد ديوانها « لألاء القمر » يكون قاصرا على شعر الحب ، وهو مطبوع فى ٨٠ صفحة من القطع الصغير فى مطابع الشعب بالقاهرة بتقديم الزيات :

١ — تقول الشاعرة من قصيدتها « أحبه » — ٣١ لألاء القمر :

أحبه لا أمارى أنه قدرى وسيدى وأنا احدى ولاياه

ولاياه : جمع ولية وهى المرأة فى اللغة الدارجة ، وتقصد الشاعرة بها معنى الرقيق .

ببابه مجلسى إن كان يأذن لى أولا فبالفكر يلقانى وألقاه

حديثه الصمت إلا أنه كلم ووكبفا الشوق باسم الحب مجراه

عيناه كم تهت فى أعماق غورها   وما اهتديت إلى أدنى خفاياه
لولاه ما كنت فى الدنيا سوى نغم   مضيع اللحن ، واسم ضل معناه

٢ - وقصائدها :

آمنت بالحب ٣٤ لألاء القمر
ياخالد الحسن ٣٩ لألاء القمر
عيناك ٤٧ لألاء القمر

متشابهة فى نزعتها الصوفية ، وفى القصيدة الأخيرة تقول :

أحب عينى لأنى بها   أراك يا آية خلق قدير

وحول المعنى تقول من قصيدتها « ياخالد الحسن » :

أقام طيفك عندى ليس يبرحنى   أو تبرح الروح منى فانى البدن

٣ — وفى قصيدتها « كتابه » ـ ٤٥ « لألاء القمر » تقول :

أنا له أطوع من بنانه   إن العبد تتبع الأسيادا

وهذا المعنى لا يستحسنه النقاد فى شعر الحب ، لأنهم يستحسنون أن تكون المرأة متبوعة لا تابعة ، ومطلوبة لا طالبة ، وفى البيت افراط فى الحب العذرى وإن كان الصوفيون من أمثال الشاعرة يعبرون هذا التعبير المغرق فى الغزل.

٤ ـ وفى قصيدتها « سلام » تقول :

ويشهد الله بأنى على   عهد الهوى أبقى ، وأنى أنا

٥ ـ واثر رابعة العدوية فى حبها الصوفى ظاهر ، تقول الشاعرة من قصيدتها « الله » ـ ١٩ لألاء القمر :

احبك للحب لا رغبة   ولا رهبة بئس ما يأفكون

وهى قصيدة رائعة حقاً .. وفيها تقول :

ويامخرج الحى من الميت   ومن قال للشىء كن كى يكون

ولو قالت الشاعرة فى الشطر الثانى : « ومن قال للشىء كن فيكون » لكان أروع وأجمل .

ويقول عزيز أباظة فى تقديمه لديوانها « أنفاس السحر » إن الشاعرة استشارته فى شعرها الغزلى : أتخرجه للناس أم تسقطه ، وأنه أشار عليها بضرورة نشره ، لأنه عمل فني جليل ، ولا شبهة فى صوفيته البيضاء وروحانيته العذراء — (ز — أنفاس السحر) .

٦ — وفى قصيدتها « كن ما تشاء » — ٦٥ « أنفاس السحر » تقول الشاعرة فى حب عذرى رابعى الهوى :

كن ما تشاء فإننى ... لك ماحييت ولا لغيرك
أحيـــا لعلى أن أراك ... وأجتلى لألاء فجـــرك
وأضمـــد الجرح الخفى ... إذا لجأت بظل صدرك

والشاعرة هنـا تعبر من أعماق نفسها عن الآلام الخفية التى تنطوى عليها جوانحها ، وطوايا صدرها .

٧ — وقصائدها الأخرى :

إنى أحبك سيدى ٧٧ أنفاس السحر
يوم الرحيل من ديوان أنفاس السحر
قالت السطور ٩٧ أنفاس السحر
وفاء ١١٤ أنفاس السحر

تتشابه فى هذه النزعة العذرية التى يتسم بها غزلها .

٨ — وفى قصيدتها سراب تخاطب إنسانا يبحث عن لذاته ويترك منهل الزوجية الصافى :

٩ — وقصيدتها « أحبك » — ١٢٠ أنفاس السحر تشبه فى نزعتها الصوفية قصيدتها « الله » ـ ١٩ لألاء القمر ، شبها كبيراً وما أجمل ماتقول فى قصيدة « أحبك » :

كأنى وحبـــك يغزو دمى تقى به رعشة من صـــلاة
وما أنت إلا رؤى عـــالم معانيه فيها الهـــدى والحياة

١٠ ـ وفى قصيدتها « خطرات » ـ ١٣١ « أنفاس السحر » تعاتب زوجا هجر زوجته العميا فى دنيا قل فيها الوفاء عتابا رفيعا جميلا .

* * *

وبعد ، فإن هـــذا التيار العاطفى والصوفى فى شعر الشاعرة يمثل ، كما يقول عزيز أباظة ، نسقا من الشعر لاشبهة فى روحانيته وصوفيته ، وهو تغاريد من حب الجمـال ، وترانيم من حب الحياة ، ونوع من القربان ترفعه النفس الإنسانية الشاعرة ، تحنثا ، وقنوتا لقاهر جلاله ، وتبتلا لباهر جماله ، وهو آنق وأصدق ما فى شاعرية الشاعرة (ز ـ أنفاس السحر) .

ثم يقول : إنه فى أغلبه عمل جليل يعتز به ، ويرفع من قيمة هذا العمل أنه نسوى الخلق ، نسوى الإبداع (ز ـ أنفاس السحر) .

وديوان أنفاس السحر مطبوع عام ١٩٦٣ م بتقديم عزيز أباظة فى ١٤٤ صفحة فى مؤسسة فن الطباعة بالقاهرة .

* * *

إن خصائص عاطفة الشاعرة وتجاربها الشعرية العميقة واضحة التصوير فى شعرها ، فضلا عن صور بيئتها ووطنها ، وشديدة الوضوح فى قصائدها ، وكما يقول فولتير فى كتابه « دراسة فى الشعر الملحمى » :

« إنك تحس عند ألمع الكتاب المحدثين ، طابع وطنهم فى محاكاتهم للقديم ، يستمدون من التربة التى غذتهم بالأذواق والألوان والصور المختلفة ، وإنك لتعرف الفرنسى من أسلوبه ، كما تعرفه بملامح وجهه ونطقه وخلاله » .

وهكذا نجد شعر شاعرتنا نفسها ووجدانها وعاطفتها وخلجات قلبها ، وإلهامها الذى هو قطعة من روحها ، فضلا عما فيه من ألوان التأثر العميق برابعة والعباس بن الأحنف وغيرهما .

* * *

وننوه هنا بمسرحيتها الشعرية الخالدة (مجنون ليلى) المطبوعة فى ثمانين صفحة بمؤسسة فن الطباعة بالقاهرة ، وهى مسرحية جميلة عالية ، وإن كانت تفتقر إلى بساطة الأسلوب وموسيقيته ودرامية الحوار وحركيته .

وفى هـــذه المسرحية روائع من شعر الحوار ، ترتفع فيها إلى ذروة الحدث .

ومن أروع هذه المواقف موقف ليلى وهو تعلن أمام والدها رفضها لقيس، لأنه شهر بها فى غزله العذرى ، وهو موقف درامى حركى ، انتصرت فيه ليلى لشرف أبيها والقبيلة ، وضحت بقلبها وعاطفتها ، وفيه تقول تخاطب قيسا وهى تنظر إليه ثم إلى أبيها :

سألت محالا سيدى لست بالتى تجور على الشيخ الحنون وتظلم
فسل قيس عن أشعاره تلق أنه ظلوم ولكن جاءكم يتظلم
كتمت هوى قيس واخشاه شعره وما خير قلب لا يصون ويكتم ؟

ومن هذه المواقف شعر قيس بعد نكبته فى ليلى :

أأمنع لقيـــاها ويعطى وصالهـا   ويحظى بها من ليس يدرى جمالها
تباعـــد ما بينى وبين فؤادها   وتخلق من سهل الأمور محالها
وتقسم إلا أن تعيش لغـــيرنا   ونقسم إلا أن نعيش سدى لهـا
هجرت المنى يأسا وهل لى من المنى   سوى أننى لا أستطيع وصالها ؟
وعشت بدنيا اليأس إذ خلت أنها   هى الشمس يغريك السنا أن تنالها

ومنها كذلك موقف زياد راوية قيس وأم قيس وأبيه وليلى ، وقـــد وقفوا تباعا على قبر قيس يرثونه ، وهو موقف مؤثر باك حزين .

ومن شعر المسرحية على لسان قيس :

هو الحب نور كم به العيش قد صفا   وكم بان لى قبل الهوى وهو معتم
وصرت إلى دنيا من السحر بعدها   غـــدا فى سماء الحب قلبى يحوم

وفى المسرحية تقول :

« لحا الله قلبا للخؤونة مخلصا » .

والـكلمة — لغويا — صحتها : « الخؤون » لا الخؤونة .

وكنت أريد الموازنة بين هـــذه المسرحية ومسرحية شوقى « مجنون ليلى » ، لولا أن ذلك يحتاج إلى بحث آخر .

— ٦ —

وننتقل بعـــد ذلك إلى التيار الإسلامى فى شعر الشاعرة الدكتورة عاتـكة .

وهذا التيار عميق فى شعرها ، لعمق حياتها فى بيئتها العربية ، ولاصالة مشاعرها الإسلامية ، والهاماتها الصوفية .

وكان من الممكن أن نعد شعرها الصوفى من هذا الباب ، لولا أنا قد أدرجناه فى شعرها العاطفى .

ومن قصائدها فى هذا الباب :

١ — قصيدتها « عيد العرب » — ٥٥ أنفاس السحر ، وفيها تقول الشاعرة :

يا راية الإسلام عودى رفافة فوق البنود
سودى المشارق والمغا رب فالكرامة أن تسودى
يا صفحة أملت على الـ أيام معجزة الوجود
عم الأخاء فما يرى من سيد أو من مسود

ثم تخاطب الشاعرة العرب ، وتذكرهم بماضيهم ومجدهم ، وتنعى عليهم فرقتهم ، وتقول فى آخرها :

العيد أن تتوحدوا أن ترغموا أنف اليهود
أن تنهضوا بعد العثا ر ، وتنشطوا بعد الركود
أن تؤمنوا أن الحيا ة لكل جبار عنيد
وترقبوا خلل الظلا م بشائر الفجر الوليد

٢ — قصيدتها « صراخ الظلم » — ٧٩ أنفاس السحر ، وفيها تتحدث الشاعرة عن ألوان الظلم الاجتماعى فى مجتمعنا العربى مما لايقره الإسلام وفيها تقول :

تمنيت أن لو عاد فينا محمد إذن لاتى بعد الضلالة مرشد ،

وقياسها النحوى أن تقول : مرشدا ، ولا أدرى ما الوجه الذى نظرت اليه الشاعرة فى تسويغ ذلك . . ثم تقول :

فيا قوم إن مات النبى فحية　　شرائعه وهى التراث المخلد
فعودوا إلى إيمانكم بعد ضلة　　نعود كمو للحق يا قوم أحمد

٣ — ونرى فى قصائدها :

(أ) وارحمتا للخلق (٦٠ أنفاس السحر) التى تبعى فيها على امرأة مستهترة استهتارها ، وهى ذات نزعة إسلامية .

(ب) إلى يثرب (٧٠ أنفاس السحر) ، التى سبق أن أشرنا اليها .

نرى فيها كذلك نزعة إسلامية واضحة ، وشعرها فى أغلبه ، تسوده هذه الروح الإسلامية الصافية القوية ، وتجتمع فيه بلاغة الصياغة ، وجزالة الأسلوب .

— ٧ —

أما شعرها العربى والوطنى ، فكثير ومنه قصائدها :

بغداد — ٩ أنفاس السحر
وحدوا الصف — ٧٢ أنفاس السحر
أمل وألم — ٨١ أنفاس السحر
يوم الجسر — أنفاس السحر
إلى الحرب — ٩٩ أنفاس السحر

لقاء الأحباب — ٦٨ لألاء القمر ، وترحب فيها بوفد علمى عربى قدم بغداد .

وكل هذه القصائد ذات نزعة عربية أصيلة . .

وإن شئت فاستمع إلى الشاعرة فى قصيدتها « بغداد » تقول :

أنا أهواك فوق ما عرف الحب كأنا فى الحب قيس وليلى
غرة أنت فى جبين الليالى تملأ المشرقين نوراً ونبلا

وتقول فى قصيدتها « وحدوا الصف » :

وضح الصبح لدنيا العرب وتجلى كسنا من لهب

ومنها :

وحدوا الصف ولا تنقسموا واحذروا يا قوم كيد الأجنبى

وتقول فى قصيدتها « لقاء الأحباب » :

يا لذى ألف القلوب على الحب فرفت نورا ويمنا ونبلا
إنه سادتى لقاء عزيز هو أغلى من الحياة وأحلى

— ٨ —

وبعد ، فهذه هى الشاعرة عاتكة الخزرجى فى شعرها : مضمونا وشكلا ، شعوراً وتعبيراً ، فكراً وصورة ، موضوعاً وصياغة ، أغراضا ومعانى ، وأخيلة . . وهى حقا شاعرة غنائية من طراز فريد ، ذات موسيقى حلوة ، وعمودية رقيقة وأصالة نادرة .

ونحن هنا لا يفوتنا أن ننوه بتحقيقها الرائع لديوان العباس بن الأحنف الذى قدمته معه دراسة مفصلة لحياة العباس وشعره وحبه ، إلى جامعة السوربون ، حيث نالت منها شهادة الدكتوراه الدولة فى الأداب ، وهذا فخر للمرأة العربية المعاصرة ممثلة فى شخص الدكتورة الشاعرة وما بعده من فخر .

وهذا التحقيق لديوان العباس مطبوع فى مطبعة دار الكتب المصرية . .

بالقاهرة عام ١٣٧٣ هـ ١٩٥٤ م في نحو ٣٢٨ صفحة ، من القطع الكبيرة بتقديم المستشرق الفرنسي ر . بلاشير أستاذ الأدب العربي بالسوربون .
وهذا التحقيق مصدر بإهداء منها إلى أستاذها بلاشير .

وقد راجعت فيه ثلاث نسخ خطية ونسختين مطبوعتين قبلا ، وذيلته بفهارس مختلفة ، وهذا التحقيق يعد من الأعمال الأدبية الجليلة الفريدة في أدبنا وتراثنا العربي .

وليس لي من استدراك عليه إلا أن أقول للدكتورة :

إن نسخ الديوان الخطية والمطبوعة من قبل قد أحالت ونسبت إلى العباس شعرا ليس له ، وإن أولى قصائد هذا الديوان ، وهي :

كتب المحب إلى الحبيب رسالة والعين منه ما تجف من البكا

ليست للعباس ، ولا هي شبيهة بشعره ولا بصياغته .

ولو رجعنا إلى قصيدتين للعباس في نفس الموضوع مثل قصيدتيه (ص ٢٧ ، ٢٤٥ الديوان) لتبين لنا اختلاف الشاعرية فيهما عن شاعرية القصيدة الأولى ، في المعني والروح والفكرة والصياغة أيضا .

وهذا ليس للدكتوره مدخل فيه ، إنما اللوم على النسخ الخطية والمطبوعة للديوان مما يوجب التثبت من قصائد الديوان في وتوثيقها ، وقد فعلت الدكتورة ذلك في أكثر قصائد الديوان ، التي خرجتها تخريجا علميا أصيلا جليلا .

ويبدو لي أن القصيدة الأولى من شعر الشاعر المصري « ابن مطروح » الذي ظهر ديوانه ملحقا بديوان العباس من طبعة الجوانب ١٢٩٨ هـ ١٨٨٠ م بتصحيح يوسف النبهاني .

وصياغة القصيدة الأولى فى ديوان العباس هى صياغة عصر البهاء زهير وابن مطروح وابن الفارض وأضرابهم من شعراء العصر المملوكى .

وأقرب تفسير لذلك أن شعر العباس وابن مطروح كانا فى مجموعة خطية واحدة ثم حدث خطأ بتقديم بعض أوراق المجموعة على بعض ، فكان قدم ورقة من ديوان ابن مطروح تشتمل على قصيدة هى التى صدر بها ديوان العباس .

الكلمـــة الأخيرة

فى هذا الجزء — كما يـــرى القارىء — دراســـات عن شاعرين أبو لليين هما : عامر بحيرى ، ومصطفى عبد الرحمن ، ودراسة لمدرسة شـــعراء المهجـــر ، ولشاعرين مهجريين كبيرين : أحدهما من المهجـــر الشمالى وهو ايليـــا أبو ماضى ، والثـــانى من المهجر الجنوبى وهو زكى قنصـــل .

ثم أتبعت هذه الدراسات بدراســـة للمسرح الشعرى المعاصر ، ولفن شوقى الشعرى ، وللشعر الحديث والقصيدة العمودية ، ولشاعر من مدرسة الشعر الحديث وهو صلاح عبد الصبور ، ثم دراســـة عن الملحمة الشعرية وتطورها فى الآداب العالمية .

ويلى ذلك دراسة للحركة الأدبية والشعرية فى السودان ولثلاثة شعراء من السودان هم : التيجانى يوسف بشير ، والدكتور عبـــد الله الطيب ، ومبارك المغربى ، ودراسة للحركة الأدبية والشعرية فى ليبيـــا وأعلامها ، ودراسة للحركة الشعرية ، فى الخليج العربى ، وفى اليمن ، وسوريا ، ولشاعرة من العراق هى الدكتورة عاتكة الخزرجى .

ولا ريب أن هذه الدراسات لتطور الحـــركة الشعرية فى الـــوطن العربى ، مما يثرى معرفتنا عن الشعر العربى المعاصر وعن مسار الفكر فى مختلف شعوب العالم العربى .

وبذلك ينتهى الجزء الثالث من هذه الموسوعة .. ويليه الجـــزء الرابع ، الذى سيكمل حلقة الدراسات الأدبية عن الوطن العربى ..

وبالله التوفيق ،،

المؤلف

فهرست